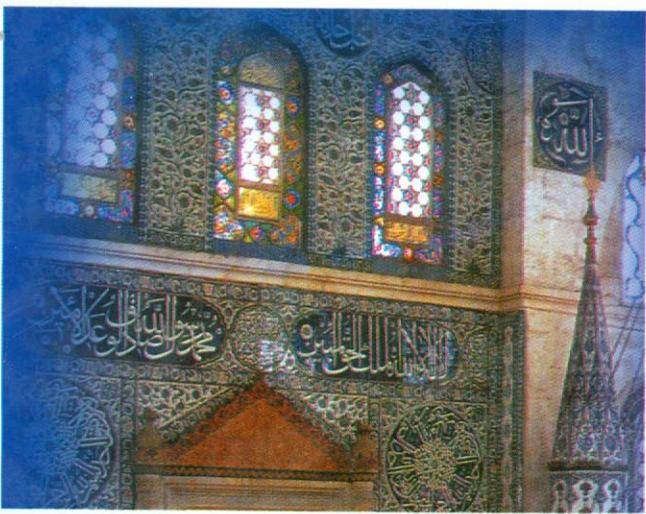


موسوعة تاريخ الأسلامي

العصر الاموي

صلاح طهوب



دارأسامة

الناشر

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن - عمان

هاتف : ٥٦٥٨٣٥٣ - فاكس : ٥٦٥٨٣٥٤ - تلفاكس : ٤٦٤٧٤٤٧

ص. ب : ١٤١٧٨١

حقوق الطبع محفوظة للناشر

٢٠٠٩ مـ

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٤ / ١٠٤٩)

٩٥٦,٠٤

موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر الأموي/ جمع وإعداد
صلاح طهوب.- عمان: دار أسامة للنشر ، ٢٠٠٤.

. () ص .

ر. إ: ٢٠٠٤/٥/١٠٤٩

الواصفات : /التاريخ الإسلامي// العصر الأموي// الإسلام/
الموسوعات /

تم إعداد بيانات الفهرسة و التصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

المقامة

بعد انتهاء حكم الخلفاء الراشدين باستشهاد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). بُويع معاوية بن أبي سفيان بالخلافة سنة ٤١ هـ. وهو أحد أفراد البيت الأموي وكان قبل تسلمه قيادة الدولة العربية الإسلامية والياً على بلاد الشام منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). وتسمى هذه المدة من تاريخ الدولة العربية الإسلامية بالعصر الأموي نظراً لتسليم الأمويين العرب قيادة الدولة من سنة (٤١ هـ - ١٣٢ هـ).

ولقد اتخذ الأمويون مدينة دمشق عاصمة للخلافة الأموية. وأدخلوا مبدأً جديداً في النظام السياسي للدولة العربية الإسلامية. وهو مبدأ الوراثة في الحكم وتحولت بذلك الخلافة إلى نظام سياسي جديد وابتعد تدريجياً عن مبدأ الشوري.

لقد تطورت الدولة العربية الإسلامية في عهد الأمويين وأصبحت بمستوى الدولة القومية المستقرة. وحصل تحول وتطور نحو الحياة الحضرية. وجعل الأمويين من الدولة الجديدة دولة عربية تستند في أسسها السياسية والإدارية إلى العرب. كما تهأت الفرصة لكي تمتد حركة الفتوحات وتصل إلى أقصى ما عرفته حركة الفتح والاتساع في الإسلام. ورافق ذلك تعريب شامل في دواوين الدولة ومؤسساتها النقدية.

إن اعتماد الخلافة الأموية على مبدأ الوراثة في الحكم جعل الحكم يتجه تدريجياً نحو الاعتماد على التكتل القبلي الذي أضعف الدولة. وكان

عاملًا في تدهورها السريع وسقوطها في سنة ١٣٢هـ، وقيام الدولة العباسية.



الفصل الأول

خلافة معاوية بن أبي سفيان
(٤١-٦٦٠ هـ / م)

عانت الدولة العربية الإسلامية من فرقة شديدة بعد مقتل الخليفة عثمان ابن عفان فقد شهد عصر الخليفة علي بن أبي طالب (٥٣٥هـ - ٦٤٠هـ) حرباً أهلية وتمرداً لبعض الولايات المفتوحة وانتهت الحرب الأهلية بوصول معاوية بن أبي سفيان إلى الخلافة. وقد واجه معاوية معارضة شديدة من قبل فئات متعددة لكنه تمكّن من التغلب عليها وأعاد الأمان والاستقرار للدولة العربية، ثم استأنف العرب في عهده حركة الفتح والتحرير في الشرق والغرب ودكوا معاقل البيزنطيين وحاصرموا عاصمتهم القدسية.

ويمكن أن يقسم عصر معاوية إلى قسمين رئيسيين:

انتقال الخلافة إلى الأمويين:

كان من نتائج معركة صفين (٥٣٧هـ / ٦٥٧م) أن ضعف الوضع العسكري والسياسي للخليفة علي بن أبي طالب (رض) فقد حاربه الخوارج بشدة وترافق أهل البصرة عن تأييده وكان أهل الكوفة معه بآرائهم فقط.

وكان من بينهم المحايد والمؤيد لعثمان ولحق بعضهم بمعاوية بن أبي سفيان وقد أدى ذلك إلى ضعف سيطرة الخليفة علي على الولايات الشرقية فقد تمردت بعض الولايات الفارسية وحاول أهل كرمان الامتناع عن دفع الخراج ونجح بعض الطامعين من الفرس في طرد عمال الخراج وسيطروا على نواحיהם وما يحيط بها.

وقد وجه معاوية حملات إلى المدن التي في طاعة الإمام علي، فقد وجه النعمان بن بشير إلى عين النمر. وسفيان بن عوف إلى هيت والأبار، وعبد الله ابن مسعة القراري إلى تيماء. ووجه إلى الفطقطانة الضحاك بن قيس.

ويرى فلهاؤزن أن هذه الحملات كانت مجرد غارات لأهل الشام لأنهم كانوا يعودون بالغنائم وكان أهل الكوفة يطاردونهم ويدركونهم ويقتلونهم.

وفي سنة ٤٦٠هـ/١٦٦٠م عقدت هدنة قصيرة بين الخليفة علي ومعاوية إذ اتفقا على أن يكون العراق تحت حكم الخليفة علي والشام تحت حكم معاوية ولا يتدخل أحدهما في شؤون الآخر ولا غارة ولا غزو بينهما.

وفي السنة نفسها أعلن معاوية نفسه خليفة للمسلمين وأخذ البيعة من أهل الشام.

وبذا يكون معاوية قد تحدى الخليفة علي فقرر إعداد حملة لمحاربة معاوية لكن اغتياله حال دون ذلك. وبعد اغتيال الخليفة علي بايع أهل الكوفة وما جاورها الحسن بن علي.

وفي سنة ٤٦١هـ/١٦٦١م دانت الدولة العربية الإسلامية لمعاوية بن أبي سفيان. إذ أن الحسن بن علي حينما رأى ضعف أنصاره وقلة إخلاصهم لقضية تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رغم معارضته أخيه الحسين. وعقدت معااهدة بين الطرفين التزم فيها معاوية أن يعمل بكتاب الله وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأن تكون الخلافة له ما دام حياً ويكون الناس آمنين حيث كانوا من أرض الله وان لا يولي أحداً بعده.

ولما صالح الحسن بن علي معاوية حاول قيس بن سعد قائد جيش الحسن ووالى أذربيجان التمرد وعدم الدخول في طاعة معاوية لكن جيش الحسن استجاب للحسن وترك قيس بن سعد. وتمكن قيس بن سعد من ضم الشرطة إليه وحاول معاوية مصالحة قيس بن سعد رغم محاولة عمرو بن العاص بإغراء معاوية بمحاربة قيس، فأبى قيس المصالحة في بداية الأمر لكنه لان وحصل على أمان له ولأنصاره ومؤيديه فأعطاه معاوية ما أراد.

وكانت هناك ثلاثة أحزاب عربية. أولها أنصار الأمويين ومعظمهم من أهل الشام، وثانيها العلويون وهم الذين يرون أن أعقاب الإمام علي خير من غيره وأحق بولاية أمر المسلمين ومعظم هؤلاء في العراق ومصر، والحزب الثالث هم الخوارج الذين يرون الحزبين الأول والثاني كفاراً ويستبيحون دماءهم ويرون أن كلاً الحزبين قد ألدوا في الدين.

إن الذي كانت تحتاجه الدولة العربية الإسلامية هو إدارة قديرة تدير أمراًها وتتوفر لها الأمن والاستقرار وكان معاوية آنذاك هو الشخص الذي يملك القابليات للقيام بهذه المهمة، فقد كان صبوراً على المكروره وحلينا لدرجة كبيرة وأطسول باعاً من غيره في السياسة، وقد وصفه ابن الفقطفي قائلاً: كان معاوية عاقلاً في دنياه، لبيباً عالماً، حليماً ملكاً قوياً، جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا، عاقلاً حكيماً فصيحاً بلغاً يحلم في موضع الحلم ويشتد في موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه، وكان كريماً باذلاً للمال محباً للرياسة شغوفاً بها وقد وصفه فلهاؤزن قائلاً كان معاوية في جوهر أمره رجل دبلوماسياً وسياسياً وكان يترك الأمور حتى تتضاج ولم يكن يتوجهها إلا في بعض الأحيان وكان لا يلجاً إلى القوة إلا كارهاً.

إن قابليات معاوية وصفاته هي التي مكنته من أن يخضع له أبناء المهاجرين والأنصار وكل من يعتقد أنه أولى بالخلافة.

- دور معاوية بن أبي سفيان في تأسيس الدولة الأموية:

- أهم ولاة معاوية:

اعتمد معاوية على مجموعة من الولاة الأكفاء في تذليل المشاكل والقضاء على التأثيرين ضده، وتنشيط حكمه في الولايات، وتروي المصادر

الكثير عن هؤلاء الولاة أكثر مما ترويه عن أخبار معاوية نفسه. وأبرز هؤلاء الولاة عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبه، وزياد بن أبيه.

لم تكن أحاسيس معاوية أيضاً ودية تجاه عمرو بن العاص ولم تكن أحاسيس ابن العاص ودية تجاه معاوية أيضاً، وقد أدرك معاوية أن عمرو بن العاص من دهاء العرب المشاهير وهو بأمس الحاجة لخدماته التي يستطيع أن يجني ثمارها، وفي الوقت نفسه شعر عمرو بن العاص أنه يستطيع أن يجني ثمار دهائه لقاء خدماته لمعاوية، كل ذلك جعل الاثنين يتادلان المتفعة ويختفي كل منها ما في نفسه تجاه صاحبه.

وروى ابن الطفطي " ومن دهاء معاوية استمالته لعمرو بن العاص أحد الدهاء المشاهير . وكان عمرو عندما نشبت الفتنة بين علي ومعاوية معتزاً للفريقين فرأى معاوية أن يستميله ويقوى به ، وو عده ولية مصر ، ومصر كانت الأمل الذي تهفو له نفس ابن العاص وبهذا انضم عمرو إلى معاوية وساعدته مساعدة كبيرة مع أنه لم تكن بينهما مودة قلبية ، وكانا يتبغضان سراً " ولما استقر الأمر لمعاوية ولـى عمرو بن العاص مصر وظل عمرو والـى عليها حتى مات سنة (٤٤٣هـ / ٦٦٣م) وولي معاوية بعده ابنه عبد الله فبقي والـى عليها حوالي سنتين .

وكان المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه تقفيين من الطائف . المدينة المعروفة بجمال موقعها وطيب هوائها وقد اشتهر التقفيون بالفطنة والذكاء والدهاء وقد برز منهم في العصر الأموي عدد كبير من أهل المواهب ومنهم زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف والمختار بن أبي عبيد الثقفي ومحمد بن القاسم وكثير من الرجال البارزين .

وكان المغيرة بن شعبة قد أسلم سنة (٥٨-٦٢٩هـ) وفي سنة ٩هـ كلفه النبي (صلى الله عليه وسلم) بهدم صنم اللات في الطائف، ولكي ينال شرف لمس جسد النبي الطاهر فقد طرح خاتمه في قبر النبي قبل ان يهال عليه التراب. وأخذ فيما بعد يبني على ذلك أمانة.

ولما كان المغيرة رجلاً فضوليًّا فقد أخذ يدس نفسه في أمور الخلافة الكبيرة ليظهر للناس أنه من الأرسقراطية. ومثل هذه الأمور الكبرى مجلس الشورى ومحكمة المحكمين في دومة الجندي.

وقد استقاد من معرفته بالفارسية فأخذ يدعى أنه يستطيع أن يناقش في أمور الإسلام مع الفرس، ولذا فقد اختير مفاوضاً ورسولاً.

عين المغيرة والياً على البصرة بعد وفاة عتبة بن غزوان وقد نظم الدواوين وفتح ميسان والأحواز وشهد معركة نهاوند. وفي سنة ٢١هـ - ٤٤م عين والياً على الكوفة وفي عهده فتحت ميديا وأذربيجان ولمع نجمه في عهد الخليفة علي.

وفي الصراع الذي دار بين الخليفة علي ومعاوية اختلف المغيرة مع الخليفة علي وولى وجهه صوب معاوية وعرف معاوية كيف يستفيد منه فقد عينه والياً على الكوفة بعد أن أخذ البيعة له من العراقيين.

قدم المغيرة إلى الكوفة وهو كبير السن وقد صقلته الحياة، ولذا فقد حرص لا يصطدم بمن فوقه ولا بمن تحته ولم يكن متحمساً لمعاوية ولا متحمساً ضد الأحزاب المتصارعة في الكوفة بل كان همه الاحتفاظ بولاية الكوفة وقد وضع سياساته بقوله "لا أحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقا، ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيمة المغيرة

ولكن قابل محسنهم وعفى عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بينه وبينهم الموت".

نجح المغيرة في التخلص من الخوارج أعداء الدولة الألداء وذلك بتعاون أهل الكوفة معه، لأنه نجح في كسب رضاهم عنه، وذلك لأنه لم يشتد معهم رغم ميوله العلوية الصريحة. ورغم معرفته بأنهم سوف يتحركون عسكرياً ضد معاوية لأنه كان على يقين أنه سوف لن يشهد تحركهم حياً، وقد أراد العافية لنفسه وأراد أن يلقى ذلك على كاهل من سيخلفه وان تناهله وليونته مع الكوفيين جعلهم يقولون أنهم ما ولهم والٍ بعد مثله وقد ظل المغيرة والياً على الكوفة حتى مات سنة (٥١٦هـ) فضم معاوية الكوفة إلى زياد بن أبيه والي البصرة .

أما زياد فقد كان والياً علي بن أبي طالب على فارس وقد فشل معاوية في استمالته إلى جانبه في صراعه ضد الخليفة علي وعندما اغتيل الخليفة علي أعلن زياد استقلاله في فارس وحاول معاوية أن يوسط المغيرة لضم زياد إلى جانبه وقد نجح المغيرة بعد جهد بإقناع زياد بالشخصوص إلى معاوية سنة (٤٢هـ-٦٦٢م) بعد أن تسلم عهد الأمان من معاوية، وعندما وصل زياد إلى معاوية سأله معاوية عن أحوال فارس فأخبره بما أنفقه وبما حمل إلى الخليفة علي وبما بقي عنده فصدقه معاوية وقبض منه ما بقي عنده ولم يكن لزياد أي معروف ولذا فقد كان يعرف بزياد بن أبيه أو زياد بن سمية ويرى أن أبي سفيان قد أُعترف في أواخر أيامه أمام علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وعمرو بن العاص انه أجمعوا بأم زياد ولكن نسب زياد إلى أبي سفيان لم يتم إلا في عهد معاوية سنة (٤٤هـ-٦٦٤م) عندما أُعترف معاوية بأخوته لينتفع به وبمواهبه ومنذ ذلك الحين أصبح يسمى زياد بن أبي سفيان. وكانت الحالة في البصرة سيئة جداً فقد أصبحت الأمور بيد القبائل لا بيد الحكومة، وغلب على البصرة سفهاؤها، وضعف سلطان الدولة فيها، وانتشر السلب والنهب والقتل في رابعة النهار وقد

ضجر معاوية من لين والي البصرة عبد الله بن عامر الأموي فعزله وعين الحارث بن عبد الله الأزدي مكانه وكان يريد منه أن يمهد الطريق إلى زياد.

وفي سنة (٤٥-٦٦٥م) ولـى معاوية زـياداً البصرة وخراسـان وسـجستان والـهند والـبحرين وعـمان، فـقدم إـلى البـصرة في أـواخر السـنة المـذكـورة وأـلـامـور فـيـها مـضـطـرـبة جـداً وـالـفـحـشـ فيـها مـنـتـشـرـ والـسـرـقـاتـ وـالـجـرـائـمـ مـسـتـمـرـةـ فـخـطـ بـهـمـ خـطـبـتـهـ الـمـعـرـوـفـ بـالـبـلـرـاءـ وـإـنـماـ قـيلـ لـهـ ذـلـكـ لـأـنـهـ لـمـ يـحـمـدـ اللهـ فـيـهاـ وـلـمـ فـيـهاـ مـنـ رـوـائـعـ الـحـكـمـ وـبـدـيعـ الـحـكـمـ وـبـيـانـ سـيـاستـهـ فـيـ حـكـمـ الـبـلـادـ وـعـدـ فـيـهاـ مـسـاوـيـ أـهـلـ الـبـصـرـةـ وـتـوـعـدـهـمـ بـالـوـيـلـ وـالـثـبـورـ وـقـالـ لـهـمـ: "لـيـأـخـذـنـ الـوـليـ بـالـمـوـلـىـ، وـالـمـقـيمـ بـالـظـاعـنـ وـالـمـقـبـلـ بـالـمـدـبـرـ وـالـمـطـيـعـ بـالـعـاصـيـ، وـالـصـحـيـحـ مـنـكـمـ فـيـ نـفـسـهـ بـالـسـقـيمـ حـتـىـ يـلـقـىـ الرـجـلـ مـنـكـمـ أـخـاهـ فـيـقـولـ: أـنـجـ سـعـدـ فـقـدـ هـلـكـ سـعـيدـ، أـوـ تـسـتـقـيمـ لـيـ قـنـاتـكـمـ".

ونـجـ زـيـادـ فـيـ القـضـاءـ عـلـىـ الـفـوضـىـ وـالـاضـطـرـابـاتـ وـإـقـرـارـ الـأـمـنـ لـاـ فـيـ الـبـصـرـةـ وـحـدـهـ بـلـ فـيـ الـوـلـاـيـاتـ الـفـارـسـيـةـ، وـيـذـكـرـ الطـبـرـيـ أـنـ زـيـادـ أـوـلـ مـنـ شـدـ أـمـرـ السـلـطـانـ وـأـكـدـ الـمـلـكـ لـمـعـاـويـةـ إـلـزـامـ النـاسـ الطـاعـةـ وـنـقـدـ فـيـ الـعـقـوبـةـ وـجـرـدـ السـيفـ وـأـخـذـ بـالـظـنـةـ وـعـاقـبـ عـلـىـ الشـبـهـةـ وـخـافـ النـاسـ فـيـ سـلـطـانـهـ خـوفـاًـ شـدـيدـاًـ حـتـىـ أـمـنـ النـاسـ بـعـضـهـمـ بـعـضـاًـ حـتـىـ كـانـ الشـيـءـ يـسـقطـ مـنـ الرـجـلـ أـوـ الـمـرـأـةـ فـلـاـ يـعـرـضـ لـهـ أـحـدـ حـتـىـ يـأـتـيـهـ صـاحـبـهـ فـيـأـخـذـهـ وـتـبـيـتـ الـمـرـأـةـ لـاـ تـغـلـقـ عـلـيـهـ بـابـهـ، وـسـاسـ النـاسـ سـيـاسـةـ لـمـ يـرـ مـثـلـهـ وـهـابـهـ النـاسـ هـيـةـ لـمـ يـهـابـهـ أـحـدـ قـبـلـهـ، وـقـدـ حـقـقـ زـيـادـ هـذـاـ أـمـنـ وـالـسـقـرـارـ بـطـرـيـقـةـ تـشـبـهـ إـلـىـ حدـ ماـ الـحـكـمـ الـعـرـفـيـ لـأـنـ "أـخـذـ الـوـليـ بـالـمـوـلـىـ وـالـمـقـيمـ بـالـظـاعـنـ وـالـمـقـبـلـ بـالـمـدـبـرـ وـالـمـطـيـعـ بـالـعـاصـيـ، وـالـصـحـيـحـ فـيـ جـسـمـهـ بـالـسـقـيمـ" أـمـرـ لـيـسـ جـارـيـاـ فـيـ الـقـانـونـ الـشـرـعـيـ الـذـيـ يـقـصـرـ الـمـسـؤـولـيـةـ عـلـىـ الـمـجـرـمـ وـإـنـماـ ذـلـكـ شـيـءـ يـلـجـأـ إـلـيـهـ الـإـدـارـيـوـنـ لـتـخـفـيـفـ الـآـمـ الـجـرـائـمـ، وـإـرـهـابـ النـاسـ حـتـىـ يـأـمـنـ النـاسـ شـرـهـ وـفـائـدـهـ ذـلـكـ فـيـ الـغالـبـ وـقـتـيـهـ.

وبعد موت المغيرة أضيفت الكوفة إلى زياد سنة (٥١-٦٧١م) وبذا يكون أول من أجمع له البصرة والكوفة. كان زياد يقيم ستة أشهر في الكوفة وستة أشهر في البصرة. وكانت مهمته في الكوفة أشد منها في البصرة لقوة المعارضة في الكوفة وكان حجر بن عدي على رأس المعارضة في الكوفة. وقد نصب المعارضة في الكوفة خليفة زياد (عمرو بن الحريث) بينما كان يخطب في المسجد، فأسرع زياد بالقدوم إلى الكوفة وهدد أهلها وطلب منهم الابتعاد عن حجر بن عدي ففعلوا، ثم ألقى زياد القبض على حجر بن عدي وأرسله مع مجموعة من أنصاره إلى معاوية فقتل حمرا وبعض أنصاره.

وكان لسياسة الشد التي أتبعها زياد ضد المعارضة في العراق أثر في تكتلهم وازدياد النسمة علىبني أمية من جهة وعلى زياد من جهة أخرى.

وقام زياد بأعمال عمرانية كثيرة في العراق. ويدرك الطبرى أن زياداً أصلح مسجد الكوفة، وأمر بإلقاء الحصى فيه ويعلل البلاذري أن زياداً فعل ذلك لأن الناس كانوا يصلون فإذا رفعوا أيديهم تربت ثم نفضوها فخشى زياد أن يظن الناس أن نفض الأيدي سنة في الصلاة فأمر بجمع الحصى وإلقائه في صحن المسجد. ويعتبر زياد أول من عمل المقصورة وأول من أنشأ المنائر في العراق وفي البصرة بالذات ومن أعمال زياد الإدارية أنه قسم الشرطة في الكوفة إلى أربعة أقسام في كل قسم منها تتمثل القبائل المختلفة من غير أن يكون على رأسهم رئيس القبيلة بل رئيس تعينه وقد قسم جند البصرة إلى خمسة أقسام ولكن الصبغة القبلية كانت أكثر ظهروا في هذا التقسيم من تقسيم الكوفة وبعد الإجراء المذكور من العوامل التي ساعدت على إضعاف سلطة رؤساء القبائل. واهتم زياد بنظافة الشوارع وتسويتها بعد المطر.

فقد أمر أصحاب الدور بأخذ قسم من الطين من فناء دورهم لتسوية الشوارع به، وكان يأمر الناس بتنظيف الشوارع وقد فكر بتطوير هذا المسلك فاشترى عبيدا للقيام بهذه المهمة. وبذا يكون أول من أوجد التنظيف العام للشوارع.

وأمر زياد بنقل خمسين ألف من البصرة والковفة بعائالتهم إلى خراسان وأسكنهم فيما وراء النهر، ولعل ذلك يعود إلى رغبة زياد في التخفيف من حدة التوتر السياسي في العراق، أي رغبته في إبعاد القبائل التي يخاف منها أو أنه أراد أن يشجع حركة التعرّيب في خراسان، ولغرض القضاء على حركات العصيان المستمرة في خراسان ولجعل خراسان مركزاً لغزو بلاد ما وراء النهر ولكي تصبح خراسان قاعدة ثابتة للعرب، وربما قصد من نقلهم أيضاً تخفيف الضيق الاقتصادي في البصرة والkovفة حيث جذبت البصرة الكثير من القبائل العربية من البحرين والجاز وجميع أنحاء الدولة العربية الإسلامية وكان بعضهم يتمتع بالعطاء وبعضهم محروم منه.

وكذلك لتخفييف التدهور الأخلاقي الذي كانت تعشه البصرة لكثرة اللصوص والقتلة ويظهر أنه أبعد بعض هؤلاء المشاغبين مع الأعداد التي هجرها.

وكان من نتائج نقل هذا العدد الضخم من العرب إلى خراسان إيجابيات كثيرة وقد هجر زياد عدداً كبيراً من الأزد إلى مصر، وقد أطلق المصريون على الأزد المهجرين إلى مصر اسم العراقيين لمجيئهم من العراق ويرى الدكتور العلي أن الذين نقلهم زياد من الأزد إلى مصر هم من غير المرغوب فيهم، وقام زياد بنقل العناصر غير العربية " الفرس " من الكوفة.

فقد كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف من يسمون جند شهانشاه طلبوا الصلح من سعد بن أبي وقاص وطلبوا أن يسمح لهم أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من شاءوا ويفرض لهم العطاء فوافق سعد على طلبهم ونزلوا الكوفة وفرض لهم عطاء ألف ألف درهم وسموا حمراء ديلم.

ويذكر أيضاً أن هؤلاء الفرس الذين كانوا يسكنون الديلم فلما غزا المسلمون قزوين أسلموا على مثل ما أسلم عليه أساؤرة البصرة ونزلوا الكوفة ويظهر أن زياداً شعر بترابيد خطرهم في الكوفة فسير قسماً منهم إلى الشام حيث أسكنهم معاوية إنطاكية.

وكان الدافع لتهجير الفرس إلى الشام وإسكانهم إنطاكية هو تفتت التكتل العنصري غير العربي خشية غلبتهم على العنصر العربي أو غلبة مقومات حياتهم على مقومات الحياة العربية في الكوفة.

ومن ناحية أخرى فإن إسكانهم مع الجراجمة قد يقلل من توارث الجراجمة.

وليكونوا قوة على الحدود البيزنطية إذ لا خوف من تكتلهم مع البيزنطيين للعداء القديم بين الفرس والبيزنطيين. وسيزداد قسماً آخر من الفرس في الكوفة إلى البصرة فدخلوا في الأساؤرة الذين بها.

جهود معاوية في حرب التحرير والفتح:

كان عهد معاوية ملائماً للفتح والتحرير لتوفّر الأمان والاستقرار في الدولة العربية الإسلامية.

وقد شملت قوّة معاوية وهيمنته على أجهزة هذه الدولة ومؤسساتها وقد شملت حرب التحرير والفتح العربية في عهد معاوية الجبهات الآتية:

جبهة الروم :

شهد عهد معاوية قيام المسلمين بالتوجه نحو فتح بلاد آسيا الصغرى الواسعة، أو ما يعرف للعرب "الروم" وهذه التسمية تعني جيلاً من الناس، أو أنها كلمة فارسية أو تركية.

وأن قصد العرب بها الدولة الكبرى الأخرى التي كانت تسيطر قبل الإسلام مع العجم وقد ذكرها القرآن الكريم ومهما يكن فإن الروم كانت هي وراثة الرومان في الشرق بعد أن قضى على دولتهم المترابرون في أوروبا وقد كانت تعرف للعرب أيضاً باسم (بوزنطيا) نسبة إلى بوزنطية وهي البلد اليونانية القديمة التي اتخذها الإمبراطور قسطنطين الأكبر عاصمة له في سنة ٣٣٠م عند تأسيسه لهذه الدولة في الشرق. ولو أنه غالب على هذه المدينة اسم القسطنطينية.

ولم تكن الروم دولة رومانية إلا اسماً ذلك لأن آسيا الصغرى منذ زمن بعيد كانت مجالاً لسكنى أجيال اليونان الذين ظهرت لهم مستعمرات عديدة أقدمها يرجع إلى عصر هومر وقد زادت هجرة اليونان إليها تحت ضغط البرابرة في أوروبا بحيث أصبحوا قبل الإسلام يكونون أغلبية سكانها يتكلمون اليونانية الدارجة وليس اللاتينية.

وهم الذين عرفوا للعرب (بالروم) أو حتى (بني الأصفر) لكثره الشقر فيهم وكذلك وجد بينهم خليط من الحيثين والميتانيين والأرميين كانت تسكن المنطقة الجبلية الفاصلة لحدود الروم الشرقية تمتد حتى البحر الأسود وتعرف لسكان الشام باسم (الجرائم) أو الجرامقة نسبة إلى بلد تسمى الجرمومة قرب إنطاكية أو حتى باسم المردة أي العصاة.

إن المسلمين في عصر الخلفاء الأوائل استولوا على أجزاء كثيرة من أملاك الروم في البحر الأبيض وأرجعواهم إلى بلادهم في آسيا الصغرى ولعل

الروم لم يستغلوا انشغال المسلمين بفتنة الخليفة عثمان بسبب الضربات القاضية التي كانوا قد تلقواها منهم وبسبب أن حدود بلادهم الغربية كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلفية من الصرب والكروات ولكنهم خلال هذه الفتنة استولوا على بعض الأجزاء المجاورة لهم من أرمينية وهو الصقع الكبير الذي كان قد فتح في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض) وقد سعى المسلمون من جانبهم إلى استمالة بعض العناصر المخلصة لهم وأرسلوا بعض الأمراء من الأرمن الأسرى في دمشق ليرحّلوا لهم.

ولا ريب أن الفتنة جعلت أهل أرمينية أنفسهم يستقلون بأجزاء كثيرة منها خصوصا وأن أغلب مناطقها كان في معاهدات أمان مع المسلمين، وفوق ذلك كان الروم يثيرون ضد المسلمين عناصر الجراجمة الجبلية الساكنة على حدود الشام مع أن المسلمين كانوا قد صالحوا هم بينما فتحوا بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) على أن يكونوا أعداء المسلمين على شريطة ألا يتطلب منهم الجريمة فكان نتيجة هذا التحرير أن قام الجراجمة بالسلب والنهب في أراضي شمال الشام.

ومن المحقق أن معاوية أحس بنواعيا الروم وإن كان اضطر أثناء الفتنة إلى عقد هدنة مع الإمبراطور قسطنطين الثاني حتى لا ينتهز الروم الفرصة في هجوم على الشام التي كان أميرا عليها منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب. وكذلك عقد صلح في أول خلافته يعتبر امتداداً للصلح الأول في سنة ٤٢ هـ - ٦٦٢ كما صالح الجراجمة ليتفرغ إلى المشكلات العاجلة التي نشأت من إعلانه الخلافة.

ولكن ما أن انتهى من مشاغله حتى شن حرباً عاتية على الروم في بلادهم ذاتها بحيث انه شغلهم بالدفاع عن أرضهم طول مدة حكمه.

لأن المسلمين قد اشتربوا مع الروم منذ فتح الشام ولم تكن من العمق والدوم مثلاً حدث في عهد معاوية فقد كان هدفها هذه المرة تحطيم حصون الروم والاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية.

وقد اشتهرت حرب المسلمين مع الروم باسم (حرب التغور) أي الحدود وهي لفظة مفردة (اللغور) تعني كل موضع يكون في أرض العدو في بطن وادٍ أو فرجة جبل قرب أرض المسلمين فقد كانت حدود الروم تتكون من سلاسل جبلية شاهقة منها جبل اللقام الهائل الممتد على طول التغور من البحر الأبيض حتى بحر قزوين وتتميز بطرقها الكثيرة التي تعرف (بالدروب) ومفردها (الدر) وبمسالك أنهارها مثل سيحان وجيحان وفويق والبرادان والارند وهذا الأخير سماه العرب العاصي لأنه يخرج من بلاد الإسلام ليدخل في أرض العدو وتتميز هذه التغور جناحان أحدهما من ناحية الشام عرف بـتغور الشام والأخر من ناحية الجزيرة عرف بـتغور الجزيرة.

وهي حصون عديدة في الجبال أو مسالح أي مواضع للمراقبة أو حتى مدن حصينة على ملتقى مثل انطاكية وطرطوس وبياس ومرعش.

ولما كانت منطقة التغور خالية من الناس إلا من الجراجمة النصارى لأن الروم نقلوا أهلها منذ فتح بلاد الشام حتى أنها سميت بالضواحي لقلة سكانها فإن المسلمين منذ عهد الخليفة عثمان (رض) عملوا على إزالة القبائل العربية بها. فأنزلت قيس وأسد من الحجاز في تغور الجزيرة بين مصر وربيعة ونقلت جماعات من أهل الجزيرة وحمص وبعلبك ومن الكوفة والبصرة إلى نواحي انطاكية التي اسكنها معاوية أيضاً عناصر هندية من السند تعرف (بالزط) كانت قد استقرت على الخليج العربي واعتقو الإسلام ولقد سمي المسلمين سكان التغور (بالمرابطة) لملازمتهم ثغر العدو للجهاد.

إن المسلمين وضعوا نظاماً لحرب التغور فكانت تخرج بانتظام حملات سنوية على بلاد الروم منذ سنة ٤٣هـ - ٦٦٣ م في الشتاء والصيف عرفت بالشواتي جمع شاتية أو مشتى. والصوائف جمع صائفة حيث أن حملات المشتى غالباً ما كانت تتكرر في السنة الواحدة فكانت هذه الحملات يقودها ولاة الشواتي والصوائف أمثال عبد الرحمن بن خالد ويبدو أن معظم الهجوم كان من ثغر الشام أما ثغر الجزيرة فمظهره الحراسة.

ومن ناحية أخرى كان للروم نظام للدفاع عن حدودهم خصوصاً وأن بلادهم منذ عهد جستنيان (٥٢٧-٥٦٥ م) كانت مقسمة إلى أقسام حربية تقابل المناطق الحربية في الشام، فبُثُّوا في هذه الأقسام وبخاصة المجاورة منها لأراضي المسلمين الجيوش العديدة التي تقدر بالآلاف وكانت تقيم عادة في حصون منيعة في الجبال أو على الساحل.

كانت القسطنطينية عاصمة الروم منيعة فهي تطل على بحر الخليج (مرمرة) وكانت تحيط بها من كل الجهات حتى من ناحية البحر عدة أسوار منيعة أقيمت عليها أبراج عديدة بناها الأباطرة منذ عهد قسطنطين الأكبر وكان من الممكن غلق الخليج، ومنع المراكب المعادية من دخوله إذا أقيمت السلسلة بين لسان الأرض المعروف بالقرن الذهبي وبين الساحل الآسيوي.

ولقد اغتنم المسلمون اضطراب شؤون الروم الداخلية للهجوم على القسطنطينية فقد قتل الإمبراطور قسطنطين الثاني في سنة ٤٨هـ / ٦٦٨ م وثار صابر أحد حكام المناطق المجاورة لأرمينية وأرسل رسولاً إلى معاوية بغية التعاون معه.

ومع أن صابر ما لبث أن توفي وأن ابن الإمبراطور المقتول قسطنطين الرابع (٦٨٨-٦٦٨ م) بعث مندوباً للصلح فإن معاوية صمم على مهاجمة

عاصمة الروم فسير جيشاً كبيراً معه بعض أبناء الصحابة منهم ابن العباس وابن الزبير والصحابي أبو أيوب الأنصاري وجعل قيادته إلى ابنه يزيد بن معاوية فتقىد هذا الجيش في آسيا الصغرى وخضعت له كل أهل البلاد سواء من سكان الجبال أو السهول، وبعد عدة معارك وصل إلى القسطنطينية وضرب حولها الحصار.

وقد زاد نشاط المسلمين في البحر زمن خلافة معاوية فقاموا بترتيب الروابط والحفظة على طول الساحل وإعداد المراكب العديدة التي كانت تبني من خشب غابات لبنان وإن خطوة فتح القسطنطينية كانت تقضي بتعاون الأسطول مع الجيش فقد أرسل معاوية ثلاثة مركب تقليلية عليها أسلحة الحصار من المنجنيقات تحمل الواحدة ألف رجل وخمسة مركب خفيف تحل الواحدة مائة، وقد أخضع هذا الأسطول في طريقه سكان السواحل ووصل إلى القسطنطينية واستمر محاصراً لها سبع سنوات.

كذلك فتح المسلمون الجزر التي كان يسيطر عليها الروم في البحر الأبيض مما هيأ لمراكمهم السيطرة على أجزاء كثيرة من سواحل آسيا الصغرى إلى القسطنطينية، وفتح القائد جنادة بن أبي أمية جزيرة رودس في سنة ٥٣ هـ / ٦٧٢ م التي تقع قرب ساحل آسيا الصغرى وكان الروم يغزون منها على مراكب المسلمين ويأخذونها وبها جمون سواحلهم كما حدث بنزولهم على البرلس بلدية قرب البحر في مصر في نفس هذه السنة وحينما فتحت رودس أنزل معاوية فيها عدداً من المسلمين وعين لهم العطاء وأصبحت قاعدة هامة لل المسلمين مثل قبرص بحيث أخافت العدو وفتح جنادة أيضاً جزيرتين آخريتين في سنة ٥٥ هـ / ٦٧٤ م إداهما أروداد قرب القسطنطينية التي أقام فيها حامية والأخرى أقريطش (كريت) وهي جزيرة كبيرة مقابلة للوبيبة.

لم تفلح جهود العرب المسلمين في فتح مدينة القسطنطينية بسبب قوة أسوار المدينة واستعمال الروم النار الإغريقية وهي عبارة عن مواد قابلة للاشتعال كان يرمي بها الروم على سفن المسلمين فتحرق تلك السفن وتعيق سير الهجوم بالإضافة إلى وجود أباطرة أقوىاء أمثال قسطنطين الرابع، كل ذلك أدى إلى فشل حصار المسلمين للقسطنطينية الأولى.

جبهة شمال أفريقيا:

في عهد معاوية توجه المسلمون مرة أخرى إلى فتح أفريقيا وكان يسكن هذه البلاد جيل من الناس عرف للMuslimين (بالبربر) وبهم سميت البلاد وكان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمسار الرومية ما لا يحد من قوة وعدد وملوك وأمراؤها لا يرافقون بذلك ولا ينالهم الروم في ضواحيهم تلك بسخطة الإساءة.

ويصفهم ابن خلدون بأنهم كانوا في دور البداوة عند الفتح العربي الإسلامي وكانوا لا تجمعهم أمة بل يعيشون في حياة قبلية، وكانت الوثنية ديانتهم كما كانوا يؤمنون بالسحر والكهانة وقد دخلت إليهم اليهودية والنصرانية مع الغزاة عن طريق مصر لكن هاتين الديانتين كانتا قليلتي الانتشار.

كان وقوع بلاد الغرب على ساحل البحر الأبيض جعلها مطمع الأمم المسيطرة فيه، فتوالى على احتلالها الفينيقيون ثم الرومان، وفي بداية القرن الخامس الميلادي جاءتها غزوات طارئة من عناصر الشمال المعروفة باللوندال الذين استولوا عليها من الرومان كذلك كان القوط ويسمىهم المسلمون بالفرنج وقد قبضوا على دولة الرومان في إيطاليا ونزلوا في إسبانيا واحتلوا بعض أجزاء من شمال أفريقيا وبخاصة سبتة ومرساها الحصين، ولما ورثت بيزنطة إمبراطورية الرومان في الشرق نجد أن إمبراطورها جستنيان (527-650م)

أرسل قائدة بلزاريوس في سنة ٥٣٣ م الذي استولى على الجزء الأكبر من بلاد البربر فامتدت سيطرة بيزنطة حتى برقة، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على منطقة سبته التي بقيت تبعث بطاعتها إلى القوط وراء البحر في إسبانيا.

وكان البيزنطيون يحكمون البربر عن طريق حاميات تعيش في مدن محصنة أو قصور على الساحل أهمها قرطاجنة المدينة القديمة الحصينة على ساحل البحر التي أصبحت مستقر سلطانهم ومقر الحاكم، واستقل بحكم المغرب (جرجير) الذي كان يعرف لل المسلمين بالملك الأكبر، فكان جرجير يحكم منطقة واسعة في بلاد المغرب امتدت من طرابلس إلى طنجه، وهي البلاد التي عرفت للعرب في العصر الأول باسم (أفريقيا) ولكن بسبب فتوح العرب المسلمين في بلاد البحر الأبيض في عهدي أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب يبدو أنه وجد اتفاق بينه وبين بيزنطة فكان يحمل بعض المال إليها.

أما بقية بلاد الشام فلم تخضع في أي وقت للبيزنطيين أو لنفوذهم مثل قبائل البربر الساكنة في الجبال بأقصى المغرب وفي الصحاري الواسعة وراء السواحل وفي بلاد السوس التي تجاور المحيط فكان البربر يتمتعون في هذه الأماكن بحرية لهم.

وبعد أن استولى معاوية على مصر كان ولاته يجددون الحملات على بلاد البربر ولم يكن هناك نظام للثغور كما في آسيا الصغرى وإنما كانت ترسل الحملات من الفسطاط فلا تثبت أن تعود إليها بعد انتهائها كذلك كان عقبة بن نافع يقيم بصفة دائمة في نواحي برقة في الشمال وزوبله في الجنوب منذ فتحها على يد عمرو وكان يعمل على أن يجذب البربر لدخول الإسلام.

وقد تولى القائد عقبة بن نافع قيادة جيش المسلمين بمهارة فائقة فأنزل بأعدائه خسائر فادحة فتحروا ناحية (طرابلس) فقاتلهم معاوية حتى هزمهم.

وفي سنة ٤٢هـ افتتح عقبة (غدامس) وفي سنة ٣٤٦هـ من كور السودان وافتتح (ودان) ثانية وهي من (برقة) وذلك سنة ٦٤٦هـ فقد خرج عقبة في هذه السنة حتى نزل (مغداش) من (سرت) وكانت (ودان) نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بسر بن أبي أرطاه سنة ٢٣٦هـ، فترك عقبة جيشه بـ(مغداش) في أرض سرت واستخلف عليهم عمرو بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي وسار إليها في أربعينية فارس فلما وصلها أبي أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً.

ولما استتب الأمر لعقبة في بلاد ودان، سأله أهلها: هل من ورائكم من أحد؟ فقيل له (جرمة) فسار إليها ثماني ليال من ودان فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا ومضى عقبة من فوره لإنجاز بلاد فزان حتى أتى على آخرها ونشر الإسلام في ربوعها وهذه أول مرة دخل فيها المسلمين بلاد فزان فاتحين.

وسأله أهل فزان هل من ورائكم أحد؟ فقالوا أهل خاور وهو قصير عظيم على رأس المغزة في وعورة على ظهر جبل.

وهو قصبة كاوار فسار إليه خمسة عشر ليلة فلما وصل إليه دعا أهلها إلى الإسلام فأبوا وطلب منهم الجزية فامتنع بعضهم فحاربهم وأقام على حصارهم شهراً دون جدوى وتقدم بجيشه جنوباً لفتح بقية بلاد كاوار ففتحها حتى أتى على آخرها.

ورجع عقبة إلى خاور من غير طريقة التي كان أقبل منها، فقد كانت عودة عقبة المفاجئة بجيشه إلى خاور في وقت لم يتوقعه أهلها وانصرف عقبة بعد فتح خاور حتى نزل بموضع زويله.

لقد أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة خفيفة لأن الحركة في الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة لقلة المياه فيها ولأنه قدر أنه لن يصادف في تغلغله قوات ضاربة كبيرة العدد، لأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتتوفر فيها المياه والقضايا الإدارية الأخرى فليس أمام عقبة غير قوات سكان الصحراء الأصليين وهؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة كما فعل عقبة ذلك ما حدا به على الإقدام لفتح تلك المناطق الصحراوية بقوات خفيفة منتخبة، وفعلاً أنجز واجبه وحقق هدفه في الفتح الصحراوي بسهولة ويسر.

وسار عقبة بجيشه إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض (هواره) فافتتح كل قصر بها ومضى إلى (صفر) فافتتح قلاعها وقصورها ثم بعث إلى (غدامس) فاستعاد فتحها ثانية، وتوجه إلى (فقصة) فافتتحها ثم افتتح (قسطلية) ثم انصرف إلى (القيروان) لقد ظهر عقبة بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين برقة والقيروان فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين حرية أن تكون قاعدة رصينة تتطلق منها القوات الإسلامية لفتح أفريقيا حتى المحيط الأطلسي.

وعقد عهد معاوية إلى عقبة بن نافع القيام بإنشاء مدينة القيروان كقاعدة متقدمة للمسلمين في أفريقيا وأنجز بناءها سنة ٥٥٥ هـ وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم فأصبحت المدينة عسكر للمسلمين وأهلهم، فانتشر الإسلام فيها وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام في المغرب، وأصبحت القاعدة الأمنية للمسلمين في شمال أفريقيا.

وفي سنة ٥٥٥ هـ استعمل معاوية مسلمة ابن مخد الأنصاري على مصر وأفريقية وعزل عقبة بن نافع عن أفريقيا فاستعمل مسلمة على أفريقيا، أبو

المهاجر دينار، وقد عقد مسلمة بن مخلد لأبي المهاجر على الجيش الذي خرج معه إلى أفريقية وبعد إنجاز أبي المهاجر تدابيره الإدارية وإعداد خطط الفتح سار بجيشه إلى قرطاجنة عاصمة الروم في شمال أفريقيا وأن الروم لا زالوا قوية في ساحل المغرب من (بنزرت) إلى (طنجة) وأن هذا الساحل الخصب هو مرتعهم ومواطنهن فلا بد من فتح تلك المناطق ليتخلص المسلمين منها من مستعمرى أفريقيا القدامى ولتحولوا بينهم وبين إشاعة التآمر والدس على الفتح الإسلامي.

سار أبو المهاجر إلى قرطاجنة فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية فشدد أبو المهاجر عليهم الحصار، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يحققوا هدفهم بفتح جزيرة شريك التي كان الروم يتذلونها دوماًقيادة لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين.

وذلك لكي يتخذها أبو المهاجر قاعدةً أمامية لجنوده يرتكز في عملياته العسكرية عليها وبهذا أثبت أبو المهاجر عملياً بأنه ينظر بعيداً من الناحية العسكرية، فيفضل الموضع الاستراتيجي الذي تفيده في الفتح على المال الذي كان بإمكانه أن يفرضه على أهل قرطاجنة مقابل إقراره الصلح بين الطرفين.

وكان هدف أبي المهاجر فتح جزيرة شريك أن يراقب الروم ويصددهم إذا هم بالمسير إلى المسلمين، لأن بإمكان قوة الروم المرابطة في تلك المنطقة أن تهدد بسهولة ويسير خطوط مواصلات أبي المهاجر في حالة تغفل قواته غرباً وجنوباً وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعرض طريقه أحد حتى وصل مليئاً في الجنوب الشرقي بججية ويبعد عنها بحوالي خمسين ميلاً فوجدها مستعدة للقتال وكان فيها طائفة من البربر والروم قد تحصنوا فيها فنازلها أبو المهاجر وفتحها واستقر فيها.

وكانت ميله تتوسط المغاربيين الأدنى والأوسط حتى أحسن مكان يرافق أبو المهاجر منه البربر والروم فجعل أبو المهاجر (ميله) مقره وأقام فيها سنتين وكان خلال هذه المدة يتصل بالبربر وينشر فيهم الدين ويريهم حقيقة المسلمين.

كانت الزعامة في المغاربيين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربه لكثرة عددها وغنائمها ومناعة مواقعها، وكان رئيسها كسيلة ابن لمزم وكان انببر يجلونه وكان نصراً متسماً بدينه، ورأى كسيلة أبو المهاجر في ميله، فعلم أنه لابد أن يسير لإقناع المغرب الأوسط والأقصى فذهب في المغاربيين الأوسط والأقصى يدعو البربر لمكافحة العرب والاستعداد لحربهم واستطاع كسيلة أن يجمع جيشاً من البربر والروم فمضى أبو المهاجر بجشه فسار إليه وكان كسيلة قد عسكر بـ(تلمسان) فقصده أبو المهاجر، وتقى الجيشان هناك فدارت معركة حامية بينهما، فانتصر المسلمون وأسر كسيله فحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه أبو المهاجر، وتمكن أبو المهاجر، وانتهى إلى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر، فهو أول قائد للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط فصالح أبو المهاجر ببربر أفريقيا وفيهم كسيلة، ثم رجع القIROوان وأقام بها.

الجبهة الشرقية :

أعاد معاوية تعين كثير بن شهاب عاملاً على الري، ثم أقر زياد كثيراً على الري فغزا الدليم، ولما كانت الري فتحت بمقاتلة الكوفة فقد أصبحت تابعة للكوفة إدارياً. واستعمل معاوية قيس بين الهيثم بن الصلت السلمي على خراسان، وكان سكان هرآه وبليخ وأذغيس بوشنج قد نكثوا العهد ولم يتمكن من السيطرة على المتمردين والناثقين ولم يتمكن من إعادة سيطرة الدولة على خراسان فعزله معاوية وجعل معاوية نفسه المشرف المباشر على خراسان ثم وجد من الضروري ربطها بالبصرة وجعل والي البصرة مسؤولاً عنها، وهكذا يكون عبد

الله عامر والي البصرة وفتح خراسان أول مرة هو المسؤول عن تعيين عمال خراسان.

ولما كانت خراسان فتحت بمقاتلة البصرة لذا فقد كانوا مسؤولين عن إدارتها منذ زمن الخليفة عثمان (رض) وتمكن ابن حازم من إخضاع هرآء ويوشنج وباذغيس وأولى زياد اهتماماً كبيراً بمنطقة خراسان فقرر إنشاء قواعد ثابتة تقيم فيها القوات العربية بصورة دائمة لتسطير على أقاليم الشرق وتدافع عن الحدود وذلك لبعد الشرق عن القواعد الإسلامية في الكوفة والبصرة وصعوبة إرسال الإمدادات سنوياً.

وقرر زياد إتباع سياسة إدارية جديدة في خراسان لضمان السيطرة عليها فهو لم يكتف بتعيين عامل عليها فقط بل كان يعين حاكماً على المقاطعات الصغيرة والكور.

وفي سنة ٤٧٦هـ/٦٧٦م فتح عامل خراسان الحكم بن عمرو جبال القور وقراوند عنوة ثم غزا جبل الأشل وقد لاقى العرب المسلمين صعوبة كبيرة في فتحها كادت تؤدي إلى هلاكهم وعهد الحكم بن عمرو إلى المهلب بن أبي صفرة مسؤولية الحرب واستطاع المهلب أن يقبض على أحد مشاهيرهم الذي دله على الطريق الذي استطاع العرب به أن يخرجوا من الوادي وبحلول الجبل ثم غنموا غنائم كثيرة وقام الربيع بن زياد عامل خراسان الجديد بإكمال فتح سجستان وكرمان.

وتمردت بخارى بمساعدة الترك ولكن العرب بقيادة عبيد الله بن زياد عامل خراسان هزموا بخارى فطلبت ملكتهم خاتون الصلح فصالحهم عبيد الله بن زياد ودخل المدينة ثم هاجم عبيد الله بيكند.

كان عبد الله بن سمرة قد شارك في فتح سجستان وفي عهد معاوية عين أميراً عليها ثم عزله زياد والي البصرة وولى الربيع بن زياد على سجستان وكان أول من فتحها في عهد عثمان، وفتح الربيع بست والرخج وسار حتى وصل بلاد الدوار وعين زياد عبيد الله بن بكرة على سجستان بعد أن عزل الربيع بن زياد ونجح عبيد الله بن بكرة في عقد معاهدة صلح مع رتبيل ملك الترك وفي سنة ٥٣ هـ/٦٧٢ م غزا عباد بن زياد عامل سجستان الجديد قندهار حتى وصلت بيت الذهب فجمعت له الهند قوة كبيرة لكنه هزمهم وبقي عباد عاماً على سجستان حتى مات معاوية ولما ولـي يزيد خلافة عزل عباد عن سجستان وعين محله مسلمة بن زياد.

وفي سنة ٥٤٤/٦٦٤ م أرسل معاوية المهلب بن أبي صفرة لفتح السند فسار إلى الأحواز وابنه وهما على سفح جبل كابل واصطدم بقوة تركية من بلاد الفيفان ورغم تغلبه عليها فإنه رجع ولم يحقق الهدف المرسوم فأرسل والي البصرة أحد قواده عبد الله بن سوار لغزو بلاد السند فغزا الفيفان وغنم كثيرة ثم رجع مع بقية جيشه إلى مكران ثم فتح العرب مكران وغزوا الفيقان مرة أخرى وتغلبوا على البد وفتحوا قندهار.

وقدم عباد بن زياد إلى ثغر الهند من سجستان ثم الهند ووصل إلى قندهار وفتحها وكانت البوقارن والفيفان قد فتحها سنان لكن أهلها نقضوا العهد فأخضعهم المنذر بن الجارود مرة أخرى.

ولاية العهد:

كانت ولاية العهد من الأمور التي أفرزت الكثير من المشاكل والصعوبات في التاريخ الأموي فعندما مات معاوية كانت مسألة من يخلفه منزرة بالمتاعب والصعوبات وقد حاول معاوية جاهداً أن يحل المسألة قبل موته وذلك

بأخذ البيعة لابنه يزيد من أشراف العرب وهو على قيد الحياة، وقد واجهت معاوية صعوبات في هذه المحاولة الرامية لحصر الخلافة في عائلته من هذه الصعوبات التقاليد الإسلامية التي تؤكد بأن الحكم لله يحمل أعباءه أفضل المسلمين وهو ليس ملكاً بشرياً يتوارثه الناس ولا تبيح التقاليد العربية انتقال الرئاسة من الأب إلى الابن رغم أنها تبيح ذلك داخل القبيلة أو العشيرة، يضاف إلى ذلك أن الغالبية العظمى من المتنبّين لم تكن تميل إلى يزيد لعدم توفر صفات الخلافة فيه ولذا فقد بذل معاوية جهوداً لأخذ البيعة من المتنبّين واستعمل القوة تارةً والمال والدهاء السياسي تارةً أخرى.

يذكر الطبرى أن المغيرة بن شعبة هو الذي أوجد فكرة أخذ البيعة ليزيد بولاية العهد إذ دخل على يزيد وقال له "ذهب الصحابة وكبار قريش ولم يبق إلا أبناء الصحابة وأنت أفضلاهم رأياً وأعلاهم كعباً وأكثرهم إطلاعاً على السياسة وتدير الأمور ولا أدرى ما يمنع الخليفة معاوية من أن يوليك العهد فأدخل الفكرة في نفس يزيد وعرض يزيد الرأى على أبيه فاستحسنها فأحضر معاوية المغيرة وسأله عما قال ليزيد.

ودار الحوار بين الاثنين تعهد فيه المغيرة لمعاوية أن يأخذ البيعة من أهل الكوفة فقبل معاوية الأمر وطلب من المغيرة العودة إلى الكوفة والتحدث في الأمر مع من يثق بهم.

رجع المغيرة إلى الكوفة وتكلم مع من يثق بهم ومع من يعرف أنه من أنصار الأمويين فأجابوه إلى البيعة، فأوفد قسماً منهم برئاسة ابنه موسى قدم الوفد إلى معاوية وحسن له البيعة ليزيد فطلب معاوية منهم التريث والتمسك بالرأي وتقوى عزم معاوية في البيعة لابنه والراجح أن فكرة البيعة ليزيد كانت قد ساورت معاوية قبل أن يعرفها المغيرة ولكن معاوية كان ينتظر الفرصة الملائمة

لإبرازها فانتهز معاوية مبادرة المغيرة التي عبرت عن رغبته ليتحسس صدى ذلك في نفوس الناس.

أرسل معاوية إلى زياد يستشيره في البيعة ليزيد، فكتب زياد إلى معاوية يشير عليه بالتوعد وأن لا يجعل فقبل منه ولما مات زياد عزم معاوية على أخذ البيعة لابنه يزيد فكتب معاوية إلى والي المدينة مروان بن الحكم مailyi: "كترت سني ودق عظمي وخشيتك الاختلاف على الأمة بعدي، ولقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي وكرهت أن أقطع دون مشورة من عندك فأعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك" وأخبرهم فقال الناس أصاب ووفق وقد أحببنا أن يختار لنا فلا يألو وكتب مروان بذلك إلى معاوية.

أعاد معاوية الجواب على مروان بذكر يزيد فقام مروان فيهم وقال أن أمير المؤمنين قد اختار فيكم فلم يألف وقد استخلف ابنه يزيد فبائع الناس ليزيد بن معاوية غير الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بن عباس وقد أعلن هؤلاء رفضهم لتعيين يزيد وهاجموا هذه الفكرة.

ينظر الطبرى بأن يزيد كتب بعد توليه الخلافة سنة ٦٧٩هـ إلى الوليد بن عقبة والي المدينة " أما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن الزبير بالبيعة أخذًا شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام".

وعندما استلم الوليد الخطاب استشار مروان بن الحكم فأشار مروان بالمبادرة إلى دعوة الممتنعين خصوصاً الحسين بن علي وعبد الله بين الزبير إلى البيعة ليزيد، فإن بايعوا قبل ذلك منهم وإن أبوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بممات معاوية، ولما كان الوليد يحب العافية فقد أرسل إلى الحسين بن علي وابن الزبير وتكلم معهم فاستنجدوا أن معاوية قد مات، وتمكنوا من مغادرة المدينة والذهاب إلى مكة في أواخر رجب ٦٨٠هـ أما ابن عمر فلم يكن في

المدينة ساعة ورود نعي معاوية ولما عاد إليها بايع بعد أن جاءت البيعة من البلدان وفعل مثله ابن عباس. وكان الرأي أن تجتمع كلمة الأمة اجتماعاً حقيقياً.

ذهب الحسين بن علي إلى الكوفة حيث قاد ثورة ضد يزيد، وظل عبد الله ابن الزبير في مكة ثم استغل مقتل الحسين للتشنیع على أهل الكوفة وعلى حكمبني أمية للتعریض ببیزید.

ويرى شلبي أن تعین معاوية خلفاً له عمل حکیم وأن کون الخليفة الجديد من بنی أمیه أمر مسلم به، لأن ولاة الإقليم كانوا من بنی أمیة أو من أتباعهم وانتقال الحكم إلى الحسين مثلاً سيكون معناه عزل هؤلاء الولاة ثم رفضهم العزل أو رفض بعضهم، ثم تكرار معارك الجمل وصفين على نحو واسع.

ولم يكن إلا تحديد الأموي الذي يتولى الخلافة بعد معاوية وكان في بنی أمیة من يفضل بیزید كعبد الملك بن مروان مثلاً.

ورغم المشاكل الداخلية في عهد بیزید فقد استأنف العرب حركة التحریر والفتح ففي سنة ٦٨٠هـ/١٤٣٦ م غزا سلم بن زياد والي خرسان وسجستان فشتاتقع في بلاد ما وراء النهر - وحاصر المدينة وطلب أهل المدينة الصلح على أن يغدوا أنفسهم فأجابهم إلى ذلك ثم غزا سلم سمرقند وخوارزم.

وفي شمال أفريقيا أعاد بیزید القيادة لعقبة بن نافع وظل أبو المهاجر تابعاً له وقد استطاع القائدان العظيمان أن يسيراً في فتوحاتهما حتى وصلا إلى المحيط الأطلسي ويروى أن عقبة صعد إلى هناك وهتف: يا رب لو لا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك، ولو كنت أعلم بعده أرضاً وناساً لخضته إليهم.

على أن هذه الفتوح لم تكن نهاية المطاف، فقد كره البربر عودة عقبة للقيادة، وكان كسيله يضعن على عقبة، وحدث أن عاد عقبة من إحدى غزواته إلى بلدة طنجة فصرف معظم جنده وأرسلهم إلى القิروان وسار مع ثلاثة

من رفاقه إلى بلدة تهوده، وعرف الفرنجة بذلك فراسلوا كسيلة به، وأمدوا البربر بالسلاح والأموال ففاجأ هؤلاء عقبة وأصحابه، ودارت معركة غير متكافئة من ناحية العدد والاستعداد.

وقد استشهد فيها عقبة بن نافع وأبو المهاجر وأكثر أصحابهم وأسر من بقي وارتد كسيلة عن الإسلام وتبعه أغلب البربر.

وكان في القيروان زهير بن قيس البلوي خليفة عليها فأراد القتال لكن ظروفه العسكرية كانت صعبة إذ لم يكن بمقدور العرب المسلمين وهم قليلون مقاومة كسيلة بعد أن اجتمع عليه الروم والبربر لذلك انسحب زهير من القيروان إلى برقة وكان قراره هذا صحيحاً من الناحية العسكرية لأن اشتباكه مع العدو وهو لا يملك القوة الكافية لإحراز النصر يؤدي إلى كارثة عسكرية وجاء كسيلة إلى القيروان وامتلكها وأمن من فيها ثم استولى على أفريقيا.

الفصل الثاني

الأوضاع السياسية للدولة
الأموية بعد وفاة معاوية بن
أبي سفيان

شهدت الدولة الأموية بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان مجموعة من الحركات الفكرية والثورية. وكانت الفترة التي أعقبت وفاة معاوية من أخصب الفترات في ثوراتها الفكرية والعسكرية.

ثورة الحسين بن علي (رض):

كانت وفاة معاوية بن أبي سفيان في الرابع عشر من شهر رجب سنة ٤٥هـ، وجاء ابنه يزيد من بعده ليتولى الخلافة بموجب المبدأ الوراثي، فكانت أول ممارسة ليزيد في الحكم أنه أرسل رسالة قصيرة ومستعجلة إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان يحثه فيها علىأخذ البيعة له من الحسين بن علي (رضي الله عنهم) وعبد الله بن الزبير اللذان كانا على رأس المعارضين للبيعة له أيام والده عندما كان يسعى في تعيينه ولیاً للعهد، فاستدعاى الوليد الحسين بن علي وطلب إليه مبايعة يزيد، فأجابه الحسين بأنه مثله لا يعطي بيعته سراً فإذا ما دعى الناس للبيعة ودعى معهم كان الأمر واحداً ثم انصرف إلى داره وغادر المدينة إلى مكة، وكان عبد الله بن الزبير قد توجه هو الآخر إلى مكة وتحصن في البيت الحرام واستجار به.

وبعد وصول الحسين بن علي مكة بدأت الوفود والكتب تتواصل إليه من أهل الكوفة يعربون فيها عن مبايعتهم له ويدعونه للقدوم عليهم، فاستجاب الحسين لنداءاتهم المتكررة التي تؤكد سخط أهل الكوفة على يزيد وكرههم للأمويين. ورأى أن يوافد ابن عمّه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة ليقف على حقيقة موقف أهلها وصدق إخلاصهم للحسين، فوصل مسلم الكوفة في الخامس من شوال سنة ٤٦هـ ونزل مسلم في دار المختار بن أبي مسعود الثقفي الذي أصبح مركزاً لنشاط مسلم في الكوفة حتى قدوم عبيد الله بن زياد والياً عليها.

ويرى بعض الباحثين أن اختيار مسلم بن عقيل لبيت المختار يعكس اطمئنانه إليه وتأكده من عدائه للأمويين وكان المختار متزوجاً من أخت النعمان بن بشير والي الكوفة، مما أتاح لمسلم وأنصاره العمل بحرية الأمر الذي أغضب أنصاربني أمية الذين اتهموا النعمان بالتواطؤ والتواهيل مع أداء يزيد، ودعوه إلى قتالهم، فأجابهم بقوله: "لا أقاتل إلا من قاتلني، ولا أثبت إلا من وثب علي، ولا أخذ بالقرفة، والظنة، فمن أبدى صفحته ونكت بيته ضربته بسيفي ما ثبت قائمة بيدي، ولو لم أكن إلا وحدي".

وقد كتب أنصاربني أمية إلى يزيد يخبرونه بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقولون له ان كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك فإن النعمان رجل ضعيف أو يتضعف، فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد الله بن زياد أمير البصرة فجعله والي المصريين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله.

وتنكر الروايات التاريخية أن ما يزيد على ثمانية عشر ألفاً من أهل الكوفة بايعوا الحسين وقد كتب مسلم بذلك إلى ابن عمه في مكة ودعاه إلى القدوم إلى الكوفة.

إلا أن وصول عبيد الله بن زياد غير الموقف تماماً، نظراً لما عرف عن الأخير من شدة البأس والبطش، فتفرق اتباع مسلم عنه وتخلوا عن نصرته فظفر به عبيد الله وأمر بقتله وإلقاء جثته من قصر الإمارة.

أما الحسين فإنه أعد العدة للمسير إلى الكوفة، فجاءه عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني أنك تريد العراق وإنني مشقق عليك أن تأتي بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه من

يقاتلك معه فجزاه الحسين خيراً، وجاءه ابن عباس فقال له لقد أرجف الناس أنك ترید العراق فخبرني ما أنت صانع؟ قال: قد أجمعـت المسير في أحد يومـي هـذين فـقال له ابن عباس: أعيـذك بالله من ذلك خـبرـني رـحـمـك الله أـتـيـسـرـ إلى قـوـمـ قـتـلـواـ أمـيـرـهـمـ وـضـبـطـواـ بـلـادـهـ وـنـفـواـ عـدـوـهـ فـإـنـ كـانـواـ فـعـلـواـ ذـلـكـ فـسـرـ إـلـيـهـمـ وـإـنـ كـانـواـ فـمـاـ دـعـوكـ إـلـيـهـمـ وـأـمـيـرـهـمـ عـلـيـهـمـ قـاـهـرـ لـهـمـ وـعـمـالـهـ تـحـيـيـ بـلـادـهـ فـإـنـماـ دـعـوكـ إـلـىـ الـحـرـبـ وـالـأـمـنـ عـلـيـكـ أـنـ يـغـرـوـكـ وـيـكـذـبـوـكـ وـيـخـالـفـوكـ وـيـخـذـلـوكـ وـيـسـتـفـرـوـاـ إـلـيـكـ فـيـكـونـواـ أـشـدـ النـاسـ عـلـيـكـ، فـقـالـ الحـسـيـنـ فـإـنـيـ أـسـتـخـيرـ اللهـ وـأـنـظـرـ ماـ يـكـونـ.

ثم جاءه ابن عباس ثانـي يومـ فـقـالـ ياـ اـبـنـ عـمـ أـتـصـبـرـ وـلـاـ أـصـبـرـ أـنـيـ أـتـخـوـفـ عـلـيـكـ فـيـ هـذـاـ الـوـجـهـ الـهـلاـكـ وـالـاستـصـالـ إـنـ أـهـلـ الـعـراـقـ قـوـمـ غـدـرـ فـلـاـ تـقـرـبـهـمـ أـقـمـ بـهـذـاـ الـبـلـدـ فـإـنـكـ سـيـدـ أـهـلـ الـحـجـازـ فـإـنـ كـانـ أـهـلـ الـعـراـقـ يـرـيـدـوكـ كـمـاـ زـعـمـواـ فـاـكـتـبـ إـلـيـهـمـ فـلـيـنـفـوـاـ عـاـمـلـهـمـ وـعـدـوـهـمـ، ثـمـ اـقـدـمـ عـلـيـهـمـ فـإـنـ أـبـيـتـ إـلـاـ أـنـ تـخـرـجـ فـسـرـ إـلـىـ الـيـمـنـ فـإـنـ بـهـاـ حـصـونـاـ وـشـعـابـاـ وـهـيـ أـرـضـ عـرـيـضـةـ طـوـلـةـ وـلـأـبـيـكـ بـهـاـ شـيـعـةـ وـأـنـتـ عـنـ النـاسـ فـيـ عـزـلـةـ فـتـكـتـبـ إـلـىـ النـاسـ وـتـرـسـلـ وـتـبـثـ دـعـاتـكـ فـإـنـيـ أـرـجـوـ أـنـ يـأـتـيـكـ عـنـدـ ذـلـكـ الـذـيـ تـحـبـ فـيـهـ عـافـيـةـ إـلـاـ أـنـ الـحـسـيـنـ أـصـرـ عـلـىـ الرـحـيلـ وـقـالـ: ياـ اـبـنـ عـمـ، وـالـهـ أـعـلـمـ أـنـكـ نـاصـحـ مـشـفـقـ وـلـكـنـيـ قـدـ أـزـمـعـتـ وـأـجـمـعـتـ عـلـىـ الـمـسـيرـ فـمـاـ يـئـسـ عـبـدـ اللهـ بنـ عـبـاسـ مـنـ إـقـنـاعـ الـحـسـيـنـ بـالـعـزـولـ عـنـ رـأـيـهـ، طـلـبـ إـلـيـهـ أـنـ يـبـقـيـ أـوـلـادـهـ وـنـسـاءـهـ فـيـ مـكـةـ وـقـالـ: فـلـاـ تـسـرـ بـنـسـائـكـ وـصـبـيـتـكـ فـوـالـهـ إـنـيـ أـخـافـ أـنـ تـقـتـلـ كـمـاـ قـتـلـ عـثـمـانـ وـنـسـاءـهـ وـوـلـدـهـ يـنـظـرـونـ.

وـقـبـلـ أـنـ يـشقـ الـحـسـيـنـ طـرـيقـهـ نـحـوـ الـعـراـقـ التـقـىـ بـالـفـرـزـدقـ الـذـيـ قـدـمـ لـلـحـجـ إـلـىـ مـكـةـ فـسـأـلـهـ عـنـ مـشـاعـرـ أـهـلـ الـعـراـقـ فـقـالـ لـهـ: الـقـلـوبـ مـعـكـ وـالـسـيـوـفـ مـعـ بـنـيـ أـمـيـةـ وـالـقـضـاءـ بـيـدـ اللهـ إـلـاـ أـنـ ذـلـكـ لـمـ يـؤـثـرـ عـلـىـ عـزـيـمـةـ الـحـسـيـنـ وـتـمـسـكـهـ بـالـمـبـادـيـ وـالـقـيـمـ الـتـيـ آـمـنـ بـهـاـ، فـخـرـجـ بـصـحـبـةـ عـدـدـ لـاـ يـتـجـاـزـ الثـمـانـيـنـ مـنـ أـهـلـ بـيـتـهـ وـبـعـضـ الـمـخـلـصـيـنـ مـنـ أـتـيـاعـهـ.

وعلم الحسين وهو في طريقه إلى العراق، بمقتل مسلم بن عقيل وما كان من غدر أهل الكوفة وخذلانهم له، وكان كلما تقدم أقبل عليه من ينصحه بالعودة ويبدو أن الحسين رغب في العودة إلى الحجاز إلا أن أخوة مسلم رفضوا ذلك وأصرروا على الأخذ بثأر أخيهم فقرر المضي إلى الكوفة، فتصدت له طليعة جيش عبيد الله بن زياد بقيادة الحر بن يزيد التميمي ومنعه من المسير إلى الكوفة كما قطعت عليه طريق العودة إلى الحجاز فعدل إلى كربلاء بالقرب من الشاطئ الغربي للفرات وعسكر هناك في غرة المحرم من سنة ٦١ هـ حيث باعاته عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف من أهل الكوفة فحالوا بينه وبين الماء.

وقد حاول الحسين تجنب القتال وإراقة دماء المسلمين وطلب إلى عمر ابن سعد أن يدعوه يختار واحدة من ثلاثة إما تدعوني أنصرف من حيث أتيت، وإما أن تدعوني فأذهب إلى يزيد وإما أن تدعوني فالحق بشعور. فكتب ابن سعد إلى عبيد الله بذلك فأصر الأخير أن يعلن الحسين مبايعته ليزيد ويسلم نفسه وأرسل إلى عمر بن سعد بأن يستعمل القوة إذا رفض الحسين ذلك وإنما فليسلم القيادة إلى شمر بن ذي الجوشن القيسي الذي حمل هذه الرسالة. وفي العاشر من محرم بدأ القتال وكان الحر بن يزيد قد انضم إلى جانب الحسين وقاتل معه وأخذ أصحاب الحسين يتسلطون الواحد على الآخر ثم جاء دور الحسين نفسه فقاتل قتال الأبطال حتى أختنه الجراح وسقط على الأرض فتكاثر عليه أعداؤه وقتلوه ثم أخذوا رأسه ورؤوس أصحابه وحملها شمر بن ذي الجوشن إلى عبيد الله بن زياد الذي بعث بها إلى يزيد في دمشق وأمر الأخير بتسليم رأس الحسين إلى أخيه زينب فدفن مع الجسد في كربلاء كما أمر بإعادة النساء ومعهن علي بن الحسين وكان فتى صغيراً إلى المدينة.

ويختلف المؤرخون في تعليقاتهم على ثورة الحسين بن علي فمعظم الرواد الأوائل من كتبوا التاريخ الإسلامي باستثناء ابن طباطبا والسيوطى اللذين انتقدا بنى أمية اكتفوا بسرد الروايات التاريخية المتعلقة بثورة الحسين، أما المؤرخون المحدثون فقد أعطوا أراء متضاربة عن الثورة ونتائجها، فسيد أمير علي يعلق على الثورة بقوله: "لقد روعت مذبحة كربلاء العالم الإسلامي بأسره". ويقول الخضرى: " بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التي أثارها عدم الأناة والتبصر في العواقب فإن الحسين بن علي رمى بقول مشيريه جمياً عرض الحائط". أما حسن إبراهيم حسن فيقول: "إن التاريخ يحكم بإدانة الأمويين".

حركة عبد الله بن الزبير:

طلب يزيد من والي المدينة، الوليد بن عتبة أن يأخذ له البيعة من عبد الله ابن الزبير، وعندما طلب الوليد من عبد الله بن الزبير ذلك تماطل عبد الله وخرج ليلاً من المدينة وكان عليها عمرو بن سعيد بن العاص، وفي مكة سمي عبد الله ابن الزبير نفسه بـ(العائد) ولما كان يزيد يريد حل القضية حلاً سلمياً فإنه تبادل الرسائل مع عبد الله بن الزبير ولم يتوصلا إلى حل وقد قررت عين ابن الزبير بخروج الحسين بن علي إلى العراق ومقتله هناك إذ تخلص من أكبر منافس له، واستغل ابن الزبير مقتل الحسين للتشريع ببني أمية وللتعریض بيزيد وذم أهل الكوفة.

وأزداد أنصار ابن الزبير، واتهم الأمويين عمرو بن سعيد بن العاص بالتساهل مع ابن الزبير وحرضوا يزيد ضد عمرو بن سعيد فعزله عن ولاية الحجاز (مكة والمدينة) وعين يزيد الوليد بن عقبة على مكة وظل عليها أثناء الشطر الأكبر من سنة ٦٢ هـ ولم يجد الوليد بن الزبير إلا متحذراً ممتنعاً وعمل ابن الزبير بالمكر والخدعة مع الوليد بن عقبة.

فعزل يزيد الوليد وعين عثمان بن محمد بن أبي سفيان والياً على الحجاز وهو فتى لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن ولم تضربه التجارب وقرر يزيد القضاء على ثورة ابن الزبير فأرسل مسلم بن عقبة إلى مكة حيث عبد الله بن الزبير لكنه مات في الطريق وتولى القيادة الحسين بن النمير السكوني حسب أوامر يزيد، وكان أهل المدينة قد قدموا على عبد الله بن الزبير وقدم إليه نجدة ابن عامر الحنفي، أحد زعماء الخوارج في أناس من الخوارج يمنعون البيت.

وفي سنة ٦٤هـ/٦٨٣م بدأ حصار الحسين لمكة، ولم يوفق المكيون في أول اشتباك وقع بينهم وبين أهل الشام، وفي الثالث من ربيع الأول قذف الشاميون البيت بالمنجنيق وفي الليل أخذ أحد أنصار ابن الزبير قبساً في رأس رمح ليرى الجيش الشامي المحاصر، فلاحت نار القبس أستار الكعبة فحرقت الكعبة.

وبعد موت يزيد سنة ٦٤هـ/٦٨٣م كانت هناك بيعتان الأولى بالشام لمعاوية بن يزيد والثانية بالحجاز لعبد الله بن الزبير، وبعد مدة قليلة وجد معاوية ابن يزيد نفسه أنه غير قادر على تدبير الأمور فتحى عن الخلافة بعد حكم دام ثلاثة أشهر وطلب من المسلمين أن يختاروا من أحبوا وبوفاة معاوية بن يزيد حكم فرع أبي سفيان.

وعندما وصلت أخبار موت يزيد إلى الحسين بن نمير خطيب الحسين عبد الله بن الزبير قائلاً: "إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك أخرج معى إلى الشام فإن هذا الجندي الذين معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان وتومن الناس" ولكن عبد الله بن الزبير رفض ذلك واقتصر ابن الزبير باستيلائه على جزيرة العرب ومصر لكنه أحجم

عن الزحف إلى الشام وبينما كان ابن الزبير عائدًا بمكة فاك الحصين حصاره عنها ورجع إلى الشام.

وفي البصرة نجح عبيد الله بن زياد فيأخذ البيعة لنفسه من أهل البصرة حتى يصطلح الناس على إمام يرتضونه لأنفسهم ثم أرسل رسول رسولًا لأهل الكوفة يدعوهم إلى مثل الذي فعل من ذلك أهل البصرة، فرفضوا وحسبوا واليهم ثم خالفة أهل البصرة أيضًا فهاجت فتنة بالبصرة فهرب عبيد الله بن زياد إلى الشام.

انقال الخلافة إلى البيت المرواني:

وصل الحصين إلى دمشق وكان عليها الضحاك بن قيس الفهري وهو يضمّر الحياد في الصراع، وأخبر مروان بن الحكم بما خلف عليه ابن الزبير وأنه دعاه إلى البيعة فأبلى وكان من رأي مروان وهو كبير أسرة الأمويين أن يرحل وينطلق إلى ابن الزبير فيباعيه، ثم قدم إليه عبيد الله بن زياد وكان قد بلغه ما يريد مروان فقال عبد الله لمروان: "استحييت لك مما نريد أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنع!" فقال: ما فات من شيء بعد فقدم دمشق وممن معه وبذا يكون عبيد الله بن زياد قد حرض مروان على الدعوة لنفسه بالخلافة ويسضيف الطبرى": وكان مروان بالشام لا يحدث نفسه بهذا الأمر _الخلافة_ حتى أطمعه فيه عبيد الله بن زياد حين قدم عليه من العراق فقال له: أنت كبير قريش ورئيسها يلي عليك الضحاك بن قيس!.

وكان أمير حمص النعمان بن بشير، وأمير قنسرين، زفر بن الحارث الكلبي هواهم في ابن الزبير وكان أمير فلسطين حسان بن مالك بن مجلد الكلبي هواه في بنى أمية كتب حسان بن مالك بن مجلد الكلبي إلى الضحاك بن قيس كتاباً يثنى فيه على بنى أمية وبين فيه حقهم في تولي أمور المسلمين ويذم عبد الله بن الزبير وأمر أن يقرأه على الناس ثم كتب نسخة ثانية من نفس

الكتاب، وسلمه إلى رجل من كلب (ناغضة) وقال له: إن قرأ الضحاك كتابي على الناس وإلا فقم فاقرأ هذا الكتاب على الناس" فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام ناغضة وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل ما قاله فأمر بهم حسان فحبسو ثم أخرجتهم عشائرهم بالقوة وكان أهل دمشق فريقين، قيس تدعوا إلى ابن الزبير وكلب تدعوا إلىبني أمية.

توجه الضحاك بأنصاره، إضافة إلى إمدادات أهل حمص وقنسرين وفلسطين نحو مرج راهط بدمشق واجتمع نبو أمية تحت قيادة حسان بن مالك بن بحدل بالجبلية وبأيعوا مروان بن حكم خليفة المسلمين وكذلك في ثلاثة من ذي القعدة سنة ٦٤هـ/٦٨٣م على أن تكون الخلافة من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بن الأشقر ثم سار مروان مع اتباعه كلب، غسان، السكاك، السكون، إلى مرج راهط وكانت بينهما وبين أنصار ابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس حرب عنيفة قتل فيها الضحاك بن قيس وذلك في المحرم سنة ٦٥هـ/٦٨٤م ولما وصل خبر هزيمة أنصار ابن الزبير إلى النعمان بن بشير هرب من حمص فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه وكذلك هرب زفر بن الحارث من قنسرين إلى قرقيسيا وتحصن بها، واجتمعت إليه قيس فراؤوه عليهم.

ولما تم الأمر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتتحها وحصل على مبايعة أهلها ثم مات مروان في رمضان سنة ٦٥هـ/٦٨٤م وكان قد عهد بالخلافة من بعده لابنه عبد الملك ثم عبد العزيز.

لقد أهاجت معركة مرج راهط الأحقاد التي كانت كامنة في صدور القيسين واليمانيين لسنين طويلة وشرع اليمانيون بعد رجحان كفتهم يعاملون

منافيهم القيسيين معاملة سيئة واستمر الحال على هذا المنوال طيلة عصر عبد الملك بن مروان.

ويبدو أن الصحاح بن قيس أراد أن يصل هو إلى الخلافة فقط ذكر الطبرى أن الصحاح بن قيس كان قد دعا قيساً وغيره إلى البيعة لنفسه فبایعوه يومئذ على الخلافة ولكنه لم يستطع أن يحافظ بمركزه فوق الأحزاب وبعد تردد طويل انضم أخيراً إلى جانب قيس وابن الزبير.

وبعد معركة مرج راهط خضعت حمص وفلسطين لمروان بن الحكم وكذلك قنسرين، وتکتلت قيس على ضفاف الفرات تحت قيادة زفر بن الحارث في قرقيسيا وظلت مكة والمدينة والجزيرة العربية والكوفة والبصرة ومن بالقبلة من العرب تحت حكم عبد الله بن الزبير واستمر ابن الزبير رافعاً راية الثورة ضد الخلافة الأموية إلى أن تمكنت هذه الخلافة من إخماد ثورته في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وسبحت ذلك بالتفصيل لاحقاً.

حركة سليمان بن صرد الخزاعي :

شعر الكوفيون بتأنيب الضمير لخذلانهم الحسين بن علي وتركهم إيهامه في معركة كربلاء فقد أمنوا بضرورة التكفير بما اقترفوه بحق الحسين لإرضاء الله وإراحة ضمائرهم فقرروا التضحية بأنفسهم، فسموا أنفسهم (التابعين) وبدأوا ينظمون أنفسهم وكان أولى تجمعاتهم تتكون من مائة رجل لم يكن فيهم من هو دون السنتين من عمره، وولوا أمرهم لسليمان بن صرد الخزاعي الذي كانت له صحبة مع رسول وهو من بين الذين كتبوا للحسين داعين إيهام بالقدوم إلى الكوفة وكان معه أربعة آخرون من رؤساء فزاره والأزد وبكر وبجيلاه وكان أعضاء الحركة يجتمعون كل جمعة في بيت سليمان.

طلت هذه الحركة سرية إلى أن توفي يزيد بن معاوية فانطلقت ثورتهم على عبيد الله بن زياد الذي كان يقيم بالبصرة فطردوا نائبه عمرو بن حريث المخزومي وكان زعماء هذه الانتفاضة من الأشراف ولم يكونوا من فئة إسلامية واحدة وكان على رأسهم يزيد بن رديم الشيباني الذي اكتسب بذلك مركزاً مرموقاً وفي خلال هذه الفترة الخالية من الحكم الرسمي ولـي عمر بن سعد أميراً على الكوفة ثم خلفه آخر.

واستغل ابن الزبير ذلك فوطد مركزه في العراق وبابعه أشراف الكوفة ولم يكونوا معه بقلوبهم. وفي سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م عين عبد الله بن الزبير عبد الله ابن يزيد الأنباري ثم الخطمي أميراً على الكوفة على حربها وثارها وإبراهيم ابن محمد بن طلحة بن عبد الله الأعرج أميراً على خراج الكوفة.

وقد ساعدت سيطرة ابن الزبير على الكوفة التوابين فقد صاروا أكثر جراءه وأوسع انتشاراً وكانت عواطف عامة الناس معهم وبرز في مقدمة دعاء التوابين عبد الله بن عبد الله المري وكان يليغاً في المنطق وبالعظة وذا أسلوب قوي ومؤثر على سامعيه فزاد أنصار التوابين عدداً حتى بلغوا (١٦٠٠) رجل أقسموا على الولاء وإن لم يكونوا أعضاء في هذه الحركة. وقد أجرى سليمان بن صرد اتصالات مع أنصار التوابين في المدائن والبصرة لجمع المال والسلاح.

رفع التوابون شعار: الثأر للحسين ولم يكن لهم هدف ثابت معين ولم يتقووا على الوسيلة المناسبة للتضحية بحياتهم وكان الهدف الذي راودهم هو الاستيلاء على الكوفة وطرد الأشراف لأنهم المسؤولون عن قتل الحسين لتواطئهم مع الخلافة الأموية غير أن سليمان بن صرد كان على غير هذا الرأي إذ خاطبهم قائلاً: "رويداً لا تعجلوا إني نظرت فيما تذكرون فرأيت أن

قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة؟ وفرسان العرب هم المطالبون بدمه ومتى علموا ما تريدون وعلموا أنهم المطالبون كانوا أشد عليكم".

دعا سليمان بن صرد التوابين للثورة ضد الخلافة الأموية وعاملها في العراق عبيد الله بن زياد الذي هرب إلى الشام سنة ٦٨٤هـ / ٦٨٤ م وكان جيشاً كبيراً من أهل الشام ليخضع العراق لخلافةبني أمية وقد عبر والي الكوفة عبيد الله بن يزيد من قبل عبد الله بن الزبير عن هذا الرأي أيضاً إذ كان أشراف الكوفة قد ألحوا عليه بمحاجمة التوابين لأنهم ينون الخروج على سلطته لينتقموا من أشراف الكوفة، عندما قال لهم : إن قاتلوني قاتلتهم وإن تركوني لم أطلبهم؟ وعلام ما يقاتلوني أفو الله ما أنا قتلت حسيناً" فإن هؤلاء القوم آمنون فليخرجوا ولينشرروا ظاهرين ليسروا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم وأنا لهم على قاتله ظهير؟ هذا ابن زياد قاتل الحسين؟ وقاتل خياركم وأمثالكم قد توجه إليكم؟ عهد العاحد به على مسيرة ليلة من جسر منبع قطعاً له والاستعداد له أولى وأرشد من أن يجعلوا بأسمكم بينكم فيقتل بعضكم بعضاً ويسفك بعضكم دماء بعض فيلقاكم ذلك العدو غداً وقد وقعت وتلك والله أمنية عدوكم" وبذا فقد أصبح بوسع التوابين أن يعلموا ثورتهم على ابن زياد، فأعلنوا ذلك بأول ربيع ٦٨٥هـ / ٦٨٤ م في معسكر النخيلة، قرب الكوفة، ودعوا أنصارهم في البصرة والمداش إلى مشاركتهم ولكنهم لم يتقدوا مع رؤساء قبائل الكوفة ولا مع والي ابن الزبير في الكوفة على أن يكونوا جبهة واحدة ضد أهل الشام.

ولم يحضر في معسكر النخيلة من أنصار التوابين البالغ عددهم ١٦٠٠ نصير إلا ٤٠٠ نصير وكانوا كلهم عرباً من مختلف القبائل ومن القراء ولم يكن بينهم أحد من الموالي، وهم مسلحون تسليحاً جيداً ويمتنعون جياداً كريمة مضوا إلى كربلاء وبقوا على قبر الحسين يوماً وليلة يقطعون العهود والمواثيق على أنفسهم وهم يبيرون ثم ساروا عبر الفرات ثم الأثبار ثم ضدوادة ثم القياره وهيت

حتى وصلوا قرقيسيا التي اعتصم فيها زفر بن الحارت الكلابي متزعمًا القبائل القيسية ضد الخلافة الأموية.

قدم زفر بن الحارت خدمات كثيرة للتوابين، فقد وضع لهم سوقاً فتسوقوا وزودهم بعلف كثير وطعام وأخرج للعسكر عيراً عظيمة وشعيراً كثيراً واحبرهم بتحركات عبيد الله بن زياد الذي كان نازلاً بالرقة إذ قال لهم: "فأنا ل القوم عدو، وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة وأنا لكم فرد أحب أن يحوطكم الله بالعافية، إن القوم قد فصلوا من الرقة دورهم إلى عين الوردة فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء في أيديكم وما بين مدینتنا ومدینتكم فأنت لهم آمنون.. أطواو المنازل الساعية إلى عين الوردة فإن القوم يسرون سير العسكري وانتم على خيول.

تأهبو لها من يومكم هذا فإني أرجو أن تسبوهم إليها، وأن بدرتموهم إلى عين الوردة لا تقاتلوهم في فضاء تراثونهم وتطاونونهم، فإنهم أكثر منكم فلا آمن أن يحيطوا بكم".

جذ التوابون في السير حتى انتهوا إلى عين الوردة فعسكروا غربيها واستراحوا واطمأنوا وأراحوا خيلهم لمدة خمسة أيام تحمي ظهورهم المدينة قبل أن تهاجمهم فرقتان من فرق الشام، بدأت المعركة يوم الأربعاء في الثاني والعشرين من جمادى الأول سنة ٦٨٥هـ واستمرت حتى يوم الجمعة وقد قاتل التوابون قتال الأسود ولكن قلة عددهم وشدة تأثير رمي النبال الشامية أدى إلى هروب البعض منهم فخسروا المعركة وقتل سليمان بن صرد، ولم يطاردهم أحد في انسابهم وفي الطريق التقوا بأنصارهم القادمين من البصرة والمدائن الذين لم يصلوا إلى مكان المعركة في الوقت المناسب وقرروا العودة لفوات الأوان فبكى الجميع ورجعوا خائبين، وهكذا فشلت حركة سليمان بن صرد

الخزاعي وترك فشلها جرحاً عميقاً في نفوس العراقيين واستغل المختار التذمر السائد بين التوابين فصور لهم أنه القائد الذي سيحقق لهم أمانهم فالتفوا حوله في حركة أخرى.

حركة المختار بن أبي عبيد:

أنجبت الطائف رجالاً بعيدي الغور واسعى الشهرة لكنهم غير واضح المعالم ومن هؤلاء الحاج بن يوسف التقى و زياد بن أبيه وابنه عبد الله والمختار بن أبي عبيد وقد ولد المختار في السنة الأولى للهجرة ولقب بكيسان لأنه تلقى العلم على يد كيسان مولى علي بن أبي طالب أو لأن كيسان عرفة بقتله الحسين وحثه للأخذ بثار الحسين أو أن كيسان كان لقباً أصلأ له.

قاد أبوه معركة البويب ضد الفرس سنة ١٣٤هـ / ٦٣٤م وقتل فيها. تزوج المختار بنت النعمان بن بشير الأنصاري وتزوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب.

عاش المختار في صباه مع عمه سعد بن مسعود عامل علي بن أبي طالب على المدائن ثم لابنه الحسن من بعده وقد التجأ له الحسن عندما انهارت قوته واعتدى البعض عليه فاقتصر المختار على عمه تسليم الحسن إلى معاوية ليinal المال والحظوة من معاوية فرفض العم وعنف ابن أخيه.

ولم يظهر المختار على المسرح السياسي إلا بعد أن بلغ السينين عندما قدم من ضياعته في نفرٍ من مواليه إلى الكوفة في وقت مناسب عندما اضطرب الأمان بعد وفاة معاوية فاشترك مع مسلم بن عقيل في حركته وعند فشلها جيء به إلى عبد الله بن زياد فستر عينه بقضيب ثم سجنه وظل في السجن حتى قتل الحسين وعندما علمت صفيحة أخته بسجنه وكانت تحت عبد الله بن عمر بكت وجزعت فلما رأى ذلك عبد الله بن عمر كتب إلى يزيد بن معاوية راجياً إياه أن

يأمر عبيد الله بإطلاق سراح المختار، فاعتقل يزيد وخلى سبيل المختار ونفي إلى خارج الكوفة.

ذهب المختار إلى الحجاز واتصل بابن الزبير وعلم أنه لم يعلن الثورة بعد ولكنه سيفعل في الوقت الملائم لكن المختار طلب من ابن الزبير أن يعلن الثورة ويطلب من الناس مبايعته وعرض عليه المساعدة علناً فغضب ابن الزبير لأنه لم يكن يريد أن يذيع سر ما ينوي إليه فهذا الكلام لا ينبغي أن يكون إلا والستور دونه مرخاه والأبواب دونه مغلقة ثم خرج المختار ولم يشاهد حولاً في مكة، وقال نفر من أهل الطائف أنه قدم عليهم في الطائف ثم خرج إلى مكة فأتى البيوت فاستقبل الحجر ثم طاف بالبيت فما لبث أن مر به رجال من معارفه من أهل الطائف وغيرهم من أهل الحجاز فجلسوا إليه، واستبطأ ابن الزبير قيامه إليه وبدى له في مظهر الرجل الخطير عندئذ أحسن ابن الزبير معاملته، اجتمع المختار بابن الزبير وقال له: "إني قد جئت لأبأيعك على ألا تقضي الأمور دوني وعلى أن أكون في أول من تأذن له وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك".

وبعد تردد وافق ابن الزبير على ذلك فبأيعه المختار ومكث المختار مع ابن الزبير حتى شاهد حصار مكة الأول حيث قدم الحسين بن نمير السكوني مكة وقاتل المختار في مستهل سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م إلى جانب ابن الزبير في صفوف خوارج اليمامة الذين جاءوا للقتال ليدافعوا عن البيت. وظل المختار إلى جانب ابن الزبير بعد أن انفك الحصار الأول وهلك يزيد بن معاوية ورجع أهل الشام إلى الشام وأصطلح أهل الكوفة على عامر بن مسعود بعد ما هلك يزيد يصلى بهم حتى يجتمع الناس على إمام يرتضونه فلم يلبث عامر شهرًا حتى بعث بيته وبيعة أهل الكوفة إلى ابن الزبير وأقام مع ابن الزبير خمسة أشهر بعد مهلك يزيد.

قدر المختار الرجوع إلى الكوفة لأنه لم يجد في مكة ما يصبو إليه ولأن العراقيين طردوا عبيد الله بن زياد وكثيراً ما كان يسأل القادمين من أهل الكوفة عن حال الناس فكان الجواب أن الناس بصلاح واتساق على طاعة ابن الزبير إلا أن طائفة من الناس إليهم عدد أهل مصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما؟ فقال له المختار: أنا أبو إسحاق أنا والله لهم، أنا أجمعهم على صر الحق؟ وأنفي بهم ركين الباطل وأقتل بهم كل جبار عنيد.

آمن المختار بإيمانا بالنصر فخرج إلى الكوفة حتى انتهى إلى بحر الحيرة يوم الجمعة، فنزل فاغسل وأدهن دهناً يسيراً ولبس ثيابه واعتم وتقلد سيفه ثم ركب راحلته فمر بمسجد السكون وجالة كندة لا يمر بمجلس إلا سلم على أهله وقال: ابشروا بالنصر والفتح أتاكם ما تحبون وأقبل حتى مر بمسجدبني ذهل وبني حجر فلم يجد ثمة أحد ووجد الناس راحوا إلى الجمعة فاقبل حتى مر ببني بدا فوجد عبيده بن عمر البدي من كندة فسلم عليه وظل يسير في شوارع الكوفة وهو يقول ابشروا بالنصر وكان يصحبه اثنان من بني كندة وصلى مع الناس في المسجد يوم الجمعة.

حاول المختار أن يتزعم أحزاب المعارضة والفتات الأخرى ولكنه لم يتمكن من ذلك وسليمان بن صرد الخزاعي على قيد الحياة، فهو منافسة الخطير وقد حاول المختار كثيراً أن يبعد الناس عن سليمان إذ كان يقول فيه: أن سليمان ابن صرد إنما هو عشمة من العشم وحش بال ليس بذي تجربة للأمور ولا له علم بالحروب إنما هو يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم.

واستمر المختار على هذا المنوال حتى استمال طائفة من أنصار سليمان ابن صرد وأصبح سليمان بن صرد أقل خلق الله على المختار، وحاول المختار أن يمسك بزمام الأمور في الكوفة بتوجيه الأحزاب المعارضة المختلفة بهذا

الاتجاه وشعر أشراف الكوفة بذلك وأخبروا عامل ابن الزبير عبد الله بن يزيد فأودعه السجن وكان ذلك قبل معركة عين الوردة وفي السجن كتب المختار إلى أولئك الذين نجوا في المعركة ما يلي: فإني لو خرجت إليكم قد جردت ما بين المشرق والمغارب في عدوكم السيف بإذن الله فجعلتهم بإذن الله ركاماً وقتلتهم فإذا توأماً وعندما استلموا كتابه أجابوه: ونحن حيث يسرك فإن شئت أن نأتيك حتى نخرجك فعلنا.

فأجابهم لا تزدوا هذا فإني أخرج في أيامي هذه ثم أطلق سراح المختار بشفاعة صهره عبد الله بن عمر وكفالة عشر من وجهاء الكوفة وأشرافها.

وفي سنة ٦٨٥هـ/١٢٥٦م عين ابن الزبير عبد الله بن مطیع والياً جديداً على الكوفة وكان أشد أنصار ابن الزبير حماسة وكان على الوالي الجديد أن يحكم قبضته على الكوفة أكثر من سلفه فأعلن من على المنبر برنامجه السياسي قائلاً: فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم وأمرني بحبابة فيكم؟ وإلا أحمل فضل فيكم عنكم إلا برضي منكم ووصية عمر ابن الخطاب التي أوحى بها عند وفاته وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها المسلمون فاتقوا الله واستقيموا ولا تختفوا وخذوا على أيدي سفهائكم؟ وألا تفعوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني؟ فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي ولا جتنم درء الأصرع المرتّاب.

ولم يرض أهل الكوفة على الكثير من الأمور التي وردت في الخطبة المذكورة فقد قال له السائب بن مالك الأشعري: إننا لا نريد أن يؤخذ فضل الفيء بسل نطالب بالإبقاء عليه وتوزيعه كما وزعه علي بن أبي طالب عندما كانت الكوفة عاصمة للدولة ومركز بيت المال لا كما فعل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فقال ابن مطیع: نسير فيكم بكل سيره أحببتموها وهو ينموها وقد

أظهرت هذه المعارضة العلنية للوالي ضعفه وشعور الأحزاب المعارضة اتجاه عبد الله بن الزبير وكذلك عكست قوة المختار وأتباعه.

حضر إِياس بن مصارب رئيس الشرطة ابن مطیع من السائب بن مالک الأشعري وقال له أنه من رؤوس المختار ولست أمن من المختار فابعث إليه واسحنه لأنه يخطط للاستيلاء على الكوفة فبعث الوالي إلى المختار طالباً منه الحضور فتظاهر المختار بالمرض ولم يحضر ولأجل أن يقتل المختار جميع الأحزاب المعارضة للأمويين حوله قال إن محمد بن الحنفية أحد أبناء علي بن أبي طالب وأمه ليست فاطمة بنت الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بل هي من بني حنفية قد أرسله إليهم فشكوا في أمره وذهب وقد منهم إلى مكة ليبَسَّ عن إدعاء المختار هذا وقد كان جواب ابن حنفية للوفد فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه فاعتبر جوابه بموافقة منه ولو كان عكس ذلك لمنعهم من الانضمام إليه وتَأْيِيده.

ويبدو أن المختار لم يعرف بالضبط جواب ابن الحنفية ولذا فقد قلق كثيراً لأنه خشي أن يكون مما يتعارض مع أهدافه ومراميه ولذا فقد حاول إعلان الثورة قبل رجوع الوفد، ثم تنفس المختار الصعداء عندما عاد الوفد وأخبر المختار بأن ابن الحنفية وافقهم على تأييده ونصرته وقد جنى المختار ثمار جواب ابن الحنفية للوفد فقد انضمت بعض الشخصيات المهمة إلى المختار بعد أن كانت متربدة منهم المحدث المشهور عامر الشعبي وأبوه شرحبيل وزاد عدد اتباع المختار وأنصاره ودعا المختار في الحال إلى اجتماع الأحزاب المعارضة حال المختار في الاجتماع رجال وسخر المرتابين والمترددين وكان على المختار أن يكسب رجلاً مهماً في الكوفة ولا يستطيع من دونه أن تقف الأحزاب المعارضة بوجه أشراف الكوفة وواليها وهذا الرجل هو إبراهيم بن الأشتر زعيم

قبيلة النخع من مذحج الذي كان على اتصال بابن الحنفية ومؤيداً للأحزاب المعارضة لكنه لم يثق بسلامان بن صرد والمختار.

أرسل المختار وجهاه الأحزاب المعارضة والمُتّفذين من أتباعه ومن بينهم عامر الشعبي وأبوه طالبين من إبراهيم بن الأشتر الانضمام إليهم ووافق إبراهيم على الانضمام إلى المختار بشرط أن يكون هو قائد الحركة وعاد الوفد دون الوصول إلى اتفاق وبعد ثلاثة أيام ذهب المختار مع بعض أتباعه إلى إبراهيم بن الأشتر حاملين رسالة ادعوا أن ابن الحنفية كتبها له، وهذا نصها: "من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإنني قد بعثت إليكم بوزيري وأميني ونجبي الذي أرضي به لنفسي وقد أمرته بقتل عدوي والطلب بدماء أهل بيتي فأنهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك فإنك إن نصرتني وأجبت دعوتي وساعدت وزيري كان لك عندي بذلك فضيلة ولك بذلك أعنزة الخيل وأقصى بلاد أهل الشام على الوفاء بذلك على عهد فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقبله أبداً والسلام".

وهناك أسباب تدعو للشك في صحة الرسالة المذكورة أعلاه، فالعرض الذي قدمه ابن الحنفية لإبراهيم بن الأشتر يتضمن نفس مطالب الأخير في مقابل الانضمام للمختار بالإضافة إلى ذلك قصر الفترة الزمنية ما بين المقابلة الأولى وتسليم الرسالة ولم يسبق لمحمد بن الحنفية أن كتب لابن الأشتر (من محمد المهدي) بل اعتاد أن يكتب له باسمه واسم أبيه وعندما طلب من المختار توضيحاً أجاب المختار أن ذلك زمان وهذا زمان ومع ذلك فقد شهد شهوداً بأن ابن الحنفية كان قد كتب الرسالة وأشهد الشعبي على ما ادعاه الشهود ويبدو أن شهادة الشهود وإيضاح المختار كان قد أقنع إبراهيم بن الأشتر بوضع إمكانياته بين يدي المختار وأخذ يحضر الاجتماعات في بيت المختار.

أعلن المختار حركته في ربيع سنة ٦٨٥هـ / ١٢٠٦ م وحاول أن يتتجنب إراقة الدماء فقد أوصى إبراهيم بن الأشتر أن يتتجنب الاحتكاك بقوات الوالي قدر الإمكان وأن لا يحارب إلا إذا هوجم، وتمكن المختار من الاستيلاء على الكوفة دون إراقة دماء كثيرة وسعى لإشاعة العدل والرحمة والطمأنينة في النفوس والصلح بين الأحزاب والفتات المتعدد. وتولى القضاء بنفسه أول الأمر ثم عين قضاه ووفي بعده للأشراف بالأمان بل رغب إليهم أن يجالسوه وينصحوه وفكراً أن يجعل الكوفة مركزاً للخلافة الإسلامية مرة أخرى، وكتب المختار إلى علي بن الحسين يريده أن يباع له وبعث له أموالاً فأبى علي بن الحسين أن يقبل الأموال وأن يجبيه وخرج علي بن الحسين وشتم المختار وعاشه وذكر كذبه وكتب المختار إلى ابن الحنفية يريده على ذلك فأتاه علي بن الحسين فأشار عليه أن لا يقبل وأن لا يخرج إلى الناس فيتبرأ منه ويعييه ويدرك كذبه فأتاه ابن عباس وقال له لا تقبل فإنك لا تدري على ما أنت عليه من ابن الزبير فأطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار.

كان مؤيد والمختار من مختلف القبائل العربية في الكوفة وأشرك في ثورته أفراداً من جميع القبائل العربية في الكوفة كالنخع وهمدان وفهد وشاكر وخثعم وشمام وأسد وحنفية وعبس وواليه والأزد ومزيينة وبكر وأحمس وهذا التأييد العربي الكبير للمختار كان بسبب مولاه القبائل العربية للأحزاب المعارضة ومعارضتها لأشراف الكوفة وكانت مساهمة الموالي قليلة في هذا الوقت وكان عددهم خمسماة فقط وكان انضمامهم نتيجة لسيطرة أسيادهم القوية عليهم لكنهم زادوا بعد ذلك ولم يدافعوا المختار عن الموالي إلا لكونهم ضعفاء كان بإمكانه استغلالهم للحصول على تأييدهم وكان انضمامهم للمختار لم يكن نتيجة لمكانتهم الاجتماعية إنما يكمن في فقد عنصري في أصلهم الفارسي الذي يرافق الحكم العربي.

امتد نفوذ المختار فشمل الموصل والمدائن وجون وحلوان والري وأذربیجان ومناطق أخرى وقد عين المختار على هذه الولايات وغيرها ولاة من أشراف الكوفة كما قدم هؤلاء الأشراف في مجلسه ولم يأخذ بثار الحسين كما وعد بذلك قبل إعلان الثورة ولعل سبب ذلك هو أن المختار كان مهتما في ذلك الوقت بتحقيق الاستقرار في الكوفة أكثر مما كان يريدأخذ ثار الحسين لأن الجيش الأموي بقيادة عبد الله بن زياد كان يتقدم إلى الموصل وأنه كان مهددا من قبل ابن الزبير في البصرة وفي الحجاز لهذا كله كان المختار مضطراً أن يهادن الأشراف ويقرب إليهم وقد اعترض أشراف الكوفة على المختار لأنه جعل للموالى حصته في الفيء وقد سأله المختار أشراف الكوفة فيما إذا جعل فيهم هم هل يقاتلون معهبني أميه وابن الزبير فرفضوا أن يفعلوا ذلك وعندئذ أصبح المختار مضطراً للاعتماد على الموالى بسبب الظروف السياسية آنذاك التي حددت اختيار المختار في التزام جانب الموالى.

حاول المختار الاستيلاء على البصرة لأن ذلك سيسهل سيطرته على جميع العراق والأقاليم الشرقية ويمكنه من أن يحرم ابن الزبير من مصادره غنية ويجعله معتمداً اقتصادياً على الحجاز والإقليم الفقير إذ أن عبد الملك بن مروان كان قد انتزع منه مصر إضافة إلى ذلك فإن احتلال البصرة سيمد المختار بالكثير من المؤيدين مما يزيد في قوته العسكرية الأمر الذي يساعد على مواجهة الخلافة الأموية وابن الزبير معاً.

ومن حسن حظ المختار أن الظروف كانت ملائمة جداً فقد كان مركز البصرة ضعيفاً وكانت البصرة مهددة باستمرار من قبل الخارج إضافة إلى ذلك فإنه لم يكن بإمكان عبد الله بن الزبير إرسال جيش بسبب الضغط الشديد الذي وجهه عبد الملك بن مروان.

لم ينجح المختار في احتلال البصرة فقرر أن يتصرف بسرعة وبسرية سائلاً صداقه ابن الزبير، فعرض على ابن الزبير أن يتعاونا ضد الخلافة الأموية وكان جواب ابن الزبير هو: .. فإن كنت على طاعتي فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادي وتباعي لي الناس من قبلك فإذا أنتني بيعتك صدقتك مقالتك وكففت جنودي عن بلادك وعجل على بتسريع الجيش الذي أنت باعثه وسرهم فليسروا إلي من بوادي القرى من جند ابن مروان فيقاتلوهم والسلام.

استجاب المختار لاقتراح ابن الزبير فأرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلاف من الموالي تحت قيادة شرحبيل بن ورس الهمданى وأمره أن يذهب إلى المدينة ويستقر هناك ثم يكتب للمختار من هناك وينتظر الأمر منه، ويبدو أن المختار كان يريد احتلال المدينة ثم يذهب لمحاصرة مكة، لكن ابن الزبير انتبه إلى ذلك فأرسل جيشاً لمواجهة جيش المختار وقد تقابل الطرفان في الرقيم قرب المدينة ودارت الدائرة على جيش المختار وقتل قائده، وبعد هزيمة جيش المختار أمام جيش الزبير كتب المختار إلى محمد بن الحنفية أملأ في الحصول على اعتراف كامل منه ليسبغ على حركته صفة شرعية وخابت آمال المختار إذ لم يحصل على هذا الاعتراف ومع ذلك فقد أخبر المختار زعماء الأحزاب المعارضة للأمويين والمؤيدين له أنه قد أمر من قبل ابن الحنفية بأن يجمع البر والبسر ويصرع الكفر والقدر.

اضطر محمد بن الحنفية أن يكتب للمختار طالباً منه النجدة والمساعدة وذلك لأن ابن الزبير كان قد أعلن في سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م نفسه خليفة المسلمين ولم يبايعه محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس فقرر عبد الله بن الزبير أخذ البيعة من محمد بن الحنفية بالقوة، وفي عام ٦٦هـ / ٦٨٥م ألقى القبض عليه مع مجموعة من وجاهاء الكوفة وهددتهم بالقتل إن لم يبايعوه، وقرأ المختار رسالة ابن الحنفية علينا والسرور يعمره وأرسل في الحال جنوداً متقطعين إلى مكة ثم

أردد ذلك بأفواج أخرى حتى بلغ مجموع الذين وصلوا مكة ثلاثة آلاف مقاتل منهم سبع مائة مقاتل من عرب اليمن وكان البقية من الموالي بقيادة قائد عربي، شرحبيل بن ورس من قبيلة همدان اليمانية.

تمكنت قوات المختار من إنقاذ ابن الحنفية فترك مكة إلى الطائف ولم يذهب إلى الكوفة لأنه لم يكن يثق بالمختار وتطلعه نحو السلطة وربما لم يذهب هناك لخوفه من المختار لأن الأخير كان قد روج إشاعة في الكوفة مفادها أن في المهدي علامة يقدم بلدكم هذا فيضربه رجل في السيف لا تضره، وذلك لخوفه من أن قدوم ابن الحنفية إلى الكوفة سيضع حدًا لنشاطه المتطرف، وربما كان أن الحنفية يحاول بعدم ذهابه إلى الكوفة تجنب عداء كل من عبد الملك وعبد الله بن الزبير، يضاف إلى ذلك فإن مستقبل المختار كان لا يزال غير مضمون وفوق ذلك كله فإن ابن الحنفية لم يثق بالковيين وتأييدهم بعد الخبرة الفظيعة التي كانت لأبيه وأخويه معهم.

أرسلت الخلافة الأموية جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد إلى العراق، وأرسل المختار جيشاً لمواجهةهم والنقي الجيشان بالقرب من الموصل وانتصر جيش المختار بقيادة يزيد بن أنس لكن جيش المختار انسحب لموت قائدته ولأن الشاميين بدأوا يرشقون جيش المختار بوابل من السهام ولذا فلم يتمكن جنود المختار من مواجهة قوات الشام والبالغة ثمانية آلاف وشاع في الكوفة بأن قوات المختار هزمت أمم أهل الشام وأن الشاميين يتقدمون بجيشهم الكبير نحو الكوفة فأمر المختار إبراهيم الأشتر أن يذهب لمحاربة عبيد الله بن زياد على رأس جيش تعداده سبعة آلاف وأن يضم إليه جيش يزيد بن أنس.

إن خروج جزء من جيش المختار من الكوفة وتقدم الجيش الشامي ضد الكوفة جعل موقف المختار مهزوزاً وضعيفاً في الكوفة فتجرأ الأشراف على

المختار وأخذوا يعلمون للتخلص منه وقد أداوه لأنه نصب نفسه عليهم دون رضاهم ولا موه لأنه أعطى الموالي جزءاً من الفيء وإعطاءهم العطاء وجعلهم يركبون الخيل، ولذا فقد قرر أشراف الكوفة أن يغتنموا هذه الفرصة السانحة للتخلص من المختار، ولما مضى إبراهيم بن الأشتر لقاء أهل الشام احتل أشراف الكوفة المراكز الرئيسية في الكوفة وحاصروا المختار في القصر والمسجد وعزلوه عن الخارج لكن المختار كان ذكيأً فقد اقترح على الذين حاصروه أن يبعثوا من قبلهم وفداً إلى ابن الحنفية ليتأكدوا من تأييد ابن الحنفية له وفي الوقت نفسه أرسل على جناح السرعة من يخبر إبراهيم الأشتر بضرورة العودة بجندوه إلى الكوفة ففعل ابن الأشتر ذلك وعسكر بالقرب من المسجد خلال الليل وفي صباح ٢٤ ذي الحجة سنة ٦٦٦هـ / ١٨٦م وقع الصدام بين جند المختار والأشراف انتهى بانتصار المختار ونادي المختار من أغلق بابه فهو آمن إلا رجل شرك في دم آل محمد فاستثنى من الأمان من اشتراكوا في قتل الحسين فقتل شمر ابن ذي الجوشن وعمر بن سعد بن أبي وقاص وغيرهم، وحقق بذلك شيئاً أولهما أنه بر بو عده بالثار للحسين الذي تمت البيعة له بموجبه والثاني هو إنزال العقاب بالأشراف الذين ثاروا ضده بعد أن حاول كثيراً مصالحتهم وفوق ذلك أنه تحفز بالعبارة التي قيل أن محمد بن الحنفية قالها منتقداً المختار: "عجب المختار يزعم أنه يطلب بدمائنا وقتلنا الحسين جلساً وحده".

وقد هرب بعض أشراف الكوفة إلى البصرة عند مصعب بن الزبير وبعد أن قبض المختار على زمام الأمور في الكوفة وأرسل بعد يومين ابن الأشتر لمحاربة جيش الخلافة الأموية وأمره أن يهاجمهم متى لقيهم، ودارت معركة طاحنة بين الجيشين على نهر خازر وانتصر جيش المختار انتصاراً كبيراً وقتل عبد الله بن زياد والحسين بن نمير السكوني وغرق معظم الهاجرين من أهل الشام.

ولم يهأ المختار بانتصاره على أهل الشام فقد واجه خطراً شديداً من البصرة حيث كان مصعب بن الزبير يتولى الأمر من قبل أخيه عبد الله وقد حرض الكوفيين الهاربين إلى البصرة وكان عددهم أكثر من عشرة آلاف، مصعب بن الزبير ضد المختار، ولم يستجب لطلبه إلا بعد أن وافق المهلب بن أبي صفره عاملة على فارس ومعه مقاتلة أهل البصرة على الانضمام إليه وذلك لقدرة المهلب العسكرية ولأن جيش المهلب يضم خيرة مقاتلي أهل البصرة.

ولم يكن المهلب في بداية الأمر راغباً في الانضمام ضد المختار لأنه كان والياً على خراسان ومنشغلًا في حربه ضد الخوارج ثم وافق بعد أن جاءه محمد بن الأشعث الكندي مدعياً بأنه مرسل من نساء وأطفال أهل الكوفة يستصرخونه أن يضع حدأً لنشاط المختار. التقى مصعب بن الزبير المختار في المذار ودارت الدائرة على المختار فانصرف منهزاً حتى دخل قصر الكوفة ولاحقه مصعب وأحاط قصر الكوفة حاصر المختار أربعة أشهر، وكان مع المختار عدد كبير من الموالي وقليل من العرب لأن العرب كانوا قد تركوا المختار ولدوا إلى قبائلهم بينما بقي الموالي معه حتى قتل، وقتل هيبة المختار وأنصاره في أعين الكوفيين في فترة الحصار فأخذوا يرمونهم بالحجارة من فوق البيوت ويصبون عليهم الماء القدره.

أطلق مصعب بن الزبير العنان لأشراف الكوفة ليثأروا للدماء آبائهم وأقربائهم من الموالي مما أثار حنق بعض أبناء الصحابة مثل عبد الله بن عمر ابن الخطاب الذي تربطه بالمختار رابطة المصاهرة. ولم يظهر مصعب أية رحمة نحو المختار وأتباعه فقد قتل أولاد حجر بن عدي الكندي الاثنين وكذلك قتل ابن حذيفة بن اليمان وقتلت إحدى زوجات المختار لأنها رفضت أن تتقول بأن المختار كان مدعياً كاذباً.

وكان المختار بأمس الحاجة إلى مساعدة إبراهيم ابن الأشتر واليه على الجزيرة في حربه ضد مصعب ولكنه لم يطلب منه ذلك لأنه يشعر بأن إبراهيم لم يكن مخلصاً كل الإخلاص ويفترض دكشن أن العلاقة بين المختار وابن الأشتر أصبحت فاترة نوعاً ما منذ الوقت الذي خرج فيه إبراهيم لقتال عبد الله بن زياد وأهل الشام حيث قابله أتباع المختار ومعهم الكرسي وقد عبر إبراهيم عن استيائه من عملهم هذا حين قال اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء - سنةبني إسرائيل - والذي نفسي بيده إذ عكفوا على عجلهم ولم يكن الأشتر وحده الذي لم يكن مطمئناً للمختار، فابن الحنفية لم يقر نشاطه أيضاً ويدرك ابن سعد أن عبد الله ابن الزبير أرسل أخيه عروة إلى ابن الحنفية يأمره بأخذ البيعة منه ويهده بالموت إن رفض ذلك فقال عروة لابن الحنفية: "لقد قتل الله الكاذب الذي كنت تدعى نصرته" فأجاب ابن الحنفية: "والله ما بعثت المختار داعياً ولا ناظراً والمختار كان إليه أشد انقطاعاً منه إلينا فإن كان كذاباً فطالما قربه على كذبه وإن كان غير ذلك فهو أعلم به.

ساهم الموالي في حركة المختار بعدد محدود في البداية إذ كانوا لا يزيدون عن خمسينات لكنهم ازدادوا بعد احتلال المختار الكوفة سنة ٦٦٦هـ/٦٨٦ م وقد قام العرب بتنظيمهم وإشرافهم في هذه الحركة لدعاوا إسلامية أو حزبية وإذا كان العرب قد انضموا إلى حركة المختار لأهداف خاصة بهم فإن للموالي دوافعهم الخاصة وقد تكون مشاركتهم أحياناً بتذكر الأمجاد الماضية أو بإحياء الآراء الدينية الفارسية القيمة وتبدو هذه الوجهة أكثر وضوحاً باتساع نشاط الغلاة الذين ظاهروا بالإسلام حتى إن بعض الحركات العربية شجعتهم رغم خطير اتجاههم كما هو الحال في الدعوة العباسية.

تعتبر حركة المختار أول حركة عربية اشتراك فيها الموالي تحت ستار الإسلام حاملين روحًا إسلامية داعين إلى مساواتهم بالعرب في الإدارة والمجتمع

وكان اشتراكم في حركة المختار هو محاولة لضرب السلطان العربي عن طريق الفكر والعقيدة، وهم يكشفون في اندفاعهم عن صراع ديني ثقافي واسع.

يُعلق الدكتور فاروق عمر على دور الموالي في حركة المختار وكيف يعتقد البعض أن الموالي قد بروزاً في حركة المختار وثبتوا وجودهم ككتلة ذات ميل معارض للأمويين يقول: -والمعتقد بأن هذه النظرة مبالغ فيها وتحتاج إلى إعادة النظر فيها فلقد كانت الكتلة العربية التي أيدت المختار كبيرة وت تكون بصورة خاصة من بجية وهمدان وكنده وغيرهم وخاصة عرب آخرون مثل القيسيين الذين يسكنون جبانه والسبيع والكناسة في الكوفة ولقد تدخلت عوامل كثيرة في تقرير أنصار المختار وخصومه منها العداء القبلي ومنها مدى تقبل القبائل لمبدأ التطرف -الغلو- أو رفضه ومنها الطبيعة البدوية التي ترى بأن العرب سادة وتأبى قبول التنازل عن بعض الامتيازات ولعب العرب أمثال إبراهيم بن الأشتر وموسى بن أبي موسى الأشعري دوراً كبيراً في ثورة المختار، ولعل هذه العوامل نفسها هي التي أدت إلى تخلي العرب عن المختار في أخرج لحظاته وبالتالي إلى فشل حركته.

وأما زعيم الحركة، المختار فقد نعت بأنه سحّار ودجال وكذاب وقد وصف بذلك لادعائه بأنه مكلف من الحنفية بل لأنّه قام بأعمال وسلوكاً من شأنها أن تعطي عنه فكرة النبوة، فقد ادعى بأن جبريل يأتيه ويخبره بقتل الحسين وكان يتحكم وكأنه جالس في الحضرة الإلهية ويسجع سمع الكهان بطلاقة ومهارة، وكان يوجه الانفعالات الدينية لغايات سياسية وكان ذا طموح سياسي فاستخدم جميع الوسائل من أجل تحقيق هذا الطموح.

الخوارج:
أصلهم:

أشتق هذا الاسم من الفعل (خرج) لأنهم خرجوا على علي بعد أن كانوا ضمن جيشه وأنصاره، ويسمون أنفسهم (الشراة) أي الذين اشتروا الآخرة بالدنيا ويطلق عليهم (المحكمة) وهم يقولون لا حكم إلا لله، ويطلق عليه أحياناً (الحرورية) نسبة إلى حروراء وهو المكان قرب الرقة على الفرات نزلوه بعد رجوع جيش علي بن أبي طالب من صفين ٣٧هـ/٦٥٧م.

أفرزت معركة صفين هذا الحزب العربي المعارض، فحين رفع أهل الشام المصاحف على أنسه الحراب ودعوا إلى تحكيم كتاب الله أدرك علي بن أبي طالب الحيلة فلم يقبل بذلك، لكنه أحبر على إصدار الأوامر بإيقاف الحرب وقبول التحكيم، وتقدم الأشعث بن قيس وفرض نفسه ممثلاً لعلي بن أبي طالب في مفاوضاته مع معاوية وتبنى الأشعث بن قيس اقتراح معاوية الذي يقوم فيه أن يختار كل فريق من يمثله ليقر حكم القرآن فيما بينهما أحق بالخلافة، عرض ابن الأشعث ذلك على جيش علي فوافقوا عليه دون استشارة علي واختاروا دون موافقة علي أبا موسى الأشعري واختار أهل الشام عمرو بن العاص. وحدد الطرفان دومة الجندي مكاناً للجتماع على أن يكون في شهر رمضان من عام ٣٤هـ/٦٥٧م وكتبوا وثيقة بذلك ثم عاد علي بن أبي طالب بعد ذلك مع أتباعه إلى العراق وقد وقع الانقسام في صفوفهم وكانوا يتشاركون ويتضاربون في الطريق وانفصل عن جيش علي اثنا عشر ألف رفضوا العودة معه إلى الكوفة وساروا إلى قرية حروراء حاملين شعار لا حكم إلا لله في حين عاد جند معاوية وهم متحدون متضامنون.

يرى الخوارج أن تقرير الأمور العامة يجب أن يكون وفقاً لأوامر الله ونواهيه، لكن سياستهم لم تكن موجهة نحو أهداف معينة يعملون على تحقيقها، وهم يبذلون كل إمكاناتهم العسكرية لتحقيق سياسة خلو من كل سياسة للفوز بالجنة ويطلبون النجاة لأنفسهم بأن يقاتلوا (الجماعة) الكافرة دون أي تحفظ من قبل غيرهم أو قبل أنفسهم وعلى الفرد في رأيهم أن يؤمن إيماناً وثيقاً بحقه في العقيدة الدينية والسياسية وعليه أن يبذل كل ما في وسعه لقول الحق وأن يثبت ذلك بالأعمال ومن يشك في أنه على حق فهو كافر، ومن انحرف في عمله عن الصراط المستقيم فهو كافر خصوصاً إذا ادعى أنه لا يمكن تجنبه في جميع الأحوال ومن زل زلة فقد خرج عن الإسلام ولا يجدد إيمانه إلا بعد أن يعلن توبته علناً والأمور كلها إما حلال أو حرام ولا وسط بينهما. ذهب علي بن أبي طالب إلى الخوارج في حروراء، وخطبهم بغية إقناعهم ليعودوا إلى صفوف جنده لكنهم استمروا في انشقاقهم ولم يرغبو في العودة إلى صفوف جنده وحان وقت التحكيم ولم يكن أبو موسى الأشعري كفأاً لعمرو بن العاص ففاز معاوية بالتحكيم. وفتح التحكيم باباً جديداً في الفرقه بين علي وجنده وقوى جانب الخوارج على علي ولم يعد هناك أمل في رجوعهم إلى جنده.

حركات الخوارج:

أخذت أفكار الخوارج تظهر مشوبة بمبالغات عنيفة، فعبدوا بأموال المسلمين وأرواحهم فاضطر علي بن أبي طالب إلى أن يسير إليهم ثم خطب فيهم ليحثهم على الطاعة والعودة لصفوف جيشه وتسليمه من عبّث منهم بأرواح المسلمين، فاستجاب قسم منهم لدعوته ورفض معظمهم ثم دارت الدائرة عليهم في معركة النهرowan ولم تنج إلا فئة قليلة منهم.

ومن نتائج معركة النهروان أن تفرق الذين نجوا من المعركة فذهبوا إلى عمان وكرمان وسجستان والجزيرة واليمن ونشروا أفكار الخوارج في هذه الموضع، ثم قرر الخوارج تنفيذ مؤامرة لاغتيال علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في يوم واحد، وفي سنة ٤٠هـ/٦٦٠ اغتالوا علي بن أبي طالب ونجا منهم معاوية وعمرو بن العاص.

وفي سنة ٤١هـ/٦٦١م ازداد عداء الخوارج للخلافة الأموية اعتقاداً منهم بأن معاوية كان غاصباً للسلطة ولذا فقد تواترت حركات الخوارج ضد معاوية ولعل أول من ثار منهم فروة بن نوفل الأشعبي، فاستعان معاوية بأهل الكوفة الذين أبلوا بلاءً حسناً في حرب الخوارج حتى هزمواهم.

وفي سنة ٤٢هـ/٦٦٢م تجمع جرحى النهروان الذين انحازوا عن قتل منهم بالنهروان وقرروا محاربة معاوية، فجاءوا الكوفة وكان المغيرة بن شعبة والياً عليها وكان الخوارج يلقى بعضهم بعضاً ويتذاكرون أخوتهم بالنهروران ويرون أن في الإقامة الغبن والوكف، وأن فيجهاد أهل القبلة الفضل والأجر.

وقد فزع الخوارج إلى ثلاثة نفر المستورد بن علفة التميمي من تيم الرباب وحيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جوين وتشاورا فيما بينهم فيمن يولونه عليهم، وأخيراً استقرروا على أن يؤمروا عليهم المستورد بن علفة وتجمع الخوارج حوله واستعدوا لليوم يخرجون فيه على الوالي، لكن المغيرة بن شعبه والي الكوفة تمكّن من إلقاء القبض على معظمهم قبل تنفيذ الثورة، لكن المستورد ابن علفة الذي أعطاه الخوارج لقب أمير المؤمنين لم يلق عليه القبض فخرج على سلطة المغيرة ببقية أصحابه وبعد معارك طويلة تمكّن المغيرة من قتل المستورد بن علفة وفي هذه المعارك قتل قائد جيش المغيرة معقل بن فيس.

وشهر الخوارج سلاحهم بوجه زياد بن أبي سفيان، وبذل زياداً جهوداً في حربه ضدهم حتى قلم أظافرهم وأضعف شوكتهم، واشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج أكثر من أبيه وقتل منهم جماعة صبراً على صبر، منهم عروة بن أبيه أخو مرداس بن أبيه. وخرج أخو مرداس في الأربعين رجلاً بالأحواز فبعث إليهم عبيد الله بن زياد جيشاً عدته ألفان وعليهم ابن حسن التميمي فهزمه الخوارج، على أن ما أصابه مرداس بن أبيه لم يأت بطائل فقد عزم عبيد الله بن زياد على استئصال شأفتة وشأفة من يناصره فأرسل إليهم ثلاثة آلاف أوقعوا به وقتلواه مع كثير من أصحابه وذلك سنة ٦٨٠هـ/١٦٨م. اضطربت التجارة في البصرة وزادت البطالة فيها بسبب الاضطرابات السياسية التي أعقبت إخراج عبيد الله بن زياد بعد موت يزيد بن معاوية فانضم عدد غير قليل من الأعاجم إلى الخوارج الذين أعطوههم بعض الأمل بما كانوا ينادون به من مساواة بين المسلمين، يضاف إلى ذلك أن الخوارج كانوا يعطون الأعاجم العطاء.

وفي سنة ٦٨١هـ/١٦٨١م جاءت فرقه من الخوارج بزعامة نجدة بن عامر إلى عبد الله بن الزبير في مكة، وكان نجدة يلقى ابن الزبير فيكثر حتى ظن الناس أنه سبباه، وكذلك جاءت فرقه أخرى بزعامة نافع بن الأزرق وقد جاء هؤلاء الخوارج ليمنعوا مكة من جنود الشام وليرفوا ما عند ابن الزبير فتباشروا معه واختلفوا عنه لأنه قدم أبا بكر وعمر ولم يتبرأ من عثمان وعلي ولم يكفر أباه وطلحة.

انقسم الخوارج سنة ٦٨٢هـ/١٦٨٢م إلى أربع فرق بعد أن كانوا على رأي واحد، فرقه الأزرقة وهم أتباع نافع بن عبد الله بن الأزرق وكانت البصرة المركز الرئيسي لهم، وفرقه النجدات التي اختارت نجده بن عامر رئيساً لهم وكانت اليمامة أهم قواعدهم، والصفيرية أتباع عبد الله بن صفار والأباضية أتباع عبد الله بن أباض.

وتعارض فرقة الأزارقة بقية فرق الخوارج لأنها تبيح قتل من خالفوها من المسلمين وفي رأيها أن المسلم الحقيقي هو الذي ينخرط في سلوكهم، أما القاعدون فليسوا ب المسلمين وللخوارج قتلهم واسترقاقهم ثم كفرت فرق الخوارج بعضهاً بعضاً وانتقل الأزارقة من البصرة إلى الأحواز فأقاموا بها وطردوا عمال الخليفة عنها وجيوا الخراج، وفسوا في السواد، فارتاع لذلك أهل البصرة إلى الوالي وجمعوا عشره آلاف مقاتل وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالخوارج واللاحق بنافع بن الأزرق.

ومن الأحواز قاد نافع حملة وأقبل نحو البصرة، لكن أهل البصرة تمكنوا من إبعاده عن البصرة وطاردوه حتى بلغ مكاناً من أرض الأحواز على نهر دجل و هو النهر الفاصل بين الحدود فوق قتال عنيف انتهى بانتصار الخوارج نحو البصرة.

غير أن تطرف الأزارقة، واضطرب التجارة في البصرة كان من الأسباب التي جمعت أهل البصرة ضد الأزارقة ودفعتهم لانتخاب المهلب بن أبي صفرة وتزويده بالمال لقتال الخوارج بما تمكن أهل البصرة من دفع الخوارج وملحقتهم إلى الأحواز وقد طاردوهم حتى ارتفعوا بهم إلى كرمان وجانب أصفهان.

وفي الأحواز انضم عدد كبير من الموالي إلى الخوارج بداعف قومية وتحت شعار مطالبة المساواة مع المسلمين ويذكر أن المهلب كان أول من ضرب الركب من الحديد وهو أول من أمر باستعمالها في حربه ضد الخوارج ذلك أن ركب الناس كانت قدماً من الخشب فكان الرجل يضرب ركابه فيقطع فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمداً. وبعد الخسائر التي مني بها الخوارج فإنهم

ارتحلوا عن الأحواز وساروا إلى الجبال وبابعوا الزبير بن علي وهو من بنى سليط بن يربوع واشتبكوا مع المهلب في مناوشات على حدود فارس والأحواز.

وعندما قضى مصعب بن الزبير على المختار أرسل المهلب إلى الموصل لحماية حدود العراق من أهل الشام وخلع المغيرة بن المهلب الذي كان نائباً عن أبيه على فارس وولى مكانه عمر بن عبيد الله بن معمر وكان ذلك في بداية ٦٨٧هـ فشخص إلى الخوارج فانسحبوا إلى أصفهان وكرمان. وزحف الخوارج من فارس والأحواز إلى البصرة ثم غيروا اتجاههم نحو المدائن فأثاروا الرعب في قلوب الناس، وكان والي الكوفة القباع (الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة) متناقلًا عن قتال الخوارج في أول الأمر لكنه خرج إليهم فمالوا دون قتال إلى البصرة ومضوا إلى ميديا وهاجموا مدينة الري وحاصروها أصفهان ولكنهم خسروا الكثير في هجماتهم هذه وقتل قائدهم الزبير بن الماحوز فبابعوا قطرى بن الفجاءه الذي عاد بهم إلى كرمان.

ثم زحفوا على مرو وأصفهان فالأحواز وعبروا نهر دجلة حتى بلغوا سولاف ففرز ع أهل البصرة وأصبحت مدینتهم مهددة فكتبوا إلى مصعب طالبين انجادهم بالمهلب واصطدم بالخوارج لمدة عدة أشهر عند سولاف وعندما انتهت معركة مسكن سنة ٦٩١هـ بانتصار عبد الملك بن مروان وقتل مصعب ابن الزبير وأخذ المهلب البيعة من الناس لعبد الملك بن مروان.

عيّن عبد الملك بن مروان ولاة أمويين نحوا منحي المهلب في حربهم ضد الخوارج فولى على البصرة خالد بن عبد الله بن أسد الذي قاد الحرب ضد الأزارقة بنفسه وتمكن من دفعهم إلى كرمان ثم رجع إلى البصرة وأمر على فارس أخيه عبد العزيز الذي خاض حرباً عنيفة ضد الخوارج فهزمه شر هزيمة

وتقىم الخوارج واستولوا على الأحواز حتى بلغوا فرات ميسان في مواجهة البصرة.

عزل عبد الملك بن مروان خالد بن أسد عن ولاية البصرة وولى بدله أخاه بشر بن مروان وهو بالكوفة فاجتمعت له البصرة والكوفة وأمره أن يولي المهلب الحرب على الأزارقة ويجعله مستقلاً عنه، وخلوه الحق في جميع جنوده من البصرة وكذلك أمره أن يزوده بجيش من أهل الكوفة وتمكن المهلب عندئذ من طرد الأزارقة من الفرات حتى الجبال.

الفصل الثالث

**عبد الملك بن مروان
ودوره في
إعادة وحدة الدولة لأموية**

دامت خلافة عبد الملك بن مروان إحدى وعشرين سنة ٦٥-٦٨٦هـ / ٧٠٥-٦٨٤هـ وهي فترة مليئة بالأحداث السياسية الخطيرة -ولهذه الفترة أهميتها في التاريخ العربي الإسلامي لأنها فترة إعادة توحيد القوى العربية الإسلامية وترسيخ الهدوء والاستقرار السياسي في الدولة العربية الإسلامية، وقد ظهرت نتائج هذه الاستقرار في عهد الوليد بن عبد الملك الذي شهد عصره الفتوحات الإسلامية الواسعة والأعمال العمرانية الضخمة والضمان الاجتماعي الذي شمل معظم أرجاء الدولة العربية الإسلامية.

بدأ عبد الملك عهده بإقامة السلام مع البيزنطيين لمدة عشر سنوات لغرض التفرغ لحل المشاكل الداخلية والعمل على إعادة وحدة الدولة العربية.

القضاء على حركة عمرو بن سعيد الأشدق ٦٨٩هـ:

من مقررات مؤتمر الجباية أن يكون مروان بن الحكم خليفة المسلمين على أن يخلفه خالد بن يزيد بن معاوية ومن بعده عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق لكن مروان بن الحكم بدأ يعمل لاستبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد من ولاية العهد بعد أن انتصر على أنصار ابن الزبير في معركة مرج راهط ٦٤هـ/٦٨٣م لاعتقاده بأنه وصل إلى الحكم بالقوة وكانت عملية إزاحة خالد بن يزيد عن طريقه سهلة لصغر سن خالد ولأن مروان دبر زواجاً سياسياً بينه وبين أم خالد، ثم مات مروان بعد أن سمي ابنه عبد الملك خليفة للمسلمين من بعده ثم ابنه الآخر عبد العزيز بعد عبد الملك وقد أُعلن عهد مروان هذه سنة ٦٥هـ/٦٨٤م أي بعد موته وأصبح نافذ المفعول بمساعدة رئيس بني كلب حسان ابن مالك بن بحدل، وبابيع بعد الملك لنفسه ووعد عمرو بن سعيد أن يستخلفه فبابيعه وأقام بالشام وشرط عليه أن لا يقطع شيئاً دونه ولا ينفذ أمراً إلا بمحضره فأعطاه ذلك.

وعندما خرج عبد الملك من دمشق لمحاربة مصعب بن الزبير في العراق، طلب ابن الأشدق من عبد الملك بن مروان أن يعينه ولیاً لعهده لبير بوعده، وكان ذلك في طريقهم إلى العراق.

لكن عبد الملك لم يكتفى بذلك فترك ابن الأشدق وأتباعه معسكراً عبد الملك ليلاً عائداً إلى دمشق وفي رواية أخرى أن ذلك تم عندما كان عبد الملك متوجهاً للقضاء على زفر بن الحارث الكلبي وليس في حملته ضد مصعب بن الزبير وقد تمرد ابن الأشدق في دمشق وتحصن بها مطالباً بتنفيذ ما وعد به في مؤتمر الجابية من حق في الخلافة وحرمه منه مروان بمخالفة مقررات المؤتمر المذكور.

وقد حاصر عبد الملك ابن الأشدق ستة عشر يوماً تمت خلالها مراسلات ومفاضلات توصل فيها الطرفان إلى اتفاق تم بموجبه استسلام ابن الأشدق ودخول عبد الملك دمشق.

ومن الأمور التي وردت في الاتفاق أن يتولى ابن الأشدق بيت المال والدواوين ويمثله موظف مع كل موظف يعينه عبد الملك وإن يستشير عبد الملك ابن مروان في جميع قراراته وأن يخلف ابن الأشدق عبد الملك في الخلافة، ولما كان هذا الاتفاق معقداً ولا يمكن تطبيقه عملياً فقد قرر عبد الملك التخلص من ابن الأشدق فدعاه إلى قصره وقتلته.

قد يكون عبد الملك محقاً ببعض الشيء لأنه اعتقاد أن ليس هناك مكاناً للطموحين في ذلك الظرف السياسي المضطرب مما قد يقوض وحدة الدولة العربية الإسلامية وأمنها وكان مقتل ابن الأشدق عبرة للأخرين.

وقد رمى عبد الملك برأس القتيل إلى الناس مع مبالغ كبيرة من النقود، فانشغل الناس بجمع المال وتركوا الرأس ثم أمر منادياً ينادي "أن أمير المؤمنين

قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق، والأمر النافذ، ولهم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه أن يحمل راجلكم ويكسو عاريكم ويعني فقيركم ويبلغكم إلى أكل ما يكون من العطاء والرزق، ويبلغكم إلى المئتين في الديوان، فاعترضوا على ديوانكم وأقبلوا أمره وأسكنوا إلى عهده، يسلم لك دينكم ودينكم. فصاحوا نعم، نعم سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين".

هناك أمر هام ورد في هذا النداء هو أن الخليفة يتبنى فكرة الغدر في المجال السياسي لإسكان الخصوم والمعارضين له وأن هناك عدداً لا بأس به من الناس في دمشق على الأقل يؤمن بفكرة القدر هذه.

وأمضى عبد الملك بقية سنة ٦٨٩ـ٥٧٠هـ في دمشق لتصفية بعض أمور دولته ومصالحة الروم، وفي بداية سنة ٦٩٠ـ٥٧١هـ جدد حملته ضد مصعب بن الزبير.

القضاء على حركة أبناء الزبير:

القضاء على حركة مصعب بن الزبير:

في سنة ٦٩١ـ٥٧١هـ سار عبد الملك بن مروان إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير حتى وصل بطنان حبيب، وقد كان مصعب في انتظاره في بأجميرا حيث عسكر هناك وحل الشتاء ولم تحصل بينهما معركة فرجع كل منهما إلى بلده.

استغل عبد الملك غياب مصعب عن البصرة فكتب إلى أنصاره الأمويين فيها داعياً إياهم إلى الوقوف بجنبه ضد مصعب وواعداً إياهم بالعطايا السخية وقد نجح في ذلك إذ أرسل خالد بن عبد الله بن أبي سعيد الذي تمكّن من السيطرة على البصرة وكان خالد قد ذهب إلى البصرة سراً واحتسباً عند أحد أشراف قبيلة باهلة

وذلك لولاء هذه القبيلة للأمويين ثم طلب خالد مساعدة رئيس قبيلة بكر ابن وائل في البصرة، وأنجذبه قبائل الأزد إضافة إلى قبائل ثقيف وتميم وعبد القيس وسدوس وكانت أغلبية من وقف إلى جانب مصعب بن الزبير هم من القبائل المضدية وعلى رأسهم عمرو بن عبد الله بن معمر التميمي والتي مصعب ابن الزبير على البصرة وهذا يعني أن العصبية القبلية لعبت دوراً رئيسياً في هذا الصراع أن العامل الذي لعب الدور الرئيسي في حصول خالد على هذا التأييد هو الامتيازات السخية التي أعطيت لأنصار الأمويين في البصرة.

واصطدم الطرفان في الجفرة سنة ٦٨٩هـ/١٥٧٠ وهي منطقة من مناطق المريد، وأسفرت المعركة عن انتصار ابن الزبير ودخل الطرفان في مفاوضات أسفرت عن منح الأمان لخالد وأولئك الذين آيدوه وأن يرجع خالد إلى دمشق وحاول مصعب عبثاً وصول البصرة قبل خروج خالد وأنباء منها، ومع ذلك فقد عاقب وبشدة أنصار الأمويين الذين بقوا في البصرة.

حان الوقت لعبد الملك للقاء خصمه مصعب بن الزبير فخرج بجيش كبير من دمشق يريد العراق فعسكر في مسكن وعندما سمع مصعب بذلك توجه إلى معسكره في باجميرا ثم دارت حرب بينهما في دير الجاثيق بين مسك وباجميراء سنة ٦٩١هـ/١٥٧٢م.

وببدأ عبد الملك بمحاولة لتفريق رؤساء أصحاب مصعب من حوله وذلك بأن كتب لهم يستميلهم إليه ويعرض عليهم الدخول في طاعته، وبينذل لهم في ذلك الأموال.

وكان كثير من الحادفين على مصعب قد كاتب عبد الملك عارضين عليه المساعدة لقاء ولایة أصفهان وكان مصعب قد جلب على نفسه نفحة الكوفيين لقتله سنة آلاف من أنصار المختار، وكان أهل البصرة قد حقدوا على مصعب لعقابه

القاسي الذي تعرضوا له بعد فشل خالد بن عبد الله بن أسيد في حربه ضد جيش مصعب في الجفرة، إن العوامل السابقة الذكر هي التي عزلت مصعب بن الزبير عن أهل الكوفة والبصرة، وقد شعر مصعب بذلك فحاول دون جدوى التقرب من أهل الكوفة والبصرة بأن أعطاهم العطاء مررتين في السنة.

وقد ألح أهل البصرة على مصعب بن الزبير على ضرورة درء خطر الخوارج قبل حرب عبد الملك بن مروان، وقد اضطر مصعب أن يستجيب لهذا الطلب ويرسل المهلب بن أبي صفرة على رأس جيش لمحاربة الخوارج، ولم يلتقط مصعب إلى تحذيرات ابن الأشتر الذي استلم رسالة من عبد الملك يطلب منه الانضمام إلى جانبه وينمي فيها بالأمانى أن فعل ذلك فقال ابن الأشتر لمصعب: أيها الأمير لست أشك أن عبد الملك قد كتب إلى عظاماء أصحابك بنحو ما كتب إلى وأنهم مالوا إليه فأذن لي في حبسهم إلى فراغك وقد ذكر الطبرى والبلاذرى أسماء رؤساء القبائل الذين تخلىوا عن مصعب وقد اعتزلت ربىعه الحرب بعد أن كانوا في ميمنة مصعب وقالوا لا نكون معك ولا عليك.

وعندما التقى القوم في أول الحرب وقتل الكثير من قادة مصعب وعلى رأسهم إبراهيم بن الأشتر هرب عتاب بن ورقاء وكان على خيل أهل الكوفة مع مصعب ورفض فطن عبد الله الحارثي ومعه قبيلة مذحج وحجار بن أبيجر محمد ابن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمданى الانصياع لأوامر ابن الزبير وتركوه في ساحة المعركة.

وبسبب الصدافة القديمة بين عبد الملك ومصعب بعث عبد الملك إلى مصعب قائلاً: يا مصعب قد علمت ما جرى الله بيني وبينك منذ ثلاثين سنة وما اعتقدته إخائي وصاحبتي فثق بذلك مني وانصرف إلى وجوه هؤلاء القوم وخذ لي بيعة هذين المصررين والأمر أمرك لا تعصى ولا تخالف وإن شئت اتخذتك

صاحب لا تخى ووزيرا لا تعصى فقال له مصعب: ولكن بعد فتك عمرو بن سعيد لا يطمأن إليك وهو أقرب رحما مني إليك فكان لا بد للحرب من أن تدور وتسحق الكثيرين ومنهم مصعب بن الزبير.

القضاء على حركة عبد الله بن الزبير:

لما قتل مصعب بن الزبير دخل عبد الملك بن مروان الكوفة وأخذ البيعة من أهلها وفرق أعمال العراق والمصرین والکوفة والبصرة على عمالة، ثم أرسل حملة بقيادة الحجاج بن يوسف ضد عبد الله بن الزبير في مكة وقد اختار عبد الملك الحجاج لهذه المهمة بعد أن أظهره الحجاج كفاءة وموهبة في قضايه على المتمردين بين جند الخليفة عندما كان على ساقية الجيش الذي أرسل لمحاربة مصعب بن الزبير وقبل هذه الحادثة كان الحجاج قد برهن على إخلاصه لعبد الملك عندما فاوض زفر بن الحارث الكلابي ورفض الصلاة خلف زفر لتمرده ضد الخليفة.

وكان عبد الملك بن مروان قد أرسل جيشا في الأيام الأولى لتقديره الخلافة وقد أمر هذا الجيش بالذهاب إلى الحجاز وبعدم دخول المدينة.

وقد هرب والي عبد الله بن الزبير من المدينة وظللت المدينة بدون وال وبقى جيش عبد الملك مرابطا قرب المدينة ثم رجع الجيش إلى بلاد الشام بأمر من عبد الملك، ثم أرسل عبد الملك جيشا آخر إلى الحجاز أدى إلى هروب والي ابن الزبير إلى فدك وخمير وجيشا ثالثا للشام بقيادة طارق ابن عمرو ليعسكر بين أيله ووادي القرى ليمنع ابن الزبير من التوسيع وبقي جيش طارق هناك حتى جاءته أوامر عبد الملك بالانضمام إلى جيش الحجاج بن يوسف النقفي.

عسكر الحجاج في الطائف ومنها كان يرسل بعض قواته لغارات موفقة ضد عبد الله بن الزبير وكان تتم خلالها مفاوضات فاشلة مع ابن الزبير وأخيرا طلب الحجاج من عبد الملك أن يأذن له بمحاجمة مكة وإخضاع ابن الزبير.

لم يكن عبد الملك في بداية الأمر راغباً في إرسال جيش إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة وأمر عبد الملك الحجاج بن يوسف أن يتّخذ الطائف وليس مكة محلاً لإقامته لمحاربة ابن الزبير وينظر البلاذري أن الحجاج لم يقترب من المدينة ولا من الطريق المؤدي إليها بل سار بطريق الزبدة إلى الطائف ويروي الطبرى: بعث عبد الملك بن مروان حين قتل مصعب بن الزبير الحجاج بن يوسف إلى ابن الزبير بمكة، فخرج في ألفين من جند أهل الشام، فلم يعرض للمدينة وسلك طريق العراق، فنزل الطائف.

وكان عبد الملك قد أمر الحجاج عند إرساله لمحاربة عبد الله بن الزبير أن لا يهتك أستار الكعبة ولا يرمي أحجارها وأن يحاصر ابن الزبير حصارا محكما حتى يستسلم أو يموت جوعاً، وبعد سنة غير عبد الملك رأيه ووافق على حصار مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق لأسباب عديدة منها: استغلال عبد الله بن الزبير حرمة مكة والمدينة لأغراض سياسية معتقداً أن عبد الملك لا يستطيع مهاجمتها دون أن يثير رد فعل شديد ضده بين المسلمين وربما كان عبد الملك يدرك أن احتلال عبد الله بن الزبير للحرم المقدس كان يهدد وحدة العالم الإسلامي طالما أن مؤيدي عبد الملك كانوا يمنعون من أداء فريضة الحج، والأهم من ذلك فإنه من المستحيل آنذاك وجود خليفتين للمسلمين في آن واحد وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الأسباب الدينية التي منعت عبد الملك من مهاجمة مكة والمدينة هي نفسها دفعته أخيراً المثل هذا الهجوم.

ويذكر المقدسي بأن الحجاج ضرب بالمنجنيق ذلك الجزء من الكعبة الذي لم يكن قائماً خلال حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو جزء إضافي كان عبد الله بن الزبير قد بناه وسماه (الحطيم) فهو غير مقدس من الناحية الدينية في رأي عبد الملك، وبعد مقتل عبد الله بن الزبير أمر عبد الملك بتهديم كل ما استحدثه ابن الزبير من بناء وأعاد بناء الشكل الأصلي للبنية كما كانت أيام الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وفي أثناء رمي الكعبة ومكة بالمنجنيق حدث رعد وبرق وصواعق وسقطت صاعقة على المنجنيق فأحرقته وقتلت بعض رجال الحجاج فخاف أهل الشام وتوقفوا عن الرمي معتقدين أن الله غضب عليهم لمحاجمتهم الكعبة ولكن الحجاج استطاع أن يقنع جنده أنها مجرد ظاهرة طبيعية وأنها من علامات النصر.

وأخذ أصحاب ابن الزبير يتفرقون عنه تدريجياً وأخيراً القوا السلاح وخرجوا إلى الحجاج يطلبون الأمان وكان أبناء عبد الله بن الزبير حمزة وحبيب فيمن خرج وطلب الأمان من الحجاج، وعندئذ أدرك ابن الزبير أنه مقتول على كل حال. ودخل على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وكانت عجوزاً عمياً وبلغت من السن مائة عام، فقال لها: يا أمه إني أخاف إن يقتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني فقالت: يا بني إن الشاه إذا ذبحت لم تألم السلح، فقال هذارأيي وقبل يديها ورفع درعه حتى لا يقله وخرج يقاتل وحده حتى قتل.

لقد عانى ابن الزبير وأنصاره من حصار الحجاج كثيراً فقد منعت عنهم المواد الغذائية والتجهيزات، فارتفعت الأسعار في مكة ومما زاد الطين بله هو بخل ابن الزبير وتقديره في حين كانت الإمدادات والمواد الغذائية تصل إلى جيش الحجاج بانتظام الأمر الذي حدا بالكثير من أنصار عبد الله بن الزبير أن يتخلوا

عن عبد الله وينضموا إلى جيش الحجاج ومنهم اثنان من أولاد عبد الله بن الزبير.

وبمقتل عبد الله بن الزبير وخضوع الحجاز لعبد الملك بن مروان يكون عبد الملك الخليفة الوحيد والشرعى للمسلمين ولهذا السبب فقد أطلق على عام ٦٩٢هـ / ١٣٥٣م (عام الجماعة).

لقد كان للعوامل الدينيةدور الفعال في تأييد عدد كبير من المسلمين لحركة عبد الله بن الزبير، وقد شعر عبد الله بأهمية هذا العامل فقد حاول تقليد عمر بن الخطاب في حمل الدرة كشعار لخلافته وبث دعاية فيما بين المسلمين من أن عثمان جعله على رأس المدافعين عن داره وقد استغل قدسيّة مكة واتخذها مركزاً لحركته وأطلق على نفسه لقب العائد، وكانت قرابتة من الرسول من جهة أمه وأبيه، واعتقد أهل الحجاز أن أولاد الصحابة أحق من غيرهم بالخلافة من الأمور التي ساعدت على إسباغ الصفة الدينية على نفسه.

واعتقد البعض أن نجاح ابن الزبير سيعيد للحجاز أهميتها السياسية التي فقدتها منذ مقتل عثمان وكان عبد الله بن الزبير بؤرة تجمعت حولها الأحزاب المعارضة للحكم الأموي خاصة بعد مقتل الحسين بن علي.

وقد لعب العامل الاقتصادي دوره الفعال في خلق روح العداء ضد الأمويين منذ عهد معاوية الذي جعل الولايات تساهم في نفقات الدولة واعتبر العطاء لقاء الخدمة في الجيش فحرم بذلك عدداً كبيراً من أهل الحجاز من عطائهم باعتبارهم ورثة لمستلمي العطاء الأولين. يضاف إلى ذلك أن احتكار الأمويين لسوق المواد الغذائية وتحكمهم في أسعارها في المدينة أدى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية في المدينة مقارنة مع أسعارها في المدن الإسلامية الأخرى

مما سبب نفقة الناس ضد الأمويين وقد وجد المتمردون في حركة ابن الزبير وسيلة للتعبير عما يجيش في نفوسهم.

أما عوامل فشل حركة عبد الله بن الزبير فتتلخص في كون عبد الله بن الزبير لم يكن سياسياً بالدرجة التي كان عليها منافسه عبد الملك بن مروان فقد أظهر ضعفاً في مجال الدعاية والإعلام يضاف إلى ذلك بخل عبد الله بن الزبير وعدم رغبته في توزيع الأموال بسخاء لغرض جمع الناس حوله. وفي الوقت الذي كان فيه عبد الملك يظهر الكرم والصفح عن أعدائه كان عبد الله بن الزبير يوزع على أنصاره الصاع أو الصاعين من التمر حتى إذا أظهروا تراخيًا في تنفيذ أوامره خاطبهم قائلاً: أكلتم تمرٍي وعصيتم أمري.

وقد كانت مكة منطقة فقيرة اقتصادياً تعتمد في معيشتها على المناطق الأخرى يضاف إلى ذلك فإن عبد الله بن الزبير لم يردد أخيه مصعباً، في العراق بأية مساعدة بل تركه مستفيداً من مصادره الخاصة والتي سرعان ما استنفدت في حربه ضد الخوارج والمختار بن عبيد التقفي ولذا فلم يعد مصعب قادراً على مقاومة الأمويين، وختاماً فإن ابن الزبير لم يتمكن من استقطاب المعارضة في العراق إلى جانبه بل كان قد استفزهم فنفروا منه وانحازوا إلى خصومه، كما حصل عندما ألقى القبض على ابن الحنفية وهدهد بالقتل إن لم يبايع فاضطر ابن الحنفية أن يستتجد بالمختار كما ذكرنا سابقاً.

القضاء على خطر الخوارج:

أمر عبد الملك بن مروان أمير العراق بشر بن مروان بأن يعهد مهمة الأزارقة إلى المهلب بن أبي صفرة، وقد شق ذلك على بشر بن مروان لأن أسرة المهلب جاءت مباشرةً من أخيه لذا فقد وضع بشر بعض العراقيل في طريق

المهلب ليفشله في مهمته، ولكن ذلك لم يثنى المهلب الذي تمكن من مطاردة الخوارج ولاحقهم حتى الجبال.

وفي سنة ٦٩٣هـ / ٧٤ مات بشر بن مروان فوجه عبد الملك الحجاج ابن يوسف التقى واليا على العراق (٦٩٤هـ - ٧١٣هـ) وقرت بذلك عين المهلب الذي بدأ بالهجوم ضد الأزارقة في عهد الحجاج في ٦٩٤هـ / ٧٥ فانسحب الأزارقة إلى فارس ولحقهم إلى ارجان ثم السردان حتى نواحي سابور واستمرت الحرب سجالاً بين المهلب والأزارقة لمدة سنة في سابور وأضطر الأزارقة على أثرها الانسحاب من فارس إلى كرمان وأستمر المهلب في حرب الخوارج ثمانية عشر شهراً بعد طردتهم من فارس.

وقد أساء الحجاج الظن بالمهلب واعتقد أن المهلب إنما يطيل الحرب ضد الأزارقة ليرحظ لنفسه بالقيادة، ولذا فقد سحب منه إدارة إقليم خراسان وخراجها بعد أن انسحب منها الأزارقة باستثناء جزء صغير من خراسان أعطاه حق جيابتها لسد نفقات جيشه وكان الحجاج يحثه باستمرار على موافصلة الحرب ضد الخوارج دون توقف لكن المهلب كان عند رأيه القاضي بضرورة الثاني في حرب الأزارقة على أمل انتشار الجوع أو المرض فيما بينهم أو وقوع الخلاف في صفوفهم ثم وقع الخلاف بينهم فولوا عبد ربه الكبير وخلعوا قطريا وبایع قطريا منهم عصابة نحو ربعهم أو خمسهم فقاتلهم المهلب نحو من شهر وكتب المهلب إلى الحجاج أن الخوارج انشقوا على أنفسهم وهم يقاتلون بعضهم ببعض غدوة وعشيا وطلب الحجاج من المهلب مناهضة الخوارج على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا فأجابه المهلب: ولست أرى أن أقاتلهم ما داموا يقتل بعضهم ببعض فكف عنه الحجاج وتركهم المهلب يقتلون شهراً لا يحركهم.

وسار قطرى مع أتباعه إلى طبرستان وبaidu عام الخوارج عبد ربه الكبير وحاربهم المهلب حرباً ضرورةً وانتصر عليهم ولم ينج منهم إلا القليل وقتل عبد ربه الكبير والكثير من أصحابه وهكذا أدى المهلب واجبه وعاد إلى البصرة فاستقبل باحتفال عظيم وكوفئ بولاية خراسان.

وفي سنة ٦٩٦هـ / ٧٧ م وجه الحجاج جيشاً بقيادة سفيان بن الأبرد مع جيش من أهل الشام لمحاربة قطرى وكتب الحجاج إلى إسحق بن محمد بن الأشعث وهو على جيش لأهل الكوفة بطبرستان أن يسمع ويطيع سفيان فلحقوا قطرياً في شعب من شعاب طبرستان فقاتلواه ففرق عنه أصحابه وقاتل حتى قتل. وفي الوقت الذي كان المهلب يخوض فيه الحرب ضد الأزارقة في الشرق نهض خوارج آخرون في أول سنة ٦٩٥هـ / ٧٦ م في غرب العراق ينتمون إلى بني شيبان من بكر بدأت حركة والموصى والجزيرة محمد بن مروان ثم تعاون محمد بن مروان مع الحجاج والموصى وأصطدموا بالخوارج في منطقة الموصل حيث اندر الخوارج وقتل قائدتهم صالح في السنة نفسها وقد شبيب بن يزيد الشيباني البقية الباقي من الخوارج وتمكن من القيام بهجوم على جيوش الحجاج فهزمه ثم ذهب شبيب بالخوارج إلى المدائن، وكان هذا أول انتصار حق له شبيب على جند الدولة وببداية لسلسلة من الانتصارات العسكرية على جيوش الحجاج والتي استمرت حتى وفاة شبيب.

وبعد سلسلة الهزائم التي منيت بها جيوش الخلافة، أرسل الحجاج جيشاً بقيادة عثمان بن سعيد الملقب بـ(الجل) لمحاربة شبيب وقد كان جيشه في حالة إنذار دائم ولم تقع حرب بين الطرفين، حتى مل الحجاج ذلك فعزل الجل وعين مكانه سعيد بن المجال الهمدانى وأمره بمحاربة شبيب في أي مكان وزمان يراه فالتقى سعيد بقوات شبيب في براز الروز وانتهت المعركة بانتصار شبيب

وتشتت جيوش سعيد و مقلته و حاول الجزل الذي كان أحد البارزين في الجيش المتشتت جمع شمل البقية الباقيه من الجيش لكنه جرح جراحاً بليغاً مات على أثره في المداين.

وزادت قوة شبيب حتى تمكن من أن يطوق أبواب مدينة الكوفة وكانت أرض جوخى على النهروان والجبال التي تقع إلى شمالها هي الرقعة الجغرافية التي اختارها شبيب مسرحاً لجولاته وقد قرر شبيب الذهاب إلى أذربيجان الجبلية ليريح جنده وليخبط لمواجهة عدوه، وفي أذربيجان الجبلية تمكن من كسب الكثير من المسلمين إلى صفوفه وأصبح من القوة بحيث أنه تقدم في منتصف سنة ٦٩٧هـ / ١٢٧٧ مع جيش كبير إلى الجنوب بغية القيام بهجوم خاطف على الكوفة ونفذ هذا الهجوم وتمكن من إلهاق الهزيمة بالجيش الذي أرسله الحجاج لصدده وأضطرر الحجاج أن يطلب من عبد الملك أن يمدده بالجند الشامي الذي تمكن من ابعاد شبيب عن الكوفة ودفعه إلى جوهرى ثم كرمان وخرج شبيب من هناك واصطدم بجيش الشام عند دجلة في الأحواز ولم يستطع شبيب مواجهة قوة أهل الشام فبدأ بالتراجع عبر نهر دجلة ووقع في الماء وغرق وكان ذلك في نهاية عام ٦٩٧هـ / ١٢٧٧

كان موت شبيب نقطة تحول في حركة الخوارج الصفرية فقد خلفه في قيادة الصفرية (البطين) الذي استمر في قيادة حركة الخوارج ولكن دون الحماس السابق وفي الوقت نفسه استمر الجندي الشامي بمطاردة الخوارج والاشتباك معهم، مما اضطرر الصفرية إلى أن يطلبوا الأمان من الدولة فكان لهم ما أرادوا وهرب البطين ثم الفي عليه القبض وقتل بأمر من الحجاج.

ويبدو أن الحاج كان محافظاً في تفكيره عند حربة لشبيب الخارجي لأنَّه لم يتبني استراتيجية جديدة تقابل تكتيك حرب العصابات فقد أرسل جيشاً كبيراً لمحاربة شبيب الخبير بحرب العصابات.

القضاء على حركة عبد الرحمن بن الأشعث:

كان الحاج بن يوسف التقى قد عهد إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بقيادة جيش من أهل الكوفة لقتال رabil ملك كابل وزابل الذي نقض الصلح مع المسلمين وامتنع عن دفع الجزية، فوصل ابن الأشعث إلى سجستان في سنة ٨٠ هـ، وانضم إليه هناك جيش من طبرستان بقيادة أخيه القاسم والصباح، ويبدو أنَّ أخبار هذا الجيش قد أربعت الملك رabil فأرسل إلى ابن الأشعث محاولاً استرضائه واستعداده لتوقيع معايدة للصلح، إلا أنَّ ابن الأشعث لم يلتقي إلى نداء رabil الذي ظاهر بالانسحاب في محاولة لإغراء جيش المسلمين على التوغل بعيداً داخل بلاده، إلا أنَّ ابن الأشعث كشف خطة Rabil هذا فتوقف عن ملاحقته وشرع بإحكام سيطرته على المناطق التي تقع تحت سيطرته فبدأ بإقامة الحاميات وتنظيم الاتصال بين المدن والحاميات ثم قرر العودة إلى (بست) على أن يستأنف عملياته في الربيع القادم (ربيع ٨١ هـ).

وقد كتب ابن الأشعث إلى الحاج بتفاصيل خطته، إلا أنَّ الأخير أصر على مواصلة القتال وهدد ابن الأشعث بعزله عن القيادة فرفض ابن الأشعث التقيد بأوامر الحاج واستمر بتنفيذ خطته على الرغم من التفاس عن الحرب ومداهنة العدو وبأنه يصنع عدواً قليلاً ذليلاً، ويبدو أنَّ ابن الأشعث كان يعد العدة للخروج على طاعة الحاج وبالتالي عصيان الخليفة عبد الملك بن مروان وهذا ما يفسر إصراره على المضي في خطته ثم تحريض جنده على الثورة والوقف في وجه الخلافة الأموية، ولم يجد ابن الأشعث أية صعوبة في تحقيق

هذا الهدف فقد كان جيشه يضم عدداً كبيراً من الموالي وجماعة من أتباع المختار بن أبي عبد التقى الذين سارعوا إلى إعلان تأييدهم له وإمعاناً في إثارة الجند وحملهم على عصيان أوامر الحاج أظهر ابن الأشعث لأمراء الجند رسالة أدعى أن الحاج وجهها إليه يأمره فيها بعزل عدد من الأمراء وقتل عدد آخر ولكي يؤمن خط الرجعة في حالة اضطراره إلى التراجع وعقد صلحاً مع رتبيل نص على أن يوفر الأخير الحماية للأشعث وأصحابه في بلاده مقابل إعفاءه من الجزية وقبل أن يرحل عن البلاد عين ابن الأشعث ولاة من قبله على المدن المهمة في سجستان مثل بست وزرنج.

وشرع ابن الأشعث في الزحف نحو العراق فلما وصل بلاد فارس أعلن أصحابه خلع عبد الملك بن مروان ومبايعتهم لعبد الرحمن بن الأشعث الذي ضرب الدر衙م باسمه وذكر بعد المؤرخين أنه حاول استمالة المهلب بن أبي صفرة ودعاه إلى الانضمام إليه، إلا أن المهلب رفض ذلك محذراً إياه من خطورة العمل الذي يقدم عليه. ولما وصلت أخبار ابن الأشعث إلى الحاج رحل عن الكوفة إلى البصرة وأرسل إلى عبد الملك طالباً مدة بالجيوش لمواجهة الموقف.

وفي العاشر من ذي الحجة سنة ٨١ هـ حقق ابن الأشعث أول انتصار له على جيش الحاج بالقرب من تستر، فانسحب الحاج على أثر ذلك إلى البصرة ثم تركها إلى الزامية، فأتاح بذلك لابن الأشعث دخولها دون مقاومة تذكر، وبادر بإقامة التحصينات في المدينة، إلا أنه لم يثبت أن انهزم أمام الحاج في نهاية المحرم من السنة المذكورة وأسرع في التوجه نحو الكوفة حيث يمكنه الاعتماد على قبيلته وأنصاره هناك، فاستقبله أهلها بحماس شديد، وفي هذه الأثناء وصلت إلى الحاج إمدادات جديدة من الشام فرحل عن البصرة ونزل في (دير قرة) كما رحل ابن الأشعث عن الكوفة وعسكر في (دير الجماجم) في ربيع الأول من سنة

٨٣—، وحدثت مناوشات بين الطرفين استمرت حوالي شهرين، وأمام تأخر الحاج في حسم الموقف بدأ الخليفة يساوره القلق نحو العراق، فاستقر رأيه على إرسال جيش جديد بقيادة أخيه محمد بن مروان وولده عبد الله بن عبد الملك وفوضهما بعرض شروطه على العراقيين لإنهاe حالة الحرب وحقن الدماء.

وتصمنت تلك الشروط عزل الحاج عن الولاية وزيادة العطاء لأهل العراق ومنح ابن الأشعث الولاية التي يرغب بها في العراق طيلة حياته، وكان موقف الخليفة هذا وقع سيئ في نفس الحاج فحاول إقناعه بالعدول عن هذه الشروط وخوفه من مغبة تمادي أهل العراق في هذه الثورة، إلا أن عبد الملك أصر على تنفيذ ما استقر عليه، على أن ابن الأشعث لم يستطع إقناع أصحابه بقبول شروط الخليفة بسبب العداء الذي كان يكتنه الموالي وأتباع المختار وعموم أهل الكوفة للإدراة الأموية فأرغمه على موافقة القتال الذي امتد إلى مائة يوم واضطر معه ابن الأشعث إلى التراجع نحو البصرة حيث أدركته قوات الحاج في (مسكن) فانهزم هزيمة نكراء في شعبان من سنة ٨٣هـ وفر هارباً إلى سجستان ثم استقر به المطاف عند الملك رنبيل في كابل، عاود بعدها محاربة عمال الحاج في خراسان وغيرها إلا أن هذه المحاولة لم ترده إلا ضعفاً فقد انفصل عنه أصحابه ولم يبق معه إلا عدد يسير فعاد إلى الملك رنبيل وأقام عنده، إلا أن لجوئه إلى رنبيل لم ينقذه من الحاج الذي أرسل إلى رنبيل يطلب منه تسليم ابن الأشعث مقابل إعفائه من دفع الجزية سبع سنوات فوافق الأخير على ذلك في سنة ٨٥هـ.

وتختلف الروايات حول نهاية ابن الأشعث هذا فقد ذهب بعضها إلى القول بأنه قتل على يد الملك رنبيل، وذكر البعض الآخر أنه مات على فراشه، وقيل أيضاً أن الملك رنبيل قيده وسیره إلى الحاج فرمى بنفسه من فوق سطح

وسقط معه الذي كان يحفظه وكان قد سلسل نفسه معه فمات، واجتر رأس ابن الأشعث وأرسل إلى الحجاج وهو بدوره أرسله إلى عبد الملك بن مروان.

التعريب:

تعريب الديوان:

تعتبر الدواوين مظهراً مهماً من مظاهر التنظيم الإداري للدولة العربية، وكانت دمشق مركزاً لعدد من هذه الدواوين التي تشرف على إدارة الدولة العربية في العصر الأموي.

والديوان هو السجل الذي يبين واردات الدولة ومصروفاتها المالية وأصبح فيما بعد يعني المؤسسة التي يعمل فيها أصحاب الوظائف المالية، ثم أصبح يعني المؤسسة التي تدير الدولة العربية الإسلامية سواء كانت الإدارة العسكرية أو مدنية. واحتذت الأقاليم الإسلامية بالعاصمة دمشق فأوجدت لها الدواوين التي تدير أمورها المختلفة.

وفي البداية احتفظ العرب بالكتاب والموظفين السريان والفرس إذ كان هؤلاء يديرون مثل هذه الدواوين قبل الإسلام، ولم يكن العرب متفرغين لمثل هذه الأعمال لانشغالهم بالفتح ونشر الإسلام، وكانت الفتوحات قد شملت الكثير من أراضي البيزنطيين والساسانيين وقد خضعت شعوب هاتين الإمبراطوريتين لنظامها، فوجد العرب أن من الأنسب الاحتفاظ بتلك التنظيمات واستخدام سكان هذه المناطق أصحاب الخبرة في الإدارة العربية الإسلامية.

ويبدو أن تأثير الفئران الأجنبية كان واضحاً من بقاء دواوين الشام والعراق على ما كانت عليه قبل الإسلام، فقد كان ديوان الخراج في العراق مكتوباً بالفارسية وديوان الشام باليونانية. واستمر إلى أيام عبد الملك بن مروان

الذى أمر بنقل الدواوين إلى العربية. ففي سنة ٧٧٠ هـ / ١٤٨١ م أمر عبد الملك سليمان بن سعد التقى بنقل دواوين الشام إلى اللغة العربية، وفي العراق في عصر الحاج قام صالح بن عبد الرحمن بتحويل الحساب إلى العربية.

هناك مجموعة من الأسباب أدت إلى تعريب الدواوين إلى العربية، فبعد أن أعاد عبد الملك وحدة الدولة العربية وتتوفر له عامل الاستقرار والكادر الفنى القادر على تحمل أعباء مسؤولية التعريب رأى من الضروري أن تستكمل الدولة العربية استقلالها وتتحرر من التأثير الأجنبى فأقدم على تعريب الدواوين والنقود، ومن الراجح أن يكون الخليفة عبد الملك أراد أن يشرف على مصروفات الدولة ووارداتها بصورة مباشرة وهذا لا يتم إلا بتعريب السجلات، يضاف إلى ذلك أن عبد الملك أراد أن تكون العربية لغة الدين والعلم والسياسة.

وظل الموالى يعملون في بعض الدواوين، فعلى سبيل المثال كان عبد الله ابن عمر بن الحارث مولى بن عامر بن لؤي على بيوت الأموال والخزائن والرفيق في عهد سليمان بن عبد الملك وكان أسامة بن زيد مولى أهل اليمن على الخراج والجند والرسائل أيام يزيد بن عبد الملك وعلى ديوان الخاتم والخزائن وببيوت الأموال مولاً مطيراً.

وكان من نتائج التعريب شيوع العربية وانتشارها بين الموالى وأصبحت العربية لغة الإداره والتقارير إلى كونها لغة السياسة والدين.

الإصلاح النقدي:

استعمل العرب قبل الإسلام في تعاملهم الدينار اليونانية والدراجون الفارسية، وكان الدينار اليوناني مسكوكاً من الذهب والدراجون الفارسي مسكوكاً من الفضة.

ولما ظهر الإسلام أقرّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) الدرّاهم والدّنانير على ما كانت عليه وهذا حزوه الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ولما تولى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الخلافة، رأى أن الدرّاهم المستعملة مختلفة الأوزان، منها البفلس وهو ثمانى دوانيق واليمني يساوي دانقاً فقال: انظروا الأغلب مما يتعامل به الناس من أعلىها وأدنىها فكان الدرّهم البفلي والطبرى فجمع بينهما فكان اثنى عشر دانقاً فأخذ نصفها فكان ستة دوانيق، فجعل الدرّهم الإسلامي في ستة دوانيق.

وتتفق المصادر على أن أول من ضرب الدّنانير والدرّاهم العربية الإسلامية هو عبد الملك بن مروان، فبعد أن استقرت الدولة العربية الإسلامية بدأ يفكّر في ضرب الدرّاهم والدّنانير وهو بذلك أول من استحدث ضربها في الإسلام فانتفع الناس بذلك وكان ذلك كما يقول البلاذري في سنة ٧٤هـ وعلى هذه الأساس تؤكّد المصادر بأن هناك من الأسباب الموجبة التي دفعت عبد الملك إلى تعريب النقود وسكّها. إضافة إلى التأثيرات القومية والدافع الدينية التي أدت إلى ضرورة سكّ عملة جديدة، ذهبية وفضية إسلامية ومنع التعامل بالنقود الفارسية واليونانية وفعلاً حذر الناس من التعامل بها ولم يكتف عبد الملك بذلك بل أحضر العملات الأجنبية وسحبها إلى دور الضرب لإعادة سكّها من جديد طبقاً للشكل العربي الإسلامي الجديد وصارت العملة موحدة في جميع أنحاء البلاد العربية الإسلامية وبذلك العمل الجبار حق للدولة استقلالية اقتصادية عظيمة، ويمكن إرجاع الأسباب والدافع إلى ما يلي:

- ١- كان عبد الملك بن مروان قد صالح ملك الروم على دفع جزية له قدرها ألف دينار في كل جمعة ليتفرغ لحل مشاكله الداخلية مع ابن الزبير فلما انتهى من ذلك امتنع عن دفعه الجزية، فنشبت الحرب بين الخليفة وبين ملك

الروم، وبذلك احتاج عبد الملك إلى ضرب سكة مستقلة جديدة من الدنانير اليونانية المتعاملة في ذلك الحين.

-٢ و هناك سبب آخر وهو أن الكتب (الصفائح) التي كان يوجهها عبد الملك إلى ملك الروم معنونة بالآيات القرآنية في صدرها مثل (قل هو الله أحد) وفيها ذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) فرد عليه ملك الروم متوعداً قائلاً له "أنكم أحدثتم كذا وكذا .. فاتركوه وإلا أتاكם من دنانير من ذكر ما نكرهون" فعظم ذلك على الخليفة فأحضر خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فاستشاره فقال له: "حرم دنانيرهم واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى" فضرب الدنانير والدرارهم.

-٣ وعلى ذكر مخافة الله تأكيد الدوافع الدينية التي كانت من الأسباب التي دعت الخليفة عبد الملك إلى ضرب الدرارهم والدنانير الإسلامية أنه قيل له يوماً: "يا أمير المؤمنين إن العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنهم يجدون في كتبهم أن أطوال الخلفاء عمراً من قدس الله تعالى في درهمه" فعزم عبد الملك على طبع السكة العربية الإسلامية.

-٤ تؤكد المصادر العربية بأن العملة المتعامل بها في العراق ولحين عهد الخليفة عبد الملك بن مروان كانت عليها رسوم كسرى وليس فقط في العراق بل في المشرق كله وكذلك اسم كسرى مكتوب باللغة الفارسية، وأما في الشام مقر الخلافة كان يتعامل بدرارهم ودنانير عليها تاريخ قبل الإسلام بمئات السنين (أربع مائة عام) مكتوب عليها اسم الأب والابن وروح القدس ولما كان الخليفة عبد الملك بن مروان معروف عليه أنه من طبقة سعيد بن المسيب وكذلك لسياسته العربية فأمر بسکها من جديد ونقش عليها اسم الله تعالى وأيات قرآنية واسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يكتف بهذا فحسب،

فحسب، بل أمر منادياً ينادي بأمر من الخليفة أنه بعد ثلاثة أيام من تاريخ سك النقود العربية وضربها ألا يبتاع أحد بالدينار اليوناني وبذلك بطل التعامي بالنقود اليونانية وحل محلها الدنانير العربية.

إن هذا العمل الجبار لعبد الملك بن مروان أدى إلى تحرير الاقتصاد العربي من تبعية النقود الفارسية واليونانية وإيدالها بنقود عربية إسلامية مصنوعة محلياً وأنه ألغى بذلك التعامل بالنقود الكسرورية والرومية، فكان أول من نسخ الدراهم والدنانير الإسلامية وكان عمله ذلك محرر الاستقلال الاقتصادي للدولة العربية في توحيدها واستقرارها وتقدمها.

الفصل الرابع

حركة التحرير والفتواحات
العربية الإسلامية في
العصر الأموي

لم تصل حروب التحرير العربية الإسلامية في العهد الراشدي إلى حدود ثابتة، فقد كانت هناك منازعات وعلاقات حربية على الحدود في مختلف الجهات، وتعرضت أراضي الدولة في العصر الأموي للاعتداءات الأجنبية (كالبيزنطيين مثلاً) وتمردت بعض الأجزاء في أثناء الخلافات والحروب الأهلية وكان بعض الخلفاء يتعرضون لحركات تمرد داخلية وتهديد خارجي في نفس الوقت فاضطروا إلى شراء من حدودهم الخارجية للتفرغ لتحقيق الأمان الداخلي.

وكان لابد للدولة العربية الأموية أن تخوض حرباً مع جيرانها في أكثر الميادين التي انتهت إليها حركة التحرير والفتح العربية، وكان الوقت المناسب لفتح والتحرير في العصر الأموي هو السنتين الأخيرة من عهد عبد الملك وعهد ابنه الوليد وقت تمت في هذا العهد فتوحات رائعة فقد اقتحمت جيوش العرب أرجاء العالم وكانت ظافرة أينما حلت ثم توافت هذه الفتوحات فيما بعد أو حققت انتصارات محدودة، ولم تستطع الدولة العباسية أن توسع الفتوحات بل لم تستطع أن تفرض سلطتها حتى على حدود الدولة العربية الأموية بعد سقوطها، ولم يؤثر هذا الأمر على توقف الإسلام فقد واصل الإسلام انتشاره بطريق المسلمين المنطوعين والتجار فوصل قلب أفريقيا، والملايو وأندونيسيا وقد شملت حركة التحرير والفتح العربية في العصر الأموي الميادين الآتية:

الجبهة الشرقية:

فتح بلاد ما وراء النهر:

لقد مد المسلمون فتوحاتهم إلى ما وراء النهر الواقع شمال حدود خرسان المعروف بجيحون وقد يمتد أقصى حدودها إلى بلاد ما وراء النهر ولكنها وإن كان النهر يقع إلى جنوبها وببلاد خوارزم إلى غربها إلا أن حدودها في الشرق والشمال لم تكن واضحة، ففي الشرق قد تدخل فيها بعد بلاد الصين

وفي الشمال كانت تمتد إلى النهر المشهور في حدود بلاد الترك باسم سيحون وقد يم سيرداريا.

وقد كان يسكن هذه البلاد خليط من الشعوب الآسيوية أغلبهم من الفرس، الذين انتشروا في جميع أجزائها وكان يحكمونها عن طريق المرازبة وواحدتها مرزبان أي صاحب الثغر وهو المزر، إذ كانت للفرس منطقة ثغور وقد كان نظامهم لا يمد بعضهم بعضاً أثناء الحرب إلا بأذن من الملك، ولكنها بلاد صله لوقوعها في وسط آسيا، فإنها كانت معبراً للشعوب الآسيوية منذ قديم الزمان مثل الشعب المغولي الذي عرف للعرب بالهياطلة وللأوريبيين بالهون، وللصينيين بالهيونغ-تو فهؤلاء خالطوا أهل بلاد ما وراء النهر وحاكموهم أثناء تحركاتهم في الشرق إلى الغرب حوالي القرن الخامس الميلادي بحيث أن هبط أيضاً اسماء بلاد ما وراء النهر كذلك الترك وهم عنصر مغولي آخر كانوا يحيطون ببلاد ما وراء النهر من الشمال على الخصوص وتمكنوا من حكم بعض أجزائها قبل الفتح العربي، كما طمع الصينيون فيها وسعوا إلى السيطرة عليها.

وكانت تكونت في بلاد ما وراء النهر ممالك مستقلة غير واضحة التاريخ أو الحدود، بعضها يشمل أقاليم واسعة أو مدنًا مفردة أهمها في أعلى النهر - مملكة طخارستان - وهي بلاد واسعة تقع على ضفتي نهر جيحون تنقسم إلى طخارستان العليا والسفلى تشمل على قاعدتها بلخ، حيث يسمى جيحون بها، فيعرف أيضاً بنهر بلخ وعلى طالقان أكبر مدنهما وقد كان يسكنها شعب عرف بالطخارية وللصينيين بيوتشى كما أنه غزاهم أيام الفرس الهياطلة وإن لم يقضوا على مقوماتهم بدليل بقاء اسم طخارستان حتى وقت الفتح العربي كذلك كانت هذه البلاد شديدة الصلة باليونان و هذه البلاد حكمتها أسره قبل الإسلام لعلها من أصل تركي عرف ملوكها بلقب جيفوية وإن كان يبدو أن سيطرتها على بلخ وطالقان كانت إسمية وأنها انكمشت في جزء صغير منها أما مملكة الختل أو

ختلان وهي أول بلاد ما وراء النهر خلف جيحون على تخوم السند يقال لقصبتها هليك، التي تقع على نهر اخش أحد أفرع جيحون ومملكة صفانيان إقليم عظيم من وراء النهر يجري إليه عدة أفرع من جيحون وأهم مدنها شومان التي قد تكون مستقلة عنها كما وجدت مدينة أخرى بجوارها من الشرق اسمها آخرون أو اجرون لا يذكرها الجغرافيون وكان لقب ملك صفانيان هو (صفان خذاه).

وممالك في وسط ما وراء النهر، وخاصة مملكة الصفد ويقال السعد وهي بلاد عريضة تمتد من جيحون إلى سيحون تحيط بنهر الصفد المسمى أيضا زرفشان داخل بلاد ما وراء النهر عبارة عن قرى ومدن متصلة بحيث اعتبرها العرب من جنوب الأرض وأكثرها عمارة وفضلت على غوطة دمشق، ويظهر أن هذه المملكة اختصت بشخصية معينة منذ القدم فقد كانت لها حضارة متميزة باللغة استمرت عدة قرون في وسط آسيا كما أن أهلها مجوس لهم شهور وتقويم مثل الذي عرف عند الفرس أهمها سمرقند وهي قصبة الصفد، وبخارى (بخارا) مدينة قديمة أيضا، من أشهر مدن صفد بحيث قيل الصفد صفادن صفد سمرقند وصفد بخارى وكان ملكها يتلقب خذاه أو بخارا خذاه ويسك العملة، ومدن أخرى أصغر مثل كش وكانت ملك سمرقند ونسف أو نخشب وهي مدينة كبرى بين بخارى وسمرقند وبها حصن عتيق (فهندر) مما يدل على استقلالها وبيكند وهي من مدن بخارى.

والمملكة في أدنى النهر أو دلتاه تعرف باسم خوارزم وهي ناحية عامرة استنارت منذ أن غزاها الإسكندر عاصمتها القديمة قيل أو فير، ثم نقلت إلى كركابج، التي عرفت للعرب بالجرجانية وهي بلاد أغلب سكانها من الفرس المجوس وبعض النصارى ولهم خط تمييز يعرف بالخط الخوارزمي وفي اطرافها يسكنها قوم من الترك، وقد حكمتها أسرة قديمة من نسل الأكاسرة استمرت وقتا طويلا إلى زمن الفتح العربي وكان ملوكها يلقبون بالشاه ويبدو أن

هذه المملكة كانت في حرب مستمرة مع الترك المجاورين لهم، كما أنها كانت قد خضعت قديماً إما للفرس أو للصفد.

وممالك أخرى سيحونية على ضفاف نهر سيحون، منها مملكة فرغانة، وهي إقليم جبلي واسع، تقع في أعلى سيحون وعلى ضفته وأهم مدنه اخسبك عاصمتها القديمة ثم كاشان التي كان يقيم بها ملوكها كما أن ضجنه اعتبرت من جملتها ومتاخمة لها، وكان الفرس يسيطران عليها فنسب إلى الملك أنو شروان بناء اخسبك ولكن الترك الخلقية سيطروا على دهاقنها وكان ملوكها منهم يتلقبون بالأخشيد وأن فرغانة قبل الفتح العربي أصبحت من إمبراطورية دولة الصين وإن بقي الترك يحكمون في كاشان ومملكة أشروسن تقع شرق فرغانة وأنها كانت في طريق فرغانة وأن الهياطلة غرتها، وملوكها يتلقبون بأفشين وأخيراً مملكة الشاش التي تقع وراء سيحون شمالي أشروسن يخترقها نهر عرف باسمها وهي إقليم سهلي متاخم لبلاد الترك قصبتها بنكث وقيل أن قاعدتها الطاربند، وكان يحكم الشاش الترك أو الصينيون قبل الفتح العربي.

وقد كان على العرب إذا أرادوا أن يتسعوا في هذه البلاد وأن يعملوا ألف حساب لجيرانها الأقوياء الذين كانوا يتنافسون في السيطرة عليها فمن وراء هذه البلاد وحواليها من مشارق خراسان من مملكة الإسلام إلى غرب الصين وشمال الهند كان يوجد الترك أو الأتراك وهي كلمة تعني الأقوياء ويبدو أن الترك من أصل مغولي أو من الهياطلة على الخصوص ظهروا فجأة حوالي القرن السادس الميلادي كونوا إمبراطورية بدوية واسعة بسبب ضعف عناصر السيطرة عليهم من الشعوب المغولية الأخرى أو الصينيين وقد امتدت إمبراطوريتهم من حدود الصين إلى البحر الأسود وعرفت بالتركستان أي ناحية بلاد الترك، ولقلها أسست حوالي ٥٧٦م، على يد شخص يسميه العرب

سن جابو خاقان ولما أصبح الترك سادة كانوا يهاجمون شمال الصين كما كان يفعل غيرهم من القبائل المغولية.

ولكن هذه الإمبراطورية سرعان ما انقسمت إلى قسمين حوالي عام ٥٨١ م، أحدهما غربي في وسط آسيا والآخر شرقي بجوار الصين في منغولية وكان الصينيون يعملون على تقوية العداء بينهما للاحتفاظ بنفوذهم والحد من خطرهم بل أنهم أخضعوا قسماً كبيراً منهم وخاصة الترك الشرقيين ولكن الترك الغربيين بقوا متمتعين بسيادتهم بعيداً عن نفوذ الصينيين كما أنهم على يد ملك يسميه العرب توج كانوا يحاربون الإيرانيين في بلاد ما وراء النهر وأن بلاد الترك سميت باسمه (نوران) وقد أصبح النزاع بين الفرس والترك في هذه البلاد تقليدياً، ولكن انشغال الفرس بحروبهم مع البيزنطيين منعهم من الالتفات إلى ترك بلاد ما وراء النهر، مما سهل إقامتهم.

وكان الترك يعيشون في قبائل عديدة، مثل - القرغز والخرلخية والكيماك وخرخيز والطخطاخ والجنراك وإن بعضهم كان يعيش في الشرق قرب سور الصين والبعض في الغرب في وسط آسيا وبسبب طبيعة بلاد الترك الصحراوية الجبلية كان أغلبهم من الرعاة الذين يتبعون الكلأ وينزلون الخيام.

وكان يسيطر على جميع الترك بما فيهم ترك ما وراء النهر ملك يسمى (الخافان) أي ملك الترك، وأن خاقان لقب خاص بالترك المجاورين للصينيين وإن خاقان كان يعيش في قصر عظيم في مدينة حصينة حولها قرى وأقسام إدارية وقد كان له شعار عبارة عن علم تزيينه تسع خصلات من شعر ذنب الخيل كذلك كان لمملكته قانون ينظمها يعرف باسم (ياسه) وله البريد.

كذلك كانت الصين أو الصين الأقصى دولة كبرى في آسيا عبارة عن بلاد شاسعة فيها منذ قديم الزمان حضارة متميزة بسبب خصب تربتها وأن فيها

نهر يسمى النهر الأصفر وقد عرفت الصين أسرأً متعددة كانت تحكمها منذ القدم، مثل شانغ حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وابن في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ولكن في القرن السابع قبل الميلاد انقسمت الصين إلى قطائع نتيجة لضعف السلطة المركزية ولو جود قبائل الهون المغولية (الهياطلة) التي يسميها الصينيون الهيونغ نو وكان تحوم حولها.

إن العرب منذ استقرارهم في خراسان كانوا قد قرعوا أبواب بلاد ما وراء النهر، ولكن لم تكن هناك خطة لفتحها في عهد الخلفاء الأوائل ذلك لأن خراسان نفسها كانت ملتئمة إلى أن قتل يزدجرد في عهد الخليفة عثمان بن عفان عام ٦٥١هـ ثم بعد ذلك اضطررت طاعتها بعد وقوع الفتنة الأولى وأن الترك انتهزوا هذه الفتنة لمحاجمة خراسان.

ولما استقرت الأمور في عهد معاوية نجد أن العرب بدأوا يستطلعونها عن طريق إرسال السرايا والبعوث كما فعلوا في معظم فتوحاتهم ولكي يمهدوا لفتحها اتخذوا مرو قاعدة للفتح في خراسان مقابلة لبلاد ما وراء النهر وهي التي كانت تعرف أيضاً بمرو الشاهجان أو مرو العظمى، بحيث كانت تعرف أشبه بالثغر فأنزلوها جنودهم منذ سنة ٤٥هـ/٦٦٥م وكان أول من عبر النهر عبيد الله بن زياد في سنة ٥٤هـ/٧٧٤م، ومن بعده سعيد بن عثمان في سنة ٥٥هـ/٦٧٥م.

وقد عين عبد الملك بن مروان، الحاج بن يوسف حاكماً عاماً للشرق الذي يضم العراق وفارس، وتمكن القائد المهلب بن أبي صفرة بعد قصائه على الخوارج من التفرغ لإمارة خراسان التي عين حاكماً، والواقعة عند الحدود الشمالية الشرقية للدولة العربية الإسلامية ولم تكن غزوات المهلب في أراضي ما وراء النهر العرب من تثبيت سلطاتهم بصورة منتظمة في هذه المناطق، ولذا بقي

الأمراء المطهرون السابقون في مدنهم على أن يدفعوا الجزية إلى العرب لكن هيبة العرب ما لبثت أن عادت على أي حال إلى المنطقة وراح الحاج يولي اهتمامه بعد ذلك إلى رتبيل ملك كابل التي فتحها العرب ثم ما لبثوا أن أخرجوا منها.

وقرر الحاج أن ينظم حملة جديدة وقوية ليضمن بها النصر، ولذا فقد جهز جيشاً قوامه عشرون ألفاً نصفهم من الكوفة والنصف الآخر من البصرة وعهد بقيادته إلى عبد الرحمن بن الأشعث أحد كبار زعماء الكوفة وتقدم الجيش إلى سجستان وقد أنفق الحاج أموالاً كثيرة في إعداده لهذا الجيش فدخل عبد الرحمن بهذا الجيش إلى أراضي كابول دون أن تقع معركة فاصلة.

أخذ عبد الملك قبل عام من وفاته البيعة من الناس لابنه الوليد ليخلفه في الحكم، وأقر أن يكون ولده الثاني سليمان خليفة بعد الوليد وقد توفي عبد الملك بن مروان في السنة ٨٦هـ / ٧٠٥م وكان في الستين من عمره.

إن سياسة فتح بلاد ما وراء النهر لم تنظم إلا في عهد الوليد بن عبد الملك فقد أرسل الحاج بدل المفضل بن مهلب، قتيبة بن مسلم الباهلي وتولى قتيبة بن مسلم قيادة جيش المشرق وولاية خراسان سنة ٨٦هـ / ٧٠٤م وكان قد تدرّب على الإدارة وقيادة القطاعات العسكرية خلال ولايته للري وكان فتنى يحرق شوقاً للجهاد في سبيل الله وإعلاء شأن العرب والإسلام.

وفي سنة ٨٦هـ / ٧٠٤م تقدم قتيبة بن مسلم الباهلي من مرو باتجاه الشرق مع أعلى نهر جيحون في ولاية طخارستان وهي التي تشكل شمال أفغانستان الحالية ماراً بمدن اندخوي وبلغ دخولهم حتى استقر في الطالقان وبعد وصوله إلى الطالقان بقليل وصلها جيش بلخ ودهاقينها لمساعدة في عبور النهر،

وبعد أن تجمع جيشه بكماله عبر جيحون فتلقاه ملك الصاغينان بالهدايا والترحاب وكان هناك مراسلات بين قتيبة وهذا الحاكم جعلته يدخل الصاغينان بدون قتال.

إن ملوك آخرون وشومان (القسم الأوسط من طاجكستان) كانوا في عداء مع ملك الصاغينان ويهاجمه باستمرار وعندما تقدم قتيبة بن مسلم نحو آخرون وشومان انضم إلى جيشه الملك نيش ملك الصاغينان انتقاماً من ملك شومان عدوه، فاضطر حاكم آخرون وشومان إلى الاستسلام وقبول الصلح بشروط قتيبة.

وبعد ذلك عاد قتيبة مع قسم من قطعاته إلى مرو ولكنه سلك طريقاً غريباً إذ لم يتبع طريق ترمذ-مرو أو طريق زم-مرو بل سار مع جيحون شمالاً إلى الغرب من بخارى وهي هدفه القادم وعبر جيحون من آمل (جهازجوي) وأفرز قسماً من جيشه بقيادة أخيه صالح بن مسلم للتقدم باتجاه شمالي شرقي نحو فرغانة، ويبدو أنه كان يهدف من حركاته هذه إلى جمع المعلومات عن المناطق الحركات القادمة وحالة الطرق ومحاولة فتح القسم الشرقي من بلاد ما وراء النهر وإدخالهم في حضيرة الإسلام لحصر مناطق بخارى من الشرق عند هجومه عليها في السنة القادمة من الغرب والجنوب، وكذلك لغرض القيام بعملية استعراض للقوة بشكل واضح لتدمير معنويات محاربي جيوش ما وراء النهر، وقد استطاع صالح بن مسلم فتح أخشيك (وهي فرغانة القديمة) ومدينى كاسان وأورشت من مملكة فرغانة وكان نصر بن سيار يرافق صالح بن مسلم في هذا الفتح.

فتح بيكند:

إن خطة قتيبة بن مسلم كانت الشروع بالحركات العسكرية في الربع والعودة قبل حلول الشتاء إلى مرو، لكي يتجنب قطاعاته الشتاء القاسي فيما وراء

النهر ولكي يعد العدة لحملة جديدة وإراحة قطاعاته والقيام بعملية إعادة التنظيم.

وكان مدينة بيكند تقع على مسافة أربعين كيلو مترا إلى الجنوب الغربي من بخارى على نهر زرفشان وعلى الطريق التجارى المهم الذى يربط بخارى بمرو عبر مدينة آمل على جيحون.

وكانت من أهم المدن المدن التجارية بين الصين وبحر الخزر وخراسان علاوة على أنها منطقة زراعية إذ تقع في سهل بخارى الغنى ب المياه نهر زرفشان (ناشر الذهب) وكانت المدينة محاطة بأسوار ضخمة ومحمية بقو . كبيرة لذلك سميت (المدينة ذات النطاق النحاسي) لكثرة الدروع وأسلحة الحرس على الأسوار.

تقدم قتيبة بقواته العربية معززة بقطعات المسلمين من خراسان وطخارستان والصاغنيان وكان فيهم نيزك طرخان حاكم باذغيس وحاكم بلخ وملك الصاغنيان وكان التقدم يجري على طريق مرو - زم فعبر نهر جيحون من زم واتجه باتجاه شمالي غربي من جيحون قاصداً بيكند، وقد استعدت حامية بيكند للحصار بينما استجد حاكم بخارى فجمع كل محاربي الصفد من دولته من الدول المجاورة له من الشاش وasher وسنة وغيرها.

حاول قتيبة اقتحام الأسوار ونظرأً لتوقف العدو ومعرفة البحاريين أراضيهم وطبيعتها فقد تمكنا مع حلفائهم الأتراك وقطعات الدول التي انجدتهم من تطويق الجيش العربي الذي كان يحاصر بيكند فقطعت كافة خطوط مواصلاته وبات في ضيق شديد وانقطعت أخباره عن الحجاج في الكوفة.

وحاول البحاريون (الصفد) حمل قتيبة على التراجع بعد هجمات شديدة مستغلين تفوقهم الكبير بالعدد فلم يفلحوا بذلك ثم انطلقوا يذيعون الشائعات عن موت الحجاج فلم يجدهم ذلك كله فتياً لقاء ما كان عليه قتيبة من شجاعة خارقة

وإقدام واشتراك الفريقان في قتال انتهى بهزيمة الترك، ففر فريق منهم وقد ملئ رعباً في حين لاذ آخر بمدينة بيكند الحصينة.

وحاول قتيبة دك أسوار المدينة لفتح ثغرات في أسفل الأسوار إلا أن حامية المدينة طلبت الصلح فوافق قتيبة بعد أن حاصرها خمسين يوماً، وعين لها حاكماً من قطعاته وهو ورقة بن نصر، وعاد منسحاً إلى مرو وما أن ابتعد عن بيكند (٥) فراسخ (أي ٣٠ كيلو متراً) حتى علم بتمرد بيكند واستشهاد ورقة بن نصر فاستدار نحو بيكند فحاصر المدينة التي حاولت الصلح فرفضه قتيبة وأصر على مهاجمتها فباشر بثقب أسوارها بفتح ثغرات فيه بواسطة المنجنيق حتى هدم أسوارها واقتسمها وأباد حاميها.

وكانت حامية بيكند مدججة بالسلاح وفيها مخازن ومستودعات كبيرة للأسلحة لهذا قرر قتيبة مصادرة الأسلحة لتسلیح قطاعات جديدة في بيكند وكان فتح بيكند سنة ١٤٨٧هـ / ١٩٠٦م.

وبعد التجربة التي خاضها قتيبة بن مسلم في فتح بيكند، ونظرًا لتفوق الصدف وخلفائهم من الأتراك والأشروسين لذاك فإنه اتخذ قرارين مهمين في سير الحركات العسكرية وهما: أن يتقدم ببطء وحذر وأن يعزل بخارى وذلك باحتلال كل المدن والمواقع العسكرية المهمة المحيطة بها، لكي تلاقي مصيرها لوحدها مستقبلاً عندما يهاجمها.

وفي عام ١٤٨٨هـ / ١٩٠٦م تقدم الجيش العربي من مرو التي عاد إليها بعد فتح بيكند لقضاء الشتاء وعبر اموداريا (جيون) من زم ففتح نومشك وكرمينية وها إلى الشرق من بخارى ثم تقدم إلى رامتنه الكائنة شمال بخارى فاستسلمت دونما قتال وقبل الصلح فعاد الجيش العربي منسحاً من رامتنه.

وكان أمير الصند في بخارى قد استجدى بحكام الدول الشرقية من الأتراك والفرغانيين والاشروسين والإيغوريين الصينيين فتقدم جيش عظيم من هؤلاء الحلفاء فحصل جيش الحلفاء على التماس بمؤخرة الجيش العربي وكان على السافة (مؤخرة المؤخرة) عبد الرحمن بن مسلم شقيق قتيبة وكاد العدو أن يتغلب على المؤخرة التي كان يقودها عبد الرحمن بن مسلم، إلا أن ظهور قتيبة بنفسه في ميدان المعركة قد رفع من معنويات جيشه ودارت معركة طاحنة أبلى فيها قتيبة وكل جندي عربي ومسلم بلاء حسناً فتمكنوا من توجيه طعنات مميتة وطعنات ساحقة لجيش الحلفاء فتراجعوا قلوبهم مذعورة نحو الشرق وبعد أن أعاد قتيبة تنظيم قطاعاته استمر في انسحابه نحو مرو.

ويذكر أن قتيبة بن مسلم استعمل الحيلة والمفاوضات لتفريق خصومه فقد أرسل حيان النبطي لمقابلة طرخون ملك الصند، بما فيها بخارى. موضحا له بأنه إذ اندر المسلمون وانسحبوا فإن حلفاء من الأتراك والشاش والتركمان الصينية بقيادة كور مغانون ابن أخت ملك الصين سوف يخلعونه من العرش وسيسيطرون على بلاده، ومن الأسلم له أن يعقد صلحا مع قتيبة بحجة أن إمدادات كبيرة قد وصلت لقتيبة وأنه لا طاقة له بهم وأنه قرر الانسحاب فسوف ينسحب الآخرون وهذا ما تم فعلاً إذ انسحب ملك الصند وبasher الآخرون بالانسحاب تباعاً.

فتح بخارى:

في سنة ٨٩ھـ / ٧٠٧م، كان قتيبة قد عزل بخارى بعد أن أخضع في السنة الماضية المناطق المحيطة بها، فاستلم وصايا الحركات من الحاج بن يوسف التقفي، قائد الجبهة الشرقية ووالى العراق بالتقدم نحو وردان الكائنة إلى الشمال من بخارى.

فتقديم قتيبة بجيشه نحو وردان، إلا أن التغيير العام الذي أعلنه حاكم بخارى وجموع الحلفاء الصدفيين وغيرهم قد تجمعوا المصده في خرقانه السفلى على يمين وردان ومع ذلك فبعد قتال شديد دام يومين وليلتين تمكّن الجيش العربي من دحرهم، إلا أنه لم يتمكن من التغلب على وردان خداه (ملك بخارى) الذي تحصن في مدينة وردان. فعاد منسحاً إلى مرو لإعادة التنظيم ويبدو أن كثرة الخسائر والإنهاك الذي أصاب الجيش في المعارك التي خاضها ضد الصدف وحلفائهم في خرقانه السفلى هي التي منعه من تحطيم وردان.

ويبدو أن الحجاج بن يوسف التقفي القائد العام للجبهة الشرقية في الكوفة قد أزعجه نباء انسحاب جيش المشرق دون السيطرة على وردان، فطلب مزيداً من المعلومات من قتيبة مع خريطة لميدان الحركات وقد استلم قتيبة جواباً لرسالته وفيها وصايا الحركات الجديدة من الحجاج وأن ينصح بأن تبدأ بتطهير منطقة كش (كش بكش) حيث تقع كش إلى الشرق من مدينة نسف ثم مهاجمة مدينة نسف ثم هاجم مدينة وردان وانتبه وخذ الحذر ضد التطويق وأسرع نحو أهدافك بخط مستقيم وتجنب منعطفات الطرف.

تقديم قتيبة بجشه عام ٩٠٧هـ فتمكن من تطويق بخارى ووردان إلا أن جموع الصدف وحلفائهم التي قد تجمعت في ميدان المعركة لنجدته بخارى حسب استغاثة وردان خداه (الملك وردان) قد شجعت حامية بخارى على الخروج من الطوق، فدار أعنف قتال شهدته المعركة بين الجيش العربي وحلفاء بخارى، وحاول قتيبة دحر الحلفاء بهجمات متتالية دونما طائل، وقرر أن يقدم الفرقة الأزدية (قبيلة الأزد اليمانية) فقاتلت الفرقة الأزدية قتالاً ضارياً بهجمات متتالية إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها فأوزع قتيبة لفرقة الأزدية لمواصلة القتال ريثما دفع بكتائب الخيالة العربية بحركة أحاطه من الجانبين (حركة ك마شة) فأثرت الإحاطة الراكبة هذه على الموقف فتراجع الحلفاء إلى مرتفع عبر نهر زرفشان.

ثم أوعز قتيبة إلى الفرقة التميمية (قبيلة بنى تميم) بالتقدم وعبر النهر وتأسس راس جسر وإزاحة المقاومة الصسفية على التل فتقدم قائد الفرقة وكيع ابن حسان بن قيس التميمي، وتمكنـت الفرقة من دفع العدو إلى ما وراء النهر ثم أمر وكيع ببنصب جسر من خشب على الزرفشان فعبر العرب النهر فدارت معركة عنيفة صمد فيها الصسفيون والأتراك وإلازالة المقاومة طلب قائد الفرقة من هريم بن أبي طلحة قائد الخيالة القيام بحركة إحاطة للموقع ريثما يتهيأ له مهاجمته سن الجبهة بغية إشغال العدو وجلب انتباـهـهـ لـحـرـكـةـ الإـحـاطـةـ والتـطـوـيقـ فـدارـ قـتـالـ عـنـيفـ عـلـىـ المـرـقـعـ وـقـائـدـ الـجـيـشـ قـتـيبةـ بـنـ مـسـلـمـ يـرـاقـبـ المـوقـفـ عـنـ كـثـبـ،ـ فـانـهـزـمـ الـعـدـوـ فـتـرـاجـعـ بـغـيـرـ اـنـظـامـ وـلـكـيـ يـضـربـ القـائـدـ ضـربـتـهـ الـحـاسـمـةـ أـوـعـزـ قـتـيبةـ بـمـطـارـدـةـ شـدـيـدةـ لـلـعـدـوـ وـجـرـحـ يـوـمـئـذـ خـافـانـ وـابـنـهـ أـيـ الـمـلـكـ وـولـيـ العـهـدـ.

والظاهر أن الملك طلب الصلح لمدينة بخارى فوافق قتيبة إلا أنه كما يذكر البلاذري أصر على دخولها لكي يصلـيـ فيها رـكـعـتـيـنـ،ـ وكانـ قـتـيبةـ قدـ أـعـدـ كـمـيـناـ لـكـيـ يـهـجـمـ عـلـىـ الـبـاـبـ فـورـ فـتـحـهـ لـهـ،ـ وـإـذـاـ مـاـ تـغـلـبـ الـكـمـيـنـ عـلـىـ حـرـسـ الـبـاـبـ فإـنـهـ سـيـأـخـذـ المـدـيـنـةـ عنـهـ وـبـعـدـ أـنـ فـتـحـواـ الـبـاـبـ هـاجـمـهـاـ الـفـرـسـانـ الـعـرـبـ وـتـغـلـبـوـاـ عـلـىـ حـرـسـ وـدـخـلـ قـتـيبةـ بـخـارـىـ فـاتـحـاـ وـحـصـلـ فـيـهـاـ عـلـىـ غـنـائـمـ كـثـيرـةـ سـاعـدـهـ عـلـىـ إـعـادـ قـوـاتـ جـديـدةـ فـيـ مـعـارـكـةـ الـمـقـبـلـةـ وـلـغـرـضـ إـعـادـةـ التـنـظـيمـ وـإـرـاحـةـ الـجـيـشـ عـادـ قـتـيبةـ إـلـىـ قـاعـدـهـ مـرـوـ.

بعد فتح بخارى عاد الجيش، عند الوصول إلى آمل استأنـ نـيزـكـ طـرـخـانـ مـلـكـ باـذـغـيـسـ فـيـ العـودـةـ إـلـىـ طـخـارـسـتـانـ،ـ فأـذـنـ لـهـ قـتـيبةـ إـلـاـ أـنـ نـيزـكـ تـمرـدـ عـنـ وـصـولـهـ إـلـىـ بـلـادـهـ فـأـرـسـلـ قـتـيبةـ أـخـاهـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ مـسـلـمـ فـيـ ١٢ـ أـلـفـ مـقـاـلـ إـلـاـعـادـةـ فـتـحـ باـذـغـيـسـ وـبـلـخـ وـالـطـالـقـانـ فـتـقـدمـ عـبـدـ الرـحـمـنـ وـتـبـعـهـ قـتـيبةـ بـعـدـ انـقـضـاءـ الشـتـاءـ فـأـعـادـ فـتـحـ الـبـرـوـقـانـ وـالـجـوـزـجـانـ وـالـطـالـقـانـ وـظـلـ عـبـدـ الرـحـمـنـ عـلـىـ مـقـدـمةـ

جيش قتيبة يطارد نيزك وجيشه من وادٍ آخر حتى تحصن نيزك في الكرز وكار مضيق الكرز من الوعورة بمكان إذ ليس له إلا طريق اقتراب واحد أغلقه نيزك بقوة وهنا بدر لقتيبة أن يستدرج نيزك بالحيلة والخداع، فدعا قتيبة أحد وكلائه وكان صديقاً لنيزك وأسمه سليمان الناصح فطلب منه أن يتصل بنيزك ويستدرجه على أن لا يعطيه الأمان وأرسل مع سليمان الناصح جنوداً من خيرة الفرسان، استعملهم سليمان، بعد أن استدرج، نيزك للصلاح في عزل نيزك عن جنوده بقلق مدخل لمضيق وجلب نيزك إلى قتيبة ومع ذلك لم يقتل نيزك بل كتب يسألون الحاج بقتله فجاءه جواب الحاج بالموافقة ليكون مثلاً لكل مرتد وناكث للعهد.

لقد قضى قتيبة بن مسلم عامي ٩١هـ و٩٢هـ في توطيد في أفغانستان بعد الفتن التي أثارها نيزك وبعد امتناع ملك شومان من دفع الجزية ففتح قتيبة شومان ثانية وهي القسم الجنوبي من طاجكستان كما عقد الصلح مع الملك رنبيل الأعظم في سجستان وأحمد تمرد مدینتی کش ونسف ووطد الأمن تماماً في كل بلاد ما وراء النهر بين جيحون ووادي زرفشان.

فتح خوارزم:

كذلك امتدت فتوحات قتيبة إلى دولة الخوارزم غرب أمودرايا (جيحون) وإلى الجنوب من بحيرة أورال، وهي تجاور مملكة بخارى من الشمال الغربي، ولا يفصلها عنها سوى نهر جيحون نفسه.

ويذكر أنه كان لملك الخوارزم شاه أخ اسمه خوارزد، وأنه كان يتحكم في الأمور وقد طغى وتجبر وعاث فساداً في خوازم، ولم يكن خوارزم شاه قادرًا على ردعه وقد جرت مراسلات بين قتيبة وخوازرم شاه أظهرت دهاء قتيبة وسعة حيلته.

وقد جرى الاتفاق السري بين الاثنين على أن يقضي قتيبة على الملك خام جرد، الذي كان يعادى ملك خوارزم ويغزوه باستمرار وأن يقضي في نفس الوقت على شقيقه خورزad ومقابل ذلك يسمح ملك خوارزم لقتيبة بدخول مملكته، والاتفاق على صلح يكون خوارزم شاه بموجبه حليفاً للمسلمين.

وفي سنة ٩٣ هـ/٧١١م تقدم قتيبة من مرو وعبر جيرون، وحين عبر أشاع أنه يهدف إلى التقدم نحو الصدف (سمر قند) وقد ساعد على ذلك ما تحدث به ملك خوارزم لشعبه أن قتيبة يريد الصدف وليس خوارزم وما هي إلا عدة أيام حتى استدار قتيبة بجيشه نحو الغرب فوصل إلى مدينة هزارسب على جيرون، فاستشار خوارزم شاه أعوانه بما يجب أن يفعله، فأشاروا عليه بالحرب ولكن خوارزم شاه الذي كان قد اتفق سرا مع قتيبة على هذه الخطة أجابهم (لكني لا أرى ذلك، لأنك قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ولكنني أصرفه بشيء أؤديه إليه فأجابوه إلى ذلك).

فسار ملك خوارزم بجيشه إلى مدينة الفيل وهي أحسن بلاده والمواجهة لمدينة هزارسب التي فيها قتيبة، واتفقا على أن يدفع الخوارزميون عشرة آلاف رأس غنم على أن يعين قتيبة خوارزم شاه ملكاً على مملكة خام جرد عدوة.

ولما كان خورزاد قد التجأ إلى خام جرد، فقد أرسل قتيبة قطعات بقيادة أخيه عبد الرحمن بن مسلم فقضى على جيش خام جرد، وعاد بأربعة آلاف أسير بينهم شقيق خوارزم شاه فدفع قتيبة بالأسرى إلى الملك الخوارزمي الذي قتلهم جميعاً بما فيهم خورزاده ودفع بأموالهم وأسلحتهم إلى قتيبة وولي قتيبة أخاه عبد الله بن مسلم حاكماً على خوارزم.

فتح سمرقند:

كانت سمرقند تشكل أمنع حصون صد واقوى المدن الحصينة في بلاد ما وراء النهر، وكان ملكها غورك قد استولى على الحكم بعد مقتل ملكها تارخون الذي سبق أن قبل بالصلح مع المسلمين، بينما أوى الأمير ديفاشتیج أولاد الملك القتيل ولقب نفسه بلقب قيصر الصدف.

ويبدو أن الوضع السياسي في سمرقند كان على درجة كبيرة من الاضطراب، فاستغل قتيبة ذلك، واغتنم هذه الفرصة للتدخل في شؤون سمرقند الداخلية بحجة مساعدته لأبناء حليفه تارخون.

وبعد فتح خوارزم فكر قتيبة في التحرك من خوارزم نحو الصدف وبينما كان يقوم بتقدير للموقف دخل عليه في خيمته أحد قواه وهو المشجر بن مزاحم السلمي، فقال له: (إن أردت الصدف يوما من الدهر فالآن، فإنهم آمنون من أن يأتيهم عامل، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام). وتفسير هذا القول هو إذا أردت أن تهجم على سمرقند فإن أحسن حال مواتية هي الآن، فإنهم آمنون ولا يتصورون أنك تهاجمهم بعد حصولك على غنائم كثيرة من خوارزم، فدعنا نبدل اتجاه مسيرنا وننقدم على سمرقند سيما وأن المسافة بيننا وبينها هي عشرة أيام لا غير. فذعر قتيبة وهو القائد الذي اشتهر بالكمان والحقيقة فقال لمشجر (أشار عليك بهذا أحد) قال: لا، قال قتيبة (أقسمه منك أحد) قال مجشر: لا، قال قتيبة: (والله لئن تكلم به أحد لأضررين عنفك) إذ أنه كان يفكر في نفس التفكير وقد توصل إلى نفس الخطة.

وفي اليوم التالي باشر قتيبة بتطبيق خطته وهي فرز قوة كبيرة من الخيالة والرماة بقيادة عبد الرحمن ابن مسلم وبعث بكل الأحمال والأتقال معه ويسيير عبد الرحمن طيلة النهار والليل الذي يليه، وفي صباح اليوم التالي عليه

أن يدفع بالأعمال والانتقال والغائم إلى مرو، بينما يستدير نحو الشرق بكتابه والتقدم نحو سمرقند، ولم يبلغ حتى أخاه عبد الرحمن بالاستدارة نحو الشرق وإنما أبلغه ذلك بر رسالة ليلاً فيما بعد، فائلاً: (إذا أصبحت فوجه الانتقال إلى مرو، وسر بالفرسان والرماة إلى الصفد، واكتم الأخبار، فإني في الأثر). وذلك بدل على شدة تكتمه وحذرها.

جمع قتيبة قطعاته وألقى فيهم خطاباً أوضح فيه أن بلاد الصفد شاغرة، وأنهم قد نقضوا العهد ونكلوا بالحامية العربية، وأنه قد عزم على فتح سمرقند، ثم تقدم وراء عبد الرحمن فوصل إلى سمرقند بعد حصول عبد الرحمن على التماس بحامية سمرقند الصفدية بثلاثة أيام، ويبدو أن المدينة قررت قبول الحصار فحاصرها قتيبة شهراً.

وعلى أثر تقدم قتيبة بجيشه العربي يسانده ملك خوارزم وملك بخارى نحو سمرقند، كتب غورك ملك سمرقند إلى الدول التركية المجاورة، وهي الشاش (عاصمتها طاشقند) وآشروسنة وفرغانة وتحصنت الحامية التركية وراء أسوار سمرقند الحصينة، وكان ذلك في عام ٧١١ هـ / ٩٣ م حاول قتيبة اقتحام المدينة عدة مرات إلا أنه كان يصطدم بمقاومة عنيفة، وقد بذل الطرفان جهداً جباراً في الصراع من أجل النصر لأن كلاً الطرفين كان يعتبر معركة سمرقند حاسمة وقد دام حصار قتيبة للمدينة شهراً كاملاً تمكن خلاله النجادات التركية من الشاش وآشروسنة وفرغانة من الوصول إلى ميدان المعركة وانتخب الفرغانيون والشاشيون خيرة جنودهم وفرسانهم والمعدودين من أبطالهم وكان من بينهم أبناء الملك والأمراء ولووا قيادة جيش النجادات هذه لابن الأصغر لخافان الترك وأسمه ابنيل خافان تقديرًا منهم أن المعركة حاسمة ولابد من الانتصار فيها.

وعندما بلغ قتيبة نبأ النجادات باتجاه سمرقند لفك الحصار عنها، انصرف إلى دراسة الموقف العسكري مجدداً، وعلى ضوء الظروف الجديدة والقوى الكبيرة التي ستدخل ميدان الصراع لذلك انتخب قتيبة ستمائة فارس من خيرة فرسان العرب، وشكل منهم كتيبة بقيادة أخيه صالح بن مسلم، وقد أمر قتيبة صالح أن يتقدم على الطريق ويتمكن على مسافة فرسخين (١٢ كيلو متر) وأن يقطع رتل النجادات بهجوم ليل مباغت.

ترك صالح وكتيبته، وقرر صالح بعد استطلاع المنطقة الكائنة شرقى سمرقند على طريق سمرقند-طاشقند، تقسيم الكتيبة إلى كمينين أحدهما يمين الطريق والأخر يساره.

وبعد أن وصل الرتل المعادى واجتاز منطقة الكمينين لمدة مناسبة باشر الكمينان بهجوم صاعق ليلاً أرعب رتل العدو بمباغته تامة ونشر الفوضى في صفوفهم وصار فرسان العرب يحصدون عدوهم حصداً في هجوم اتصف بكل معانى العزم والنجدة والشهامة، إذ كان كل فارس في الكتيبة يعرف أهمية هذه المعركة ويدرك مدى خطورة وصول هذه النجادات إلى سمرقند، وحسب الخطة التي وضعها قتيبة، سحب أكثر قطعاته من وراء أسوار سمرقند بسرعة تامة وكتمان شديد، كي لا تشعر به حامية المدينة، فتخرج من الأسوار وراءه، ولتفيف ضغطه على رتل النجادات شنّ هجوماً صاعقاً على جبهة رتل العدو الذي قطعه الكمين فدارت أشرس معارك ما وراء النهر في تلك المعركة الليلية.

وبعد إيادة رتل النجادات إيادة تامة عاد قتيبة مسرعاً إلى أسوار سمرقند، وقرر أن يدكها ويفتح المدينة مهما كلف الأمر، وبعد أن أدام عليها قتيبة قصفاً مستمراً ليلاً ونهاراً بواسطة المنجنيقات لإحداث ثغرات في الأسوار وقع بقطعاته من رماة السهام والنبل للنقرب من الثغرات لتغطيه هجوم المشاة، فاقتحم المدينة

بعاصفة من الجنود العرب الأشاؤس ففتح المدينة واستلم غورك ولكن حكمة قتيبة وبعد نظره، قادته إلى إبقاء غورك حاكما على الصفد، بعد أن قام قتيبة بتحطيم هياكل المجوس ونظرًا لأنه لم يمسه شيء فقد آمن عدد كبير منهم بالإسلام كما قام بإبقاء حامية عربية داخل سمرقند وتعيين حاكم عربي للمدينة وتجريد المدينة من الأسلحة العسكرية ثم بني في سمرقند مسجداً سماه مسجد قتيبة.

فتح الشاش (طاشقند) وفرغانة:

بعد أن عاد قتيبة إلى مرو فور انتهاءه من فتح سمرقند وجد أنه من المستحيل استباب الأمن والنظام ما لم يقض نهائياً على القوات المسلحة للدول الثلاث الباقية إلى الشرق من الصفد (سمرقند) وهي الشاش وعاصمتها طاشقند وأشروسنه وعاصمتها خوجنده وفرغانة عاصمتها فرغانة.

وكان خطأ قتيبة تقضي بالتقدم على جميع تلك الدول في آن واحد وكان هدفه تمجيد قطاعات كل دولة داخل حدودها، وعدم السماح لهم بنجدة الواحدة تلو الأخرى، لذلك وضع خطته للتقدم برتلين الأول الرتل الجنوبي بقيادة هو نفسه، يتقدم على طريق سمرقند - خوجنده - فرغانة - كاشان. وكان الرتل مؤلفاً من العرب إذ أنه توقع مقاومة شديدة سيماء وأنه سيقوم بحركات ضد الدولتين، أما الرتل الشمالي، ويتألف من محاربي المناطق المفتوحة من مسلمي خوارزم، بخارى، سمرقند، كش، ونسف وغيرهم ويتقدم على طريق سمرقند - طاشقند - ثم يلتقي بالرتل الجنوبي في كاسان.

وفي عام ٩٤/١٢٧١م تقدم قتيبة من مرو عبراً جيحون وتوجه إلى منطقة التحشد في سمرقند حيث تحشدت أيضاً قطاعات الرتل الشمالي وجرى تنفيذ الخطة إذ تقدم الرتل الجنوبي بقيادة إلى محوز سمرقند، خوجنده فأخضعها بعد عدة معارك شديدة، كما قام بحركات في المناطق الجبلية من أشروسنة،

علاوة على سهولها لفتح كل أراضي الدولة، ثم اندفع على محور خوجنده - فرغانة، ففتح فرغانة بعد عدة معارك مع الفرغانيين ولم يسمح بوجود أي مقاومة تذكر في دولة فرغانة إذ اندفع شمالاً إلى كاسان في انتظار ملاقاًة الرتل الشمالي.

ونقدم الرتل الشمالي على محور سمرقند - طاشقند فخاض معركة عنيفة حول طاشقند التي أبدت مقاومة شديدة انتهت بإحراقتها، وللقضاء على آية مقاومة تذكر في بلاد الشاش، دفع قتيبة الرتل الشمالي إلى استيفجان الكائنة على مسافة ١٢٠ كيلوا متراً إلى الشمال من طاشقند، فاحتلها الرتل ثم انحدر جنوباً إلى طاشقند ومنها توجه شرقاً على محور طاشقند - كاسان فالتحق بالرتل الجنوبي الذي وصلها قبله.

وبعد هذا النصر الامع عاد قتيبة حسب عادته لقضاء الشتاء وإعادة التنظيم وإراحة قطعاته في مرو وفي عام ٩٥ هـ / ٧١٣ م وردت إليه نجدة جديدة من العراق وتقدم نحو الشاش (طاشقند) نظراً لوجود تمرد قبضى بسهولة عليه، وبينما هو في طاشقند بلغه نباء وفاة والي العراق الحجاج بن يوسف التقي، فعاد إلى مرو، ولكنه استلم رسالة من الخليفة الوليد بن عبد الملك تثبته في منصبه.

فتح كاشغر الصينية:

كذلك امتدت فتوحات قتيبة إلى مدينة كاشغر الصينية حيث كان الوضع السياسي مضطرباً في الولايات الغربية من الصين والتي تسمى تركستان الشرقية أو تركستان الصينية، وكان الأمراء الأويغوريون متفرقين في تنافر مستمر فيما بينهم فوجد بذلك قتيبة أن الفرصة مواتية للتقدم إلى كاشغر بالإضافة إلى أنه

أراد ردع أمراء الأويغور من التدخل في المناطق المفتوحة سيمما وأنهم كثيراً ما ساندوا حكام فرغانة في معارضتهم.

كانت خطة قتيبة للتقدم إلى كاشغر تتضمن حشد أكبر قوة عربية واتخاذ إجراءات انضباطية شديدة ووضع حامية على معبر نهر جيحون تمنع العودة إلى الوراء إلا بإجازة من قتيبة وكذلك التقدم على الطريق البخاري الذي يربط بين مدينة فرغانة بحيرة جاتيركول واقتحام ممر نيترك في تركستان الشرقية.

وفي عام ٩٦هـ / ٧١٤م تقدم قتيبة حسب الخطة التي وضعها وقد أرسل مقدمته بقيادة كبير بن فلان ففتح كاشغر وتوغل على ما ورائها حتى بات الاصطدام بين جيش المسلمين والصينيين وشيكا، فطلب ملك الصين التفاوض فوافق قتيبة على ذلك.

وقد أرسل قتيبة إلى ملك الصين وفداً برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو السيف، فثار ملك الصين وقال لهبيرة إذهب إلى صاحبك فقل له ينصرف فإني قد عرفت حصره وقلة أصحابه، وإنما أبعث عليكم من يهلككم وبهلكه، فأجابه هبيرة بثقة وقوة كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا أحضرت فأكرمنها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه.

وأدرك ملك الصين القوة العاتية التي تكمن خلف هؤلاء وعرف أن التهديد والثورة لا طائل منها فعاد يسأل وما الذي يرضي أصحابكم؟ فأجاب هبيرة أنه حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختتم ملوككم ويعطي الجزية، فقال الملك: إنما نخرجه من يمينه فلا يحيث، نبعث إليه بتراب من أرضنا فيطوه وببعض ابنائنا فيختتمهم ونبعث له بجزية يرضاهما، وهكذا افتدى ملك الصين نفسه وببلاده بالجزية وأغلب الظن أن قتيبة ما كان ليقطع بذلك لولا وفاة الوليد وتولي

سلیمان بن عبد الملك الخلافة، وكان بين سلیمان وقیيبة ما شغل الأخير عن
مواصلة جهاده في بلاد الصين الواسعة.

وبهذا الفتح العظيم اعتبر قیيبة بن مسلم من كبار رجال الفتوح أمثال
خالد بن الوليد، ويکفي دليلا على عظم قدره أنه لم تتمد الفتوح بعده في هذا البلد
أكثر من ذلك، كذلك دل على براعة، ومقدرة هائلة فمع أنه كثيرا ما وجد حلفا
من ملوك ما وراء النهر الذين كانوا دائما يستعينون بالترك، إلا أنه انتفع بذلك
من وجود العداوة الطبيعية بين هؤلاء الملوك واستطاع أن يستولي على ممالكهم
الواحدة بعد الأخرى.

فتح بلاد السند:

كذلك امتدت فتوحات المسلمين في آسيا إلى بلاد السند، وهي تقع
شرقي إيران على ساحل بحر الهند، عبارة عن دلتا نهر السند العظيم التي تعتبر
المدخل لقارنة الهند.

وقد كان يسكنها عناصر آرية، تشبه سكان إيران، وإن كان أغلب سكانها
من عناصر تسمى الهندية نسبت إليها البلاد تميزت بلون أسود خاص، مما جعل
العرب يدعونهم من جملة السودان وسكنها أيضاً أصناف من قبائل مجاهولة
الأصل مثل الزط، والسياجة، حيث كانت الأولى من الرعاة الذين يتبعون الكلأ
على الساحل (الطفوف) وامتدوا حتى الخليج العربي والبحرين كذلك وجدت
عناصر تركية كثيرة في بلاد اسمها (قيقان) تلي خراسان من الشرق وتعتبر
من بلاد السند.

وكانت الهند دائماً ممالك متفرقة تتراوح بين القوة والضعف وكان
بعضها خاضعاً للفرس المجاورين لهم، وأنه كان يوجد بالسند مملكة قوية قبل أن
يغزوها الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٥ق.م. وهي مملكة الموريا، التي بقيت بعد

هذه الغزوة ولكن قبائل الهون (الهياطلة) الذين تسبيوا في إسقاط دولة الصين وغزوا بلاد ما وراء النهر، وغزوا هذه البلاد أيضاً منذ القرن الأول قبل الميلاد وكونوا منها مملكة راي القوية التي استمرت تحكمها مدة طويلة إلى أن سيطر عليها قبل الفتح الإسلامي صسه، ومن بعده ابنه داهر، الذي عرف بملك السندي.

إن العرب قبل الإسلام طالما ركبوا البحر إلى بلاد السندي، مستبعدين ولما جاء الإسلام نجد أن عامل الخليفة عمر بن الخطاب على البحرين وعمان، قام بإرسال حملات المسلمين على بلاد السندي فأرسل إليها حملة في البحر في سنة ١٥هـ/٦٣٦م مما أغضب الخليفة لتغريمه بال المسلمين.

ولكن ازداد اهتمام المسلمين ببلاد السندي منذ أن فتحوا مكران في شرقها، التي فتحت عنوة في أيام معاوية بحيث أنه لما هاجموها حلف الجندي بطلاقي نسائهم لا يهربوا وأن يقاتلوا أعداءهم، واتخذوا مصرًا يغيرون منها على السندي كذلك كانت حملات المسلمين على السندي من ناحية مفارقة سجستان الواقعة شمالي مكران، التي كان فتحها قد تم أيام معاوية.

إن حملات المسلمين على السندي كانت منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان، في أواخر أيام الخليفة علي ابن أبي طالب، إلا أنها لم تكن شديدة ومتصلة إلا في أيام معاوية، فقد قتل عدد من قوادها المسلمين، ويبدو أن أغلب الحملات كانت على بلاد قيقان من أرض السندي التي كان أهلها من الترك وأيضاً ضد الخليج وهم صنف من الهياطلة، وقعوا في قديم الزمان إلى أرض كابل أو زيلستان، التي بين الهند ونواحي سجستان، حيث أن رنبيل، هو لقب ملوكها، لقي منه عمال سجستان الأمراء على الرغم من محاربتهم الشديدة له، وأشهر من فتح نواحي السندي في أيام معاوية المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف، الذي تقدم في أعلى الهند وهزم أهلها عند نبه ولوهر، ولكن انشغال المسلمين بالفتنة بعد موت

معاوية، ثم فتنة ابن الأشعث بسجستان أيام عبد الملك، حد من نشاط المسلمين في هذه الناحية وإن كان رنبيل قد صالح الحجاج بعد تسليمه ابن الأشعث وقبل دفع الجزية.

وحدث أن ساءت العلاقات بين المسلمين وبين داهر ملك الهند مما استدعي صداماً مسلحاً، أما سبب سوء العلاقات فهو أن الحجاج أرسل سعيد بن أسلم إلى مكران، فخرج إليه معاوية ومحمد ابناء الحارث العلافي فقتلاه، إذ كان من الخارجين على سلطان الأمويين في هذه الجهات وكانا قد لقيا عند داهر ملك السند كل ترحيب حين لجأ إليه.

وبلغ الحجاج الخبر فسأل الخليفة، أن يأذن له لمحاجمة السند ملجاً الخارجين على الدولة، ولكن الخليفة لم يأذن له ثم بعد ذلك تعرض قراصنة من (ديبل) لسفن كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) وفيها أرامل لتجار من المسلمين وفاحم الأجل هناك، فاسر القرصنة هؤلاء النساء ولما طلب الحجاج من داهر تخليص النساء من الأسر لم يستجب له، وادعى أنه لا يسير على لصوص البحر هؤلاء فكان هذا وسواء بااغيا للحجاج أن يلح على الخليفة ليشار لهذا العدون ولبيؤمن طريق التجار وحدود البلاد الإسلامية من غارات المعتدين.

لقد وكل الحجاج قيادة هذه الحملة إلى أحد أقربائه، وهو محمد بن القاسم التقي صهره وابن عمه، الذي لم يكن يتتجاوز السابعة عشر عاماً وقد تمثلت في هذا القائد سحاباً الأمة العربية من سودد وشجاعة، بحيث كان يحق معجزة حربية.

سار محمد بن القاسم من مكران في سنة ٨٩هـ، ففتح ارمييل وهي مدينة كبيرة من أرض السند شرقي مكران ثم سار إلى الديبل ميناء السند العظيم على ساحل بحر الهند فوافقته السفن التي كان قد حمل فيها الرجال والسلاح

فخندق أمامها ولكن لم يستطع فتحها، إلا بعد أن جاءته توصية من الحاج، فقد كان يقدم له تقرير عن سير الحملة كل ثلاثة أيام، فأمره الحاج بنصب منجنيق، فرمى الدفل وهو سارية لمنارة البلد العظيمة بالمدينة فكسرها، فتطير العدو وجزع، فأمر محمد بالسلام وصعد عليها الرجال ودخلوا المدينة، واستمر القتال فيها ثلاثة أيام فهرب عامها من قبل داهر وأنزل بها محمد وبني جامعا، وبذلك قضى على وكر كبير لقرصان الهنود.

ثم سار عنها محمد صاعداً إلى شمال السند، وأخذ لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحاً أو عنوة، كما انضم إليه عدد من قبائل الزط، خصوصاً وأن المسلمين كانوا قد صالحوا في أثناء فتوحاتهم في فارس، مثلاً فعلوا من قبل مع الجراجمة بالشام، بل أن معاوية نقل عدداً منهم إلى الشام، فلما بلغ داهر بتقدم محمد ابن القاسم استعداداً لمحاربته، وجمع جيوشاً عديدة مزودة بالفيلة وهو مستخف به فلقيه محمد والمسلمون بعد أن عبروا نهر السند، على جسر وتغلبوا عليهم وقتلوهم، وذلك لأن الهند كان معظمها رجالاً لا دواب لها غير الفيلة، وكان المسلمون في أيام فتح فارس يتغلبون على الفيلة بقطع خرطومها، وفي هذه المرة استخدمو النفط في القضاء عليها، ولما ترجل داهر قتل أيضاً.

وبقتل داهر غلب محمد على بلاد السند، ودخل عاصمتها راور، كان بها امرأة لداهر خافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواريها، ثم قطع محمد نهر بيباس العظيم المؤدي إلى ملتان الغنية بذهبها فقاتله أهلها وانهزموا فحاصرهم وقطع عنهم الماء فعطشوا ونزلوا على حكمة وسماتها محمد بن القاسم (المعمورة) بدلاً من (ملتان) وذلك في سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م، وبعدها تقدم محمد في شمال السند إلى مدینتی بیلمان وقندهار حتى وصل إلى حدود كشمير التي كان تجاور الترك.

وقد كان فتح محمد بن القاسم لبلاد السندي من أعظم الفتوح الإسلامية فبعد ذلك لم يتتجاوز أحد فتوحاته فيها إلى أيام الغزنويين، كذلك كان فتحها مريحا للغاية من الناحية المادية، فحينما نظروا في النفقه وجدوا أنهم استرجعواها وزاده، بالإضافة إلى ما وصل إلى الحجاج من زط السندي.

فتح بلاد بحر قزوين:

في سنة ٩٦ هـ توفي الوليد أقوى خلفاء الأمويين، وهو الذي عمل على توسيع رقعة الإسلام إلى مدى لم تصله قبله أو بعده بحيث جعل الدولة العربية الإسلامية أشبه بهلال ضخم رأسه عند جبال البرتاج والآخر قرب الصين، كذلك أقام للمسلمين أفضل عمارتهم وأجملها وفي جمادى الآخر سنة ٩٦ هـ بُويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة.

ونجح سليمان في فتح بلاد في الشرق لم تكن قد فتحت من قبل وذلك على يد عامله يزيد بن المهلب، الذي ولاد العراق والشرق، بعد أن عزل يزيد ابن أبي مسلم كاتب الحجاج في سنة ٩٧ هـ / ٧١٥ م وكان الحجاج يكره يزيد لما فيه من النجابة خوفاً من أن يفعل مثل ابن الأشعث كما أن يزيد لم ينفذ رغبته في فتح بلاد ما وراء النهر، فعزل الحجاج يزيد عن خراسان وحبسه، ولكن يزيد تمكن من أن يهرب مع أخيه إلى سليمان بالرملة في سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م، حيث آمنه وعلى الرغم من أن الحجاج كتب إلى الوليد يحذر من آل المهلب، وطلب الوليد من سليمان تسليمهم، فإن سليمان أرسل يزيد إلى الوليد مع أيوب أحد ابناء سليمان مفيدةً في سلسلة واحدة، مما جعل الوليد يضطر إلى أن يؤمن يزيد وأخيه وقد أثبت يزيد بن المهلب جدارته، فذهب إلى فتح بلاد لم تكن فتحت من قبل.

فقد كان في شمال هضبة إيران حول بحر قزوين وهو عرف أيضاً بأسماء الشعوب التي تحيط به، مناطق أغلبها جبلية، ظلت في أيدي حكامها العجم أو الترك، الذين استطاعوا أن يصدوا المسلمين عنها، وقد اكتفى المسلمون منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان باتخاذ قزوين التي كان الفرس أنفسهم قد اتخذوها من قبل لمحاجمة هذه النواحي. وسموها كشور أي الحد المرقوم، ثغراً ومصراً أي آخر الحدود، وكان المسلمون يستولون على أجزاء منها حتى عصر الحجاج الذي أقام فيها المناظر للمرأفة، وإن كانوا أيضاً هاجموها من ناحية خراسان.

وقد بدأ يزيد بن المهلب بقوهستان، وهي كلمة تعني بلاد الجبال لأن كوة بالفارسية هي الجبل، وقد أطلقت على أجزاء كثيرة في الهضبة الإيرانية بطبيعتها الجبلية، وأن أكثر بلاد العجم لا تخولا من موضع يقال له قوهستان ولكن المشهور بهذا الاسم هي الولاية التي فتحها يزيد وهي تقع جنوب شرق بحر قزوين، أغلبها صحاري أو جبال ولا توجد بها الأنهر، وعاصمتها قاين، وقد كان يسكنها العجم، وعنصر مغولي من الهون (الهياطلة) -يسميهم ابن الأثير الترك- قدموا من بلاد ما وراء النهر ثم انتقلوا إلى هذه النواحي وحتى بقايا الحيثين الذي سمعنا عنهم في العصور القديمة.

قام المسلمون بإرسال الحملات لهذه البلاد لأول مرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب من كرمان، فاستولى المسلمون على ناحية طبسين وقريتها كرين وهما حصتين أو ما يعرف بالطبعتين فسمى الصلح صلح الطبسين وفي أثناء فتح خراسان فتحت قوهستان عنده وهزم الهياطلة، وذلك في أيام الخليفة عثمان سنة ٣٠ هـ/٦٥٢ م، وفي أيام معاوية سنة ٥١ هـ/٦٧١ م فتحت قوهستان من جديد، وضمت إلى خراسان ولكن لكثره غارات أهلها وقتلهم للمسلمين حتى أنهم كانوا قد حاربوا قتيبة، ففتحها يزيد بن المهلب من جديد فكان يحاصرها في

حصونهم إلى أن استسلموا وأرسل ملكها واسمه صول، يطلب الصلح فصالحه يزيد ودخل عاصمتها قاين، وكتب يزيد بشاره النصر إلى سليمان بن عبد الملك.

وبعد ذلك سار يزيد إلى البلاد المجاورة التي تقع بجوار خراسان جنوبى شرقى بحر قزوين، فعرفت للعرب باسم جرجان، وسمى البحر باسمها بحر جرجان، وهي عبارة عن سهول كثيرة تجري فيها عدة أنهار توجد حولها سلسلة جبال البرز الشاهقة التي عرفت أيضاً بجبال جرجان وقد كانت جرجان تقسم إلى نواحي كبيرة، مثل دهستان في أدنى البلاد، وبكر أباد، أما جرجان نفسها فلم تكن يومئذ مدينة وإنما كانت جبالاً ومسالك، وقد كان يسكنها الفرس الذين يحكمهم مرزبان، والترك وخاصة في دهستان الذي يحكمهم ملك اسمه أو لقبه أيضاً صول.

وقد قبلت جرجان دفع الجزية منذ أن اقترب المسلمون من حدودها في سنة ١٨ هـ/٦٣٩ م ولكن في عهد الخليفة عثمان بن عفان سنة ٣٠ هـ/٦٥٠ م دخلها سعيد ابن العاص وصالح أهلها قبل أن يفتح قوهستان وبعد سعيد لم يأت إلى جرجان أحد إلى أن جاء يزيد، والذي هيأ ليزيد فتحها هو وجود نزاع بين المزربان الفارسي وصول التركى بحيث اضطر إلى الهروب إلى يزيد وهو في خراسان وتغلبت صول على جرجان، فدخل يزيد مع المزربان جرجان، وحاصر صول وهو في بحيرة تقع في بحر قزوين، وقتل عدداً كبيراً من الترك، ولعله صالح صول أو قتلها، ولكن لم يلبث أهل جرجان أن ثاروا على المسلمين الذين تركهم يزيد فيها وقتلواهم عن آخرهم، فعاد يزيد إلى جرجان ثانية وقتل عدداً كبيراً من أهلها، وهو ما عرف (بالفتح الثاني) وقد بنى يزيد مدينة جرجان في واد عظيم تطل على البحر، ولم تكن بنيت قبل ذلك وأصبحت أكبر مدينة بهذه البلاد.

ولما فرغ من جرجان هاجم طبرستان، وهي تسمى أيضاً مازندران، التي تقع في جنوب بحر قزوين، شمال جبال البرز الشاهقة، وتحيط بها بلاد جرجان من الشرق، وجبلان من الجبلية، التي تسكنها شعوب الجبل والدليم من الغرب وهي عبارة عن بلدان واسعة وسهول وجبال كثيرة، قصبتها أمل، وقد سكنتها عناصر فارسية كانت تميل إلى الحرب، وتستخدم في قتالها الفؤوس ولذلك كان اسم طبرستان يعني بلاد الفؤوس، لم تكن قد خضعت للمسلمين، فكان يحكمها الأصبهندر وتعني رئيس الجند، إذ أنه من سلالة أسرة فارسية قديمة كان يوليها ملوك الفرس على أهالي هذه المنطقة.

ولم يكن من السهل فتح هذه البلاد لحصانتها ومنعها لذلك صالحها المسلمون لما فتحوا فارس ورضوا منها بالشيء اليسير، ولكن في عهد الخليفة عثمان بن عفان سار نحوها سعيد بن العاص، في سنة ٢٩ هـ / ٦٥٠ م ففتح سهولها وجبالها من ناحية خراسان وفي عهد معاوية أرسل مصفلة ابن هبیر، فاستدرجوه إلى ممرات في الجبال وأرسلوا الصخور منها إلى رؤوسهم، فاستشهد عدد كبير من المسلمين.

وفي ولاية ابن زياد على العراق، أرسل محمد بن الأشعث فاستدرجوه أيضاً واستشهد ابنه، ولما سار يزيد إلى طبرستان، وتوجهت طلائعه إليها، فاستعلن أهلاها بأهل جيلان، والدليم المجاورين، واستطاعوا أن يهزموا هذه الطليعة، وقد كانت هذه الهزيمة من الأسباب التي دعت أهل جرجان إلى الغدر بالمسلمين ولذلك استخدم يزيد الخديعة واضطر إلى مصالحة الأصبهندر الذي أرسل إليه المال.

استمر حكم سليمان زهاء ثلاثة سنين، ووافاه أجله بداعي، وهو ابن تسع وثلاثين سنة في سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م ويبدو أن الناس أحبوه لحبه للحياة، أما فتوحه

لم تكن حاسمة كما هي في عهد سلفة، إلا أن حماسه في مد رفعه الإسلام كان شديداً لا يقل عن حماس سابقيه من الخلفاء.

فتح المغرب والأدلس

فتح المغرب:

لقد استطاع المسلمون في عهد عبد الملك بن مروان من طرد الروم نهائياً من أفريقيا، وفتحوا المغرب ويقصد به التسمية العامة التي أطلقواها على البلاد الواسعة الممتدة من آخر حدود أفريقيا حتى المحيط.

وكان زهير بن قيس البلوي مرابطاً في برقة منذ استشهاد عقبة بن نافع، فذكر عند عبد الملك من القبروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى أفريقيا لإنقاذهم من يد كسيلة بن لمزم المعروف أيضاً بابن كاهنة، وأن يعز الإسلام بها كما كان في أيام عقبة بن نافع، فقال لهم عبد الملك (من لأمر أمثال من عقبة؟) فانتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير، وكان من أشراف المجاهدين، فوجه إليه عبد الملك، زهيراً وسارع إلى الجهاد.

ولكن زهيراً كتب إلى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر، وبقله من معه من الرجال والأموال، فأرسل عبد الملك إلى أشرف المسلمين إلى الجهاد فأمرهم أن يلحقوا بزهير، سار زهير في آلاف من المسلمين إلى القبروان وتقابل مع كسيله ومن معه من الروم والبربر في سميس - أحد نواحي القبروان - فالتحم الفريقيان حتى انهزم كسيله وقتل ومضى المسلمين بمطاردة الروم والبربر، فلحقوا كثيراً منهم وقتلواهم، وجدوا في طلبهم إلى وادي ملوية وواد طنجة بال المغرب وفتح مدينة تونس وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وقتل رجال البربر والروم فزع أهل أفريقيا فلجأوا إلى الحصون والقلاع، واضمحل شأن الروم فلم يعد لهم شأن كبير.

رحل زهير مع عدد من المسلمين إلى مصر، وبعد أن وجه ضربة قاضية للروم في الاستعانا بأهل البلاد على المسلمين وترك زهير القิروان آمنة، لخلوّ البلاد من عدو ذي شوكة، فبلغ ذلك الروم فخرجوها في مواكب كثيرة من القسطنطينية وجزيرة صقلية وأغاروا على برقة، ووافق ذلك قدوم جيش زهير فأمر الجيش بالمسير إلى الساحل من أجل إنقاذ المسلمين فالتحق القتال واستشهد زهير بن قيس وأشراف من كانوا معه من المسلمين، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية.

ومع سوء أحوال الخلافة الأموية الداخلية، أرسل عبد الملك قائداً كفأاً اسمه حسان بن النعمان الغساني في جيش عدده أربعون ألفاً للانتقام من الروم، فسار هذا الجيش إلى قرطاجنة التي كانت أهم معاقل الروم على البحر الأبيض وعلى حد قول ابن الأثير لم يكن المسلمون قد حاربوا وأن ذكر الذهبي أن أبا المهاجر قد هاجمها على غير جدوى فقاتل حسان أهلها من الروم والبربر قتالاً شديداً حتى طلبوا الأمان فأعطاهم إياه، ثم غدوا فرجع إليهم وقاتلهم حتى ملكها وهدمها فهرب الروم منهم إلى صقلية والأندلس، كذلك سار حسان على بقية الروم وهزمهم في معاقلهم المتفرقة على الساحل، حتى طردتهم من كل أفريقيا وعاد بعد ذلك إلى القิروان لأن الجراح كان قد كثرت في أصحابه.

وكان هذا مشجعاً لحسان على أن يعود إلى حرب بربور جبل أوراس الأشداء، وكان على رأسهم بعد كسيلة امرأة قوية من قبيلة جراوة البئرية عرفت بالكافنة لأنها كانت تخبرهم بشيء من الغيب وكانت تلقب بملكة البربر ويذكر ابن الأثير - أن الكافية هي التي خرجت لقتال حسان في وادي تبني في أقصى أفريقيا وبقيت الكافية تحكم الغرب كله بما فيه أفريقيا وذلك بمساعدة أولادها.

وقد ظل حسان في برقة إلى أن انتهت فتنة ابن الزبير، وأرسل الخليفة إلى المادة والقوة ليرحل لمحاربة الروم والبربر وفي تلك الأثناء كان الروم الذين طردوا من حصن قرطاجنة قد عادوا إليها لأن سقوطها أحدث أثراً في بلاد الروم مما أن وافى عهد الإمبراطورين (٦٩٥-٦٩٨م) الذي كان يحارب المسلمين في أرمينية حتى أرسل إليها أسطولاً استولى عليها في سنة ٧٨هـ/٦٩٧م واشترك في هذه الحملة الفرنجة من القوط ويبدو أن حساناً حاصرها هذه المرة من البر والبحر إذ أن عبد الملك أوعز إليه باتخاذ دار صناعة لإنشاء الآلات البحرية فتمكن حسان من الاستيلاء عليها، وكانت هذه نهاية الاحتلال البيزنطي في إفريقيا.

ولكن مقاومة البربر استمرت بزعامة الكاهنة التي أحسست بخطورة حسان هذه المرة، فكانت تحرق وتدمير القلاع لتعوق تقدمه، وتقطع أشجار الزيتون مصدر ثروة البلاد، فصمم حسان على قطع دابر مقاومتها خصوصاً وقد انضم إليه البربر المسلمين والنصارى الذين سئموا سياسة الكاهنة المدمرة ويبدو أن حساناً لم يتمكن من قتلها إلا في سنة ٨٣هـ/٧٠٢م.

ولقد تكهنـت الكاهنة بمـوتـها و بالقضاء على مقاومة البرـبر و خـضـوعـهم للمـسلـمـين و بذلك قـضـى المـسـلـمـون على آخر حـرـكة قـامـ بها أـهـالـي الـبـلـاد لـرـدـعـهـمـ، إذ كـانـتـ الكـاهـنـةـ فـيـ الحـصـنـ الـأـخـيـرـ الـذـيـ اـحـتـمـىـ وـرـاءـهـ أـهـلـ الـبـلـادـ فـلـماـ سـقـطـتـ اـنـتـهـىـ كـلـ الـمـقاـوـمـةـ، وـلـمـ يـقـ بـأـمـاـمـ الـمـسـلـمـينـ غـيـرـ مـقاـوـمـاتـ طـفـيفـةـ مـنـ بـعـضـ قـبـائـلـ الـبـرـبرـ .

وتولى موسى بن نصير في عام ٧٠٥م قيادة المسلمين في إفريقيا خلفاً لحسان بن النعمان، وراح يثبت دعائم النصر الذي حققه سلفه وسار أولاً عبر السهل الساحلي، فوصل إلى طنجة وفتحها وإن كان قد فشل في فتح (سبتة) وعاد

فعرض الاستقرار والهدوء على ساحل المحيط الأطلسي، وعاد عبر المناطق الممتدة إلى الجنوب من جبال الأطلس، فأكمل فتح البلاد كلها، وكان الدين الإسلامي يسير جنبا إلى جنب مع السياسة في هذه البلاد وقد تحول البربر إلى الإسلام.

فتح الأندلس:

سميت شبه جزيرة إيبيريا في القرن الخامس الميلادي ببلاد فاندولوسيا أي بلد الفاندال، والفاندال هم القبائل التي استولت على البلاد في القرن المذكور، ثم استولت قبائل القوط الغربيين على فاندولوسيا في القرن السادس الميلادي، وطردوا الفاندال إلى أفريقيا وظلت فاندولوسيا تحت حكم القوط الغربيين إلى أن جاء العرب المسلمين وفتحوها وغيروا اسمها إلى بلاد الأندلس كما أطلقوا عليها في بعض الأحيان اسم الجزيرة.

كان المجتمع الأندلسي قبل الفتح العربي الإسلامي قائما على الاستغلال وكان الأشراف ورجال الدين يملكون القطاعات الكبيرة ويسكنون القصور الضخمة ويعملون العبيد بالعسف والظلم ويضطهدون اليهود ويجبروهم على ترك دينهم والتصر ويسعدون وينهبون أموال من يمتنع عن التنصر.

وفي الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تحت نير الظلم والفوضى كان شمال أفريقيا ينعم بالعدل والمساواة والتسامح الديني وبعيش بأمن واستقرار تحت ظل العرب المسلمين فلا عجب إذا ما تمنى سكان إسبانيا عيشا رغيدا تحت ظل العرب المسلمين كالعيش الذي ينعم به سكان أفريقيا.

وبعد أن أمن العرب خط الدفاع العربي للدولة العربية وقضوا على أسطورة التفوق البحري البيزنطي في البحر المتوسط فرروا فتح الأندلس، لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب ولأن الأندلس كان المجال الحيوي لفتح

الإسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الإفريقي واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام وبوجود القوة الضاربة في جانب العرب المسلمين.

لم تستعصم على موسى بن نصیر غير مدينة سبتة لمنعها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر، وكان يوليán حاكماً عاماً على إقليم مورطانية الطنجية وكانت تابعة لمورطانية القيصرية إحدى الولايات السبعة الخاضعة للدولة البيزنطية، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ولت سبتة وجهها شطراً إسبانياً القوطية، وقد بدأ يوليán ولايته لهذا الإقليم في سنة مبكرة، وأنه أقام مدة طويلة في أرض المغرب حتى توقيت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر.

أما علاقته بالدولة القوطية في إسبانيا فمرجعه كان أنه يتوجه بطلب المعونة إلى هذه الدولة لبعده مدينة عن بيزنطة واضطراب أمور بيزنطة في تلك الفترة.

كان يوليán حليفاً لملك إسبانيا (غيطشة) الذي تولى عرش البلاد في سنة ٧٠٠م بعد وفاة أبيه (أخيكا) وقد خلع غيطشة من العرش على أثر ثورة قام بها نفر من أنصار لذريق وأثار اغتصاب لذريق للعرش نفمة أنصار غيطشة وابناءه فهربوا ضد هذا المغتصب الذي انتزع الملك لنفسه من البيت للملك الشرعي، وببدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس.

وقد بعث يوليán برسالة إلى موسى بن نصیر يعرض فيها تسلیم معلقة (سبتاً) ويدعوه إلى فتح إسبانيا فكتب موسى بن نصیر إلى ابن عبد الملك يخبره بأمر هذا المشروع.

وقد عمل موسى بن نصير على اجتيازه الأندلس بالسرايا بتوجيه الخليفة الوليد خصوصا وأن المسلمين كانت قد عظمت صولاتهم في غرب البحر المتوسط، بالسيطرة على شواطئ المغرب الطويلة المقابلة للأندلس وبإنشاء وصناعة السفن في تونس ولأن دولة القوط نفسها لم تكن دولة بحرية في قوة دولة الروم فهاجم المسلمون في البحر جزيرتي منورقة وميورقة قبالة ساحل الأندلس.

وبعث موسى بن نصير رجلاً من البربر يسمى طريفاً و يكنى بأبي زرعة في مائة فارس وأربعينه راجل، فسار في أربعة مراكب حتى نزل البحر بالأندلس فيما يحاذى طنجة، وهو المعروف (جزيرة طريف) سميت باسمه لنزوله هناك فأغار عليها ورجع سالما وكان ذلك في شهر رمضان سنة 91هـ / 710م.

وفي رجب سنة 92هـ / 711م جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد فعبر البحر من سنته بجيشه ونزل بالبقة الصخرية المقابلة التي لا تزال تحمل اسمه (جبل طارق) وتتوالت انتصارات طارق، ففتح مدينة (قرطاجنة الجزيرة) ثم سار غرباً واستولى على المنطقة المحاطة بقرطاجنة وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل (الجزيرة الخضراء) وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح (الجزيرة الخضراء) وسيطروا على المجاز إلى الأندلس وتوجه لذريق لصد المسلمين فكتب طارق إلى موسى بذلك فأرسل إليه موسى مداداً من خمسة آلاف من المسلمين، وعلى رأسهم طريف بن مالك وأغلبهم من الفرسان وبهم كملت عدة من طارق الثاني عشر ألفاً.

والتقى الجيشان في ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م على وادي برباط أو وادي لكة قرب مدينة شدونه واستمرت المعركة ما يقارب من ثمانية أيام وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة. وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس وبدأ طارق يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكة ففتح شدونه عنوة ثم مضى إلى المدور ثم عطف على فرمونة ثم اتجه إلى إشبيلية فصالحة أهلها على الجزية، ومنها زحف إلى إسپانيا وكانت تلوف المركز الأول للمقاومة، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك، فظفر طارق بصاحب المدينة وأرغمه على الصلح وفرض عليهم الجزية.

وقد عبر موسى بن نصیر إلى الأندلس في رمضان سنة ٩٣ هـ / ٧١٢ م من طنجة على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً من المسلمين وزناً . موسى في جبل الفتح (جبل طارق) ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام فيها أياماً للتأهب لخوض المعركة القادمة، فلما عزم على المسير جمع حوله رأيـات العرب ووجوه الكـاتـبـ وعدهـاـ يـزـيدـ عـلـىـ عـشـرـينـ رـاـيـةـ وـتـفـاوـضـ الـجـمـيعـ عـلـىـ الرـأـيـ وكـيفـ تكونـ الخـطـةـ العـسـكـرـيـةـ لـلـفـتـحـ فـاجـتمـعـواـ عـلـىـ السـيـرـ إـلـىـ (إـشـبـيلـيـةـ) وـفـتـحـ ماـ بـقـيـ منـ غـرـبـ الـأـنـدـلـسـ حـتـىـ (اـكـشـونـيـةـ) إـذـ لـمـ يـبـرـحـ مـوـسـىـ مـوـضـعـهـ حـتـىـ أـمـرـ بـتـخـطـيطـ المـوـضـعـ وـاتـخـاذـهـ مـسـجـداـ وـكـانـ يـقـابـلـ بـابـ الـبـحـرـ مـنـ أـبـوـابـ الـمـدـيـنـةـ .

وسار موسى إلى (شدونة) فافتتحها عنوة ثم سار إلى (فرمونه) ولم يكن بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن تثال بحصار أو قتال فسأل موسى عن أمرها، فقيل له - لا تؤخذ إلا باللطف والحبـلـ فـقـدـ إـلـيـهاـ أـصـحـابـ يـوـانـ وـغـيرـهـ فـأـتـوـهـمـ فـيـ هـيـئـةـ الـمـنـهـزـمـيـنـ وـمـعـهـمـ السـلـاحـ فـأـدـخـلـوـهـ الـمـدـيـنـةـ فـلـمـ عـلـمـ مـوـسـىـ بـدـخـولـهـمـ بـعـثـ إـلـيـهـمـ الـخـيـلـ لـيـلـاـ فـفـتـحـوـاـ إـلـيـهـمـ بـابـ الـمـدـيـنـةـ، وـهـوـ الـبـابـ الـمـعـرـوـفـ بـبـابـ (قـرـطـبـةـ) فـوـتـبـواـ عـلـىـ الـحـرـاسـ وـقـتـلـوـهـمـ ثـمـ دـخـلـ الـمـسـلـمـوـنـ الـمـدـيـنـةـ عـنـوـةـ وـسـارـ مـوـسـىـ إـلـىـ (رـعـوـافـ) الـمـعـرـوـفـ بـقلـعـةـ وـادـيـ (اـيـرـةـ) أـوـ قـلـعـةـ (جاـبوـ) فـافتـحـهـاـ .

وبهذا أمنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة (وشدونة) و (راعوف) و (قرمونة) و (استجة) و (قرطبة) في يد المسلمين وأصبح بإمكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح (إشبيلية) كبرى مدائن شبه الجزيرة بعد (طليطلة) آنذاك.

لقد كان ترسيخ قواعد الفتح المتقدمة وتأمين خطوط مواصلات الفتح وحماية الجناح الأسير (الغربي) لمنطقة فتح طارق الأهداف الحيوية الأولى التي حققها موسى بعد إنسزال قواته بالأندلس.

فتح إشبيلية:

تقدمت قوات موسى بن نصیر نحو إشبيلية وكانت من أعظم قواعد الأندلس شأنًا وأنقذها بناءً وأكثرها أثاراً وكان دار ملك الروم روما قبل غلبة القوطيين على الأندلس فلما غالب القوطيون عليها استوطنوها (طليطلة) وأفرج بها ملكيهم وبقي بمدينة إشبيلية علماء أهل روما وكتابهم ورؤسائهم وحاصرها موسى حصاراً شديداً ولكنها امتنعت عليه شهراً وأخيراً استطاع فتحها وانسحب حاميتها إلى (باجة) فترك موسى حامية ومضى قدماً لتحقيق أهدافه الأخرى.

فتح ماروده:

سار موسى قاصداً (ماردة) متبعاً طريقاً رومانياً قديمة كانت تصل إشبيلية بماردة، فاستولى في طريقة على بلد تسمى (لقنت) سلم له أهله دون مقاومة فسموا لذلك موالي موسى وسميت الطريق التي سلكها موسى (فج موسى) وتمتد من (لقنت) إلى (ماردة).

وكانت (ماردة) أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر، وهي ذات عز وصنعة، وفيها أثار وقصور فحاصرها أيضاً وكان أهلها في منعة شديدة وعمل موسى دبابة ودب المسلمين تحتها إلى برج من أبراج سورها

جعلوا ينقبونه، فلما قلعوا الصخر أفضوا بعده سورها وجعلوا ينقبونه، فلما قلعوا الصخر أفضوا بعده إلى شيء يشبه الأسمنت الصلب كان يسمى (الأشه ماسة) فلم تزل منه معاول المسلمين تحت تلك الدبابة فسمى بذلك الموضع (برج الشهداء) واستمر موسى محاصراً لما ردة حتى مستهل شوال سنة ٩٤ هـ فدخلها صلحًا في شوال سنة ٩٤ هـ / ٧١٣ م حيث صالحه أهلها.

فتح إشبيلية ثانية:

عندما كان موسى بن نصير محاصراً (ماردة) ثار عجم إشبيلية وارتدوا وقاموا على من فيها من المسلمين واستشهد من المسلمين نحو ثمانين شهيداً فلما فتح ماردة وجه موسى ابنه عبد العزيز في جيش إلى إشبيلية ففتحها وقتل أهلها ونهض إلى (بلبة) ففتحها أيضاً فاستقامت الأمور فيها هناك وعلا الإسلام.

ولم يغادر عبد العزيز بن موسى إشبيلية إلا بعد أن ترك في إشبيلية وباجة ولبلة حاميات إسلامية لؤمنها من أي تدبير يقوم به وكانت حامية باجة قوية بقيادة قائد عربي معروف هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى وجده بنى زهرة أحد بيوت إشبيلية التي سيكون لها شأن.

لقد كانت محاولة فلول القوط في استرداد (إشبيلية) خطوة مدبرة لقطع طريق الرجعة إلى قوات موسى لولا أن عبد العزيز بن موسى استطاع أن يخمد الحركة قبل استفحالها لذلك أدرك موسى بن نصير بضرورة القضاء على بقايا القوط وعلى رأسهم لذریق.

وفي سنة ٩٤ هـ / ٧١٣ م وقعت معركة حاسمة بالقرب من (تمامس) بين جيش موسى وطارق من جهة، ولذریق وبقايا القوط من جهة أخرى وفي هذه المعركة لقي لذریق حتفه على يد مروان بن موسى ابن نصير وهزم القوط هزيمة نكراء.

فتح طليطلة:

كان طارق بن زياد قد دخل طليطلة سنة ٩٣ هـ دون مقاومة تذكر لكن اشتباك المسلمين مع القوط في المعركة الحاسمة بالقرب من بلدة (تمامس) قد شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في (طليطلة) على نقض طاعة المسلمين فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنه منها ووثبوا بها فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر.

وفي (طليطلة) سلم طارق إلى موسى الكنوز التي غنمها من الكنائس وغيرها عند فتحه (طليطلة) لأول مرة فأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة ٩٤ هـ يدبر أمرها، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برونزية لصرف رواتب الجندي ذلك بدار السكة القوطية بطليطلة ثم بعث موسى بن نصیر برسولين إلى الوليد بن عبد الملك ينقلان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ووقع اختياره على التابعي علي بن رباح وكان رجلا صالحا في نحو الثمانين من عمره وغيث الرومي فاتح قرطبة ومولى الوليد بن عبد الملك.

فتح شمال الأندلس:

لما انقضى فصل الشتاء، واطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد عزم على متابعة الفتح فأخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبة جزيرة الأندلس وجمع جيشه وأكمل أمورها الإدارية ثم سار بها نحو (سرقسطة) الواقعة على الضفة اليمنى من نهر (أبره) وكان طارق على مقدمته وسار موسى خلفه في جيشه وافتتح (سرقسطة) وأعمالها وتقدم في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما وقد ألقى الله الرعب في قلوب العدو فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ويكمله ويوثق للناس على ما عاهدوه عليه.

ولم تكُن طلائع المسلمين تشرف على (سرقسطة) حتى رعب أسلفها (ينسيو) ومن معه من الرهبان، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولًا يؤمنهم ويعطّيهم عهده فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة المدينة وفتحت المدينة البيضاء (سرقسطة) أبوابها للمسلمين سنة ٩٤ هـ ولم يكُن المسلمون يستقرّون في هذا البلد حتى أقام التابعي حنش بن عبد الله الضعاني بإنشاء مسجد للمدينة وقد قدر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قرونا متواالية مناراً للإسلام وأهله في هذه النواحي.

وبعد فتح (سرقسطة) فتح موسى (وشقة) و(الارددة) و(طركونة) وكانت أغلب المناطق التي سار فيها الجيش أرضاً خضراء وكانت أغلب المناطق التي يتحدث أهلها اللاتينية وبينما كان موسى يعد العدة لفتح (جليفية) أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس والتوقف عن فتح البلاد وأن يعود إلى دمشق ولكن قدوم مغيث لم يمنع موسى من المضي في ذلك، إذ لم يكن في الأندلس بلدس لم تدخله العرب إلى وقته غير (جليفية) لذلك طلب من مغيث البقاء في الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح (جليفية) وقبل مغيث بذلك وقد وهب موسى مغيثاً الموضع الذي ينسب إليه في عهد المسلمين وهو (بلاد المغيث) بجميع أرضه من أرض الخمس وبعد ذلك بادر موسى بالسير شمالاً لفتح (فشتالة القديمة) تأميناً للحدود الشمالية لإقليم (طليطلة).

وكان ينفرّع من (سرقسطة) طريقان رومانيان يتجهان من الشرق إلى الغرب، الأول يذهب بمحاذاة نهر أبره (الابرو) حتى (هارو) ومن هناك يتبع (برفيسكا) ثم (اماية) ثم (ليون) و(استرقة) والثاني ينفصل من الطريق الأول عند بدايته ويتجه نحو (قلونية) و(بلنسية) ويلتقي بالطريق الممتد من (ماردة) إلى

(استرفة) في مدينة (بنافي) وكان لابد لموسى من السير في كل من هذين الطريقين فقسم جيشه إلى قسمين قسم بقيادةه والآخر بقيادة طارق.

واختار موسى الطريق الثاني وعهد إلى طارق بالسير في الطريق الأول أدنى سفوح جبال (كتنبرية) وشرع طارق بمحاجمة (البشكنس) غربي نهر (أبره) فلم يجد زعيم هذه المنطقة (فرتون) بدأ من الدخول في طاعة المسلمين بل اعتنق الإسلام ولذلك أغفيت (شية) منطقته من التخميس ثم تابع طارق سيره ففتح (اماية) و(استرفة) كما فتح مدينة ليون.

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية لنهر (أبره) في إقليم (قشتالة) فأطاع معظم من مر بهم من رؤساء هذه الناحية وقد لقي بعض المقاومة عند حصن (بارو) في مقاطعة (بلد الولي) وبدلًا من أن يرجع على باب (تارنا) وسار متابعاً مجرى نهر (النالون) ثم حط رحاله عند قلعة (لك) بـ(اشنوريش) وما زال بها حتى فتحها، ثم سار بنفسه حتى بلغ (خيرون) وأقر فيها حامية وجعلها حصناً لما فتحة من البلاد في تلك النواحي البعيدة ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة (بلاي) على البحر الأخضر -المحيط الأطلسي- فطاعت الأعاجم ولاذوا بالسلم وبذل الجزية.

وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المتوسط فاطمأن إلى أن فتح شبه الجزيرة كلها لذلك شعر أنه لم يعد هناك معنى للاسترسال في الفتح، وكان موسى يترك في كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين فتفرق جنده وطال السير بمن بقي معه ونال منهم الجهد فامتلأ نفوسهم إلى العودة فاكتفى موسى بوصوله إلى (خيرو) وقرر العودة غير أن عدداً كبيراً من القوط قد تراجعوا أمامه واحتلوا في نواحي (اشنوريش) و(جليقية) وكان المسلمون يحسبون أنهم قضوا على القوط حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً والواقع أن من بقي من

القوط أنذاك قليلٌ ولكن العرب شغلو بأمور أنفسهم فاستطاعت هذه الحفنة القوطية أن تطمئن في هذه النواحي القاصية القاحلة وأن تنتظر لتنظر في المسلمين كل فرصة تسنح.

كذلك فتح عبد العزيز بن موسى ما بقي من مداين الأندلس، إذ لم يفتح المسلمون جميع أنحاء شبه الجزيرة فقد بقيت في البلاد مناطق لم تصل إليها جيوش المسلمين بعد وقد تجمعت في بعض الأقاليم غير المفتوحة وفي الجيوب الجبلية النائية الوعرة ومراعز للمقاومة القوطية ضد المسلمين فاقتضى الأمر إخماد هذه المقاومة وإتمام فتح الأندلس.

سار عبد العزيز بن موسى بن نصير على رأس جيشه لاستكمال فتح غرب الأندلس (البرتغال حالياً) حيث أنه بينما كان موسى بن نصير وطارق بن زياد يفتحان البلاد من (سرقسطة) عبر (قشتالة) القديمة قام عبد العزيز عام ٧١٤ هـ بالزحف بقصد ملاقة الفرق الإسلامية في (استرقة) حيث أنه فتح (شنتررين) و(قلموية) صلحاً وذلك أثناء وجود أبيه في الأندلس.

لقد بادر موسى بالعودة من (لك) بـ(جليقية) مع أبي نصر الرسول الثاني للوليد بن عبد الملك وكان مع أبي نصر رسالة للوليد إلى موسى يأمره بالخروج، فأخذ موسى في طريق العودة في آخر سنة ٩٥ هـ / ٧١٤ م والتقي مع مغيث الرومي بنواحي (ليون) وهناك أدركهما طارق عائداً من (استرقة) وساروا جمِيعاً فاخترقوا (فتح موسى) في طريقهم إلى (طليطلة) ولم يقم موسى في (طليطلة) وإنما مضى حتى دخل (قرطبة) ثم مضى إلى (إشبيلية) حيث ركب البحر ومعه طارق ومغيث الرومي وأبو نصر في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ وفي (إشبيلية) استخلف موسى ابنه عبد العزيز بعد أن اختارها عاصمة للأندلس

لاتها بالبحر وترك معه الجند ومن يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاً للعدو.

أبهر موسى ومن معه من (إسبيلية) وكان يأمل أن يخترق ما بقي عليه من بلاد افرنجة، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل الشام مؤملاً أن يتخد مخترقاً بذلك الأرض طريقاً واضحاً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون البحر.

وقد استخلف موسى ابنه عبد الله على أفريقيا وابنه مروان على (طنجة) و(السوس) فمر في طريق عودته بـ(القيروان) ثم قدم (مصر) سنة ٩٥ هـ ثم سار متوجهاً حتى فلسطين وبلغ دمشق سنة ٩٦ هـ / ٧١٥ م.

ويبدو أن من أسباب استدعاء موسى إلى دمشق وعزله هو أن الوليد من بعده سليمان اعتقداً أن موسى غرر بال المسلمين، وأنه عرض لهم لمهالك بتغلله إلى حدود بعيدة في الأندلس كما أنها خشياً من طموح موسى في التغلغل إلى بلاد أبعد من الأندلس فيقود المسلمين إلى رومية، بالإضافة إلى اتهام موسى بالخليع واعتقاد الوليد بأن موسى يحاول الاستقلال والتحرر من سلطان الخليفة ولعل الذين دخلوا هذه الشكوك في روع الوليد لم ينسوا أن يذكروا له سيطرته التامة هو وأولاده على أفريقيا والأندلس مما ضاعف تلك الشكوك وجعلها بعيدة عن الحدس قريبة من التصديق.

وبهذا الفتح العظيم، الذي لم يستمر أكثر من ثلاثة سنوات امتدت رقعة أرض الإسلام إلى قارة أوروبا باقطاع شبه جزيرة الأندلس التي أصبحت مثل الكم في ثوب الإسلام.

الجبهة الشمالية:

كان عهد عبد الملك وابنيه الوليد وسليمان متميزاً في تاريخ الحدود العربية -

البيزنطية، فقد تابعوا سياسة معاوية بإحاطة بيزنطية بالنفوذ العربي عن طريق عقد العهود والأحلاف ثم حماية من دخل في عهد العرب بحملات كبيرة ضد الأراضي البيزنطية ونتيجة لذلك أقام العرب والبيزنطيون وسائل الدفاع على جانبي حدودهما وأصبحت سياسة كل منها ترتكز على زيادة الجند وبناء الاستحكامات الجديدة.

لقد أحيا عبد الملك في نفوس العرب حب الجهاد ضد البيزنطيين والتطلع مرة أخرى لاحتلال عاصمتهم القسطنطينية وتابع الوليد فتوحات أبيه في آسيا الصغرى وحرص على الاستيلاء على المواقع المهمة في الطريق الرئيس المؤدي إلى القسطنطينية إذ بدأ بحملات استطلاعية وتمهيدية للزحف المباشر على القسطنطينية فقد حاصر مدينة طوانه مفتاح الطريق بين الشام والبغور والذي تسلكه الجيوش العربية في طريقها لمهاجمته القسطنطينية واستمر حصار العرب لمدينة طوانه عامين متتالين مما اضطر الحامية البيزنطية إلى الاستسلام بعد أن أنهك الجوع جندها ودخلت الجيوش العربية المدينة سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م.

استمرت السفن الحربية العربية في غاراتها البحرية على مدن آسيا الصغرى ونجحت في إشاعة الذعر في نفوس الجنود البيزنطيين خلال عامي ٩٢-٩٣ هـ / ٧١١-٧١٠ م وبعد سنة وصلت قوات بحرية عربية إلى مضيق البسفور على بعض المعاقل المهمة بالقرب منه وقد حاول البيزنطيون تجنب الصدام البحري مع العرب وإيقاف الزحف العربي صوب القسطنطينية فقد أعاد الإمبراطور البيزنطي أمير البحري العربي خالد كيسان إلى الخليفة الوليد بعد أن كان قد أسره الأسطول البيزنطي سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م وذلك بغية إعادة العلاقات الودية مع العرب المسلمين.

وبعد النجاح الذي لاقته الحملات العربية الاستطلاعية وظهور علامات الضعف والخور على البيزنطيين قرر الوليد إعداد حملة لمحاكمة القسطنطينية نفسها وأوكل مهمة قيادة الحملة إلى أخيه مسلمة ووصلت أخبار الحملة إلى العاصمة البيزنطية سنة ٧١٤ هـ / ٩٥ م فأرسل الإمبراطور البيزنطي انسطاس وفداً إلى دمشق للباحث في شأن عقد هدنة بين الدولتين ويبدو أن مهمة الوفد الحقيقة هي التجسس لمعرفة استعداد العرب المسلمين العربي والتحقق من صدق العرب المسلمين على مهاجمة قسطنطينية.

رجع الوفد البيزنطي من دمشق يحمل أخباراً محزنة للبيزنطيين فقد تحقق له عزيمة العرب على فتح القسطنطينية واقتراح الوفد على الإمبراطور البيزنطي انسطاس اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة وأخذ الإمبراطور بنصيحة الوفد فأعلن للناس أخبار الحملة العربية وطلب من كل مواطن أن يدخل من المؤونة ما يكفيه ثلاثة سنوات وأن يخرج من المدن كل من لم يستطع أن يدخل هذه المؤونة وجدد الإمبراطور أسوار المدينة سيما من الجهات المطلة على الماء وحصن الأسوار البرية بالآلات الحربية المختلفة.

مات الوليد والمسلمون منهمكون بتجهيز الحملة فتبني الحملة سليمان بن عبد الملك المشروع العربي لحصار القسطنطينية وتعاونت مصر والشام وشمال أفريقيا على إنجاح المشروع العربي بحصار القسطنطينية فأبحر أسطول من مصر إلى شواطئ الشام لجمع أخشاب من سواحل الشام لغرض صناعة حربية جديدة في دور صناعة السفن بمصر لمد الأسطول العربي المتوجه لحصار القسطنطينية بالسفن الحربية، وعمد الإمبراطور البيزنطي إلى مهاجمة الأسطول القادم من مصر وتخريب الأخشاب قبل وصولها إلى مصر.

ولكن محاولته باءت بالفشل لعصيان الفرق الإمبراطورية لأوامره لكراهيتها له، إذ أعلنت تمردتها ضده حين وصولها إلى جزيرة رودس وهي في طريقها لمهاجمة سواحل الشام وقتلت القائد الذي عينه الإمبراطور وعادت إلى القسطنطينية وعزلت الإمبراطور وعينت إمبراطوراً آخر.

أعد الخليفة سليمان بن عبد الملك معسكراً في دابق شمال الشام ليكون مقرًا لإدارة العمليات العسكرية ضد البيزنطيين وكان سليمان يشرف بنفسه على سير العمل في هذا المعسكر وأعطى الله عهداً ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى عاصمة الروم القسطنطينية.

قاد مسلمة بن عبد الملك الجيوش الإسلامية نحو القسطنطينية سنة ٩٨ هـ/٧١٧ م وأمر سليمان مسلمة أن يقيم عليها -أي على القسطنطينية- حتى يفتحها أو يأتيه وأرسل مسلمة كتيبة استطلاعية عبر آسيا الصغرى فتوغلت هذه الكتيبة في إقليم أناتolia (الإقليم الشرقي للإمبراطورية البيزنطية) حتى وصلت مدينة عمورية وحاصرتها وكان حاكم عمورية (ليو) يدين للإمبراطور السابق (أنططاس) ويناهض الإمبراطور الحاكم في القسطنطينية (ثاود اسيوس الثالث).

أراد حاكم عمورية (ليو) أن يستفيد من العرب لتحقيق مآربه الشخصية فقد أدرك أن العرب عازمين على مواصلة الزحف نحو القسطنطينية ولا طاقة له في مواجهة حصارهم لمدينة عمورية فتظاهر باستعداده لتقديم كل ما في وسعه للعرب ومصاحبتهم للتقدم نحو القسطنطينية أظهر ذلك لأنه أراد أن يصل بواسطة العرب إلى العاصمة نفسها ويخلع الإمبراطور ويستولي على العرش ثم يبدأ بحرب العرب، دخل (ليو) في مفاوضات مع العرب ونجح في إقناعهم برفع الحصار عن عمورية فملك قلوب سكان المدينة لأنه جنب مدينتهم ويلات الحرب

المدمرة فنادوا به إمبراطورا على البيزنطيين ثم صحب جيوش العرب المتوجهة نحو القسطنطينية.

تقدم (ليو) بجنوده الجيش العربي الإسلامي المتوجه نحو القسطنطينية وتمكن من هزيمة ابن الإمبراطور الذي اعترض طريقه ثم عبر (ليو) البسفور إلى القسطنطينية وتمكن من دخول المدينة من باب الذهب وبدأ بتوطيد وتثبيت مركزه فيها، استغل (ليو) الهلع والخوف اللذين أصابا سكان المدينة والذي سببه أخبار الحملات العربية ليجذب الأنصار حوله فقد أعلن أن العرب سيحاصرون المدينة لمدة طويلة بجيشهم القوي والكثير العدة والعدد، وأن الأمر خطير جداً ويطلب شخصية قوية وحازمة لمواجهةه وساعدت العناصر الآسيوية (ليو) في دعوه وانضممت إليه ونادت به إمبراطورا وفي سنة ٩٦٧هـ/١٧١٧م عقد اجتماع حضره كبار رجال العاصمة وتقرر فيه عزل (ثادواسيوس) عن العرض وتنصيب (ليو) إمبراطورا واستعد (ليو) لمواجهة العرب فأسرع في تحصين العاصمة وتقويتها لمواجهة الحصار العربي المتوقع.

وتقدمت الجيوش العربية نحو القسطنطينية واحتلت في طريقها مدينة برجم ثم عبرت الدردنيل عند أبيدوس وفي سنة ٩٦٩هـ/١٧٢٧م عسكرت القوات العربية أمام أسوار المدينة وكان الفرسان العرب قد مونوا أنفسهم بالمواد الغذائية التي يستوجبها الحصار الطويل، ثم دخلت السفن الحربية العربية مياه البسفور وتعاونت القوات العربية البرية والبحرية من أجل إحكام الحصار على المدينة واحتلت قطع من الأسطول البحري العربي مدخل البسفور الشمالي لمنع التموينات البيزنطية للمدينة والقادمة من الشواطئ الشمالية للبحر الأسود.

ثم أختل سير السفن الحربية العربية لسوء الأحوال الجوية ورداة الملاحة في المياه الإقليمية لمدينة القسطنطينية وبعث البيزنطيون سفنهم المزودة

بالنار الإغريقية ليزيدوا من متابع السفن الحربية العربية ورغم سوء الأحوال الجوية فقد استمر العرب يحاصرون المدينة ما عدا جهتها المطلة على القرن الذهبي الذي لم يتمكن العرب من محاصرته ثم جاء الشتاء القارس جدا الذي مكن المدينة من إطالة مدة مقاومتها للعرب وأثبتت العرب بأنهم أولوا بأس وعزّم شديدين فقد احتاطوا للعوامل الطبيعية القاسية إذ عملوا بيوتا من خشب شتوا فيها وزرعوا واقاموا محاصرين القسطنطينية قاهرين أهلها.

ووصلت نجات عربية عند حلول الربيع فقد جاء أسطول عربي من شمال أفريقيا وأخر من مصر وكذلك وصلت نجات عربية برية عبرت آسيا الصغرى عن طريق أبواب فيليقيار وعسكرت في نيقوميديا ونيقيا وأخذت النجات العربية البرية تهاجم إقليم اوبسيكيون الحربي لمنع السفن البيزنطية من الخروج لجلب التموينات للمدينة المحاصرة أو الذهاب لسواحل البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه الشمالية الغنية بحقول القمح.

استخدم المسلمون في حصارهم القسطنطينية النار وألات حربية أشبه بالمدفعية لدك أسوار القسطنطينية وقد أبلى الجندي العربي بلاءً حسناً في سبيل إعلاء كلمة الإسلام.

وبينما كانت القوات العربية البرية والبحرية تشدد حصارها على القسطنطينية توفي سليمان بن عبد الملك وخلفه عمر بن عبد العزيز الذي اتجهت أنظاره لسحب القوات العربية المحاصرة للقسطنطينية لأنّه كان يخشى على العرب المخاطر فأرسل في سنة ١٠٠هـ / ٧١٨م إلى مسلمة بن عبد الملك طالباً منه سحب جيشه وأساطيله والعودة إلى الشام.

وهكذا عادت الحملة العربية الكبرى إلى قواعدها بعد أن نجحت في حمل أباطرة بيزنطة على التخلّي عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة في استفادة الأراضي

العربية التي خضعت لهم قبل الإسلام لقد جنى العرب ثمار جهودهم ضد القسطنطينية حيث صرفاً أذهان الأباطرة عن التفرغ لدفع العرب عن شمال أفريقيا واعتبروا حماية هذا الإقليم في المرتبة الثانية بالقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم. وتمكن العرب من جعل شمال أفريقيا ركناً هاماً من أركان الدولة العربية الإسلامية وتعتبر هذه الحملة آخر حملة قام بها العرب لاحتلال القسطنطينية.

ويذكر أن أسباب فك العرب لحصارهم ضد القسطنطينية هو وقوف البلغار ضد العرب وقسوة الشتاء وقله التموينات الغذائية التي كانت تصل للمقاتلين العرب وإضافة إلى خديعة (ليو) للعرب.

ويبدو أن السبب الرئيسي هو أن عمر بن عبد العزيز كان يؤمن بعدم تهديد حدود العدو وعواصميه وإنما يكفي أن تحمي مداخل الدولة الإسلامية ولم يكن ينظر إلى هيبة الدولة وقوتها بقدر ما كان ينظر إلى سلامة المقاتلين العرب على مداخل حدود الدولة العربية الإسلامية.

الفصل الخامس

التنظيمات الاجتماعية
والاقتصادية

الأحوال الاجتماعية

استيطان العرب في خراسان:

تقع خراسان في الشمال الشرقي من العالم الإسلامي وهي تتصل بأواسط آسيا وببلاد الترك والصين، وتمر بها أهم الطرق التجارية العالمية مع الصين وببلاد الروس وقد دفع موقعها المنطرف المهم الإغريق إلى إسكان جالية يونانية فيها بعد أن كون الإسكندر المقدوني إمبراطورية، وقد تم فتحها في خلافة عثمان ابن عفان (رضي الله عنه) على يد القائد عبد الله بن عامر وبعد أن فتحها صيرها ربيعاً وولى على كل ربع والياً بحيث أن هذه التقسيمات احتجت إلى وجود حامية إلا أن هذه الحاميات كانت وقتية على الأرجح، وذلك لأنها انسحبت في فترة النزاع بين علي و معاوية.

ولما أسس معاوية دولته في الشام اهتم بمنطقة خراسان اهتماماً كبيراً ونظرًا لبعد الإقليم عن القواعد الإسلامية في البصرة والكوفة وصعوبة إرسال بعوث سنوية فقد قرر إنشاء قواعد ثابتة تقيم فيها القوات الإسلامية بصورة دائمة فتسسيطر على أقاليم الشرق وتدافع عن الحدود وتدفعها نحو الشرق تتسع بذلك رقعة الدولة الإسلامية وفي سنة ٤٥ هـ عين والي البصرة زياد بن أبيه أمير بن أحمر والياً على مرو مركز خراسان الذي استوطنهما وفي سنة ٥١ هـ وطن زياد خمسين ألف مقايل بعوائلهم (٢٥) ألف مقايل منهم كانوا في البصرة و(٢٥) ألف في الكوفة حيث استطاعوا توسيع حدود الدولة شرقاً حتى وصلت إلى أواسط آسيا وكانت خراسان وثيقة الصلة بالبصرة التي كانت قاعدة فتوح خراسان، ومنها كان أغلب المستوطنين العرب، والولاية اندمجت هذه القبائل مع السكان المحليين لتعمل معهم على إحياء الأرض وزراعتها وكانت ضريبة الخراج تجبي من العرب والموالي الذين امتهنوا الزراعة والتجارة وهكذا شرع العرب

ال المسلمين حال دخولهم خراسان في تشجيع سكانها على إصلاح الأرض بعد توزيعها بالعدل بين الناس، وكشف فاتح خراسان عبد الله بن عامر عهداً إلى كل من هراه يوشينج وباذغيس (جميعها من قرى مدن خراسان على إصلاح ما تحت يديه من الأراضي وأن يكون عادلاً في تقسيم الأراضي).

وهكذا استمر خلفاء بني أمية على تشجيع الهجرة إلى خراسان وفي الساحتين الشرقية والغربية وفي الاستقرار والعمل فيها كما حدث في خلافة عبد الملك والوليد ابنه وفي أرض الخزر أسكن مسلمة بن عبد الملك قوماً من ربيعة وعشرين ألفاً من أهل الشام على العطاء وبني هرباً للطعام وأخر للشعير وخزانة للسلاح.

استيطان العرب في أرمينيا وأذربيجان:

كانت بلاد أرمينيا خاضعة للروم، وقد تم فتحها في خلافة الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) حين أمر واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان، أن يوجه حبيب بن مسلم الفهري لطرد الروم عن أرمينيا، فتمكن حبيب من إجلاء الروم عن مدينة قالقلا في ضواحي خلاط بعد أن قاتلهم قتالاً شديداً فصالحوه على الجزية والخرج غير أن الروم ما لبثوا أن حشدوا قواتهم في وجه حبيب بن مسلم فاضطر إلى طلب الإمداد من الخليفة فأمدده معاوية بألفي رجل أسكنهم حبيب قالقلا ليرابطوا فيها وواصل حبيب فتوحاته في أرمينيا ففتح ديبيل والتقوى وجرزان وتقليس بمساعدة سلمان بن ربيعة الباهلي الذي أرسله الخليفة مدداه.

وهكذا أمره معاوية أن يسكن المقاتلين في مدينة قالقلا وكذلك أقطعهم القطائع وجعلهم قوة مرابطية في أرمينيا ومن الواضح أن حبيب بن مسلم كان يهدف من جراء ذلك إلى إنشاء قواعد عسكرية ثابتة في الأماكن الإستراتيجية من

أرمينيا وقرب الحدود البيزنطية لتأمين الأراضي التي تم فتحها من هجمات البيزنطيين المحتملة خاصة وأن مدينة قالقلا كانت من أهم المنافذ المؤدية إلى أرمينيا وأن موقعها مهم بالنسبة للعرب لأنها تواجه الأرمياق البيونطي الذي كان مصدر الخطر على أرمينيا لما فيه من قواعد عسكرية بيزنطية مقاتلة، وعلى الرغم من قيام معاوية بن أبي سفيان بتوطين ألفي رجل في مدينة قالقلا، إلا أن لم يبدو في نية الخلفاء العرب معاملة أرمينيا بنفس الصيغة التي عمّلت بها الأقاليم المفتوحة قبل خراسان وأذربيجان في العهود الإسلامية الأولى فيما يتعلق بتوطين العرب فيها لكونها منطقة جبلية وعراقة، صعبه المسالك لا مجال للتوسيع فيها فضلا عن وجود اتفاقية بين العرب والأرمن سكان المنطقة الأصليين في سنة ٥٣٣هـ/٦٥٤م نصت هذه الاتفاقية على المحافظة على استقلال أرمينيا ومقاومة كافة الاعتداءات الخارجية التي قد تتعرض لها خاصة من قبل البيزنطيين بعد تشكيل قوة عسكرية محلية قوامها (١٥) ألف مقاتل أرميني وفي حالة عجز هذا الجيش عن مقاومة هذه الاعتداءات فإنه يتم استدعاء قوة عربية لحماية حدود أرمينيا وقد تعهد العرب في هذه الاتفاقية بعد إرسال أي جندي إليها دون موافقة مسبقة من حكام أرمينيا.

وكانَتْ هذه الاتفاقيَّة من مصلحة كلِّ من العرب والأرمن على حد سواء فقد أمنَتْ طرح العرب في أبعاد الخطر البيزنطي من جهة عن أرمينيا والمحافظة على استقلالها وتحييدها في الصراع القائم بين العرب والبيزنطيين وبذلك أمنَ العرب على فتح الشام والجزيرة دون انشغال أنفسهم بهذه المهمة وما يرافقها من تعبئة الجيوش وتحمل النفقات الكبيرة للصرف على مثل هذه الحملات فضلاً عن أنَّ هذا الإجراء يقلل من احتكاك العرب بالبيزنطيين على الحدود الشرقيَّة للإمبراطوريَّة البيزنطية وقد تعهد الأرمن بتنفيذ الدور الذي كان يتحمَّله العرب في الدفاع عن أرمينيا ضد الاعتداءات الخارجية.

استفاد الأرمن من هذه الاتفاقية في تحرير بلادهم من السيطرة البيزنطية وتوحيد إدارتها وحكمها حكما ذاتيا كما استفادوا من إيجاد حليف قوي يتمكن من تجهيزهم بالمقاتلين في أوقات الشدة والخطر التي يتهدد فيها استقلالهم وحربيتهم كما حافظوا على تجانسهم القومي ونجحوا في الوقوف أمام استقرار العرب في بلادهم في هذه المرحلة ولقد التزم العرب بما ورد في هذه الاتفاقية وذلك بسبب انشغال الدولة في تسوية أمورها الداخلية التي تعرضت لها منذ النصف الثاني في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وحتى نهاية خلافة معاوية بن أبي سفيان ثم ظهر المعارضه أثر تولي يزيد بن معاوية الخلافة التي تمثلت في عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب في العراق حتى حلت المشاكل كلها في خلافة عبد الملك بن مروان حينما اضطر الخليفة عبد الملك إلى تعيين أخيه محمد بن مروان أميراً على أرمينيا لإعادة تحريرها من البيزنطيين فدخلها محمد بن مروان سنة ٧٣ هـ/٦٩٣م فأعاد أمنها واستقلالها ويبدو أنه ترك حامية عربية في مدينة نخجوان بلغ عدد رجالها (٨) ألف مقاتل فأصبحت هذه المدينة مقراً للقوات العربية كما أصبحت مدينة ديبيل مركزاً آخر للقوات العربية فهي تحوي حامية عربية تقدر بـ (٥٠٠) مقاتل.

ومن المدن الرئيسية الأخرى ذات الموقع الإستراتيجي التي غدت مركزاً للحاميات العربية مدينة باب الأبواب التي أسكن فيها مسلمة بن عبد الملك (٢٤٠٠٠) مقاتل على العطاء وذلك نظراً لأهمية هذه المدينة فهي منفذ الخزر للدخول إلى أرمينيا وجب تحسينها وشحنها بالمقاتلين القادرين على الدفاع وأن مسلمة بن عبد الملك نظم إسكان هؤلاء المقاتلين فقد أمر بتقسيم المدينة إلى أربعة أقسام خصص قسماً لأهل دمشق وقسماً آخر لأهل حمص وقسماً لأهل فلسطين والقسم المتبقى لأهل الشام والجزيرة كما أسكن مقاتلين عرباً في باب الملان الذي

بعد المنفذ الآخر لدخول الخزر إلى أرمينيا وذلك لحمايته وكان هؤلاء المقاتلون من أهل الموصل وديار ربيعة والشام.

لقد كان المقاتلون في العصر الأموي يصطحبون نساءهم وأولادهم معهم في الحروب ويهدف هذا الإجراء إلى مضاعفة قوة المقاتلين العرب وجدهم في المعارك كارتباط قتالهم بالدفاع عن أولادهم ونسائهم كما كان يهدف إلى استقرار بعض هؤلاء المقاتلين في المدن المفتوحة لضمان استمرار ولاتها للعرب.

والقوات العربية التي دخلت أرمينية منذ فتحها كان من أهل الشام والجزيرة، والعرب الذين هم من القبائل اليمانية والقيسية وكانت القبائل اليمانية الغالبة ومن أهم عشائرهم التي استقرت في أرمينيا:

- ١ بنو الحكم: وينسبون إلى الحارب بن ددة بن حرب بن سفيان من سهم بن الحكم، وهو من سعد العشيرة من مذبح واصلة من اليمن وقد برع من أبناء هذه العشيرة الجراح بن عبد الله الحكمي وأخوه عبد العزيز.
- ٢ الأزد: وهم فرع من القبائل اليمانية التي سكنت الجزيرة والموصل وكان محمد بن مروان قد نقلهم من البصرة أثناء إمارته على الموصل والراجح أنه أسكن قسمًا منهم في أرمينيا بعد إمارته عليها.
- ٣ كندة: وهم القبائل اليمانية التي سكنت الجزيرة ومن أبرز رجال هذه القبيلة عدي ابن عدي الكندي الذي أصبح أميراً على أرمينيا في خلافة عمر ابن عبد العزيز.

أما القبائل القيسية التي استقرت في أرمينيا واستوطنتها فهي:

- ٤ بنو سليم: وهم من قبائل القيسية التي استقرت في الشام والجزيرة العربية بعد الفتح العربي الإسلامي.

- بنو الحريش: وهم من بني كعب بن عامر بن صعصعة التي انتقلت إلى أرمينيا في خلافة هشام بن عبد الملك سار إليها برفقة قومه وأولاد عمها وسادت أهل الشام وموقد وهي امرأة أرمينيا مرتين وقائل الخزر.

- بنو عقيل: وهم من بني كعب أيضاً، كانت منازلهم الأولى شمال اليمامة ثم انتقل كثير منهم إلى الكوفة والبلاد الفراتية وتقلبوا على الجزيرة والموصل.

وكان إسحاق قائداً للقوات القيسية في أرمينيا التي بلغ عددها ستة وعشرين ألف مقاتل من الذين فرض لهم مروان بن محمد العطاء وبقي وأرمينيا بعد أن توجه مروان للسيطرة على الحكم في الشام وظل فيها حتى سقوط الدولة الأموية ومن سكن أرمينيا أيضاً من القبائل المصرية قبيلة باحلاة التي تتسب إلى باحلاة من مصر.

لقد قام العرب بدور بارز في حماية أرمينيا من السيطرة البيزنطية طيلة قرنين من الزمان، كما صدوا بالتعاون مع الأرمن هجمات الخزر المتالية مقدمين بذلك الألوف من الضحايا في سبيل تحقيق الأمن والاستقرار في هذا الإقليم، ولم يكتف العرب بالدفاع عن هذا الإقليم فحسب بل الهجوم على الأماكن التي تكون مصدر الخطر، فقد تمكن العرب في القرن الأول الهجري من الدخول في إقليم الخزر وفرضوا على حكامه وسكانه الإسلام فضلاً عن الضرائب الأخرى. كما أخضعوا الإمارات المتعاونة مع الخزر على طول امتداد جبل القفقاس وفرضوا عليها الضرائب المختلفة كما استغل الكثير من العرب بالتجارة والصناعة والزراعة وفي المهن المختلفة فنقلوا خبراتهم التي اكتسبوها من مواطنهم الأولى إلى هذا الإقليم والتي تفاعلت مع حضارته مما أدى إلى تقدمه وتطوره.

رعايا الدول العربية:

كانت قريش عندما جاء الإسلام من أرفع القبائل العربية وأكثرها غنى ونفوذا ولما جاء الإسلام أعز العرب وقرر مبدأ المساواة بينهم وظلت لهم السيادة في القرن الأول الهجري.

وكان العرب يتميزون حسب فضلهم وسبقهم في الإسلام الذي ساوى بينهم وبين بقية الأجناس والظاهر أن الدولة بعد الفتوحات خشيت على العرب من الضياع والاندماج في العناصر الأخرى التي دخلت الإسلام ولذلك اهتم الأمويون بصورة خاصة بهم ولم يحبذوا التزوج بأمهات الأولاد ولم يفضل الأمويين أبناء الأمة وبذلك حرم أولاد الإمامين من الخلافة مثلاً كما هو الحال في عدم عهد عبد الملك إلى ابنه مسلمة على الرغم من شجاعته وإخلاصه الأخير له في معظم الميادين وكذلك لأخوهه الذين جاءوا للحكم من بعد أبيه ومن رعايا الدولة الأموية:

الموالي:

المولى في اللغة لها معانٍ كثيرة فهي تطلق على النصير وعلى ابن العم وعلى المعتق وعلى الحليف وعلى السيد، أما الموالي تاريخياً فهم المسلمون من غير العرب وأن هناك أنواعاً كثيرة من الموالاة فهناك الأموali العناقة وهو الرفيق الذي اعتقه سيده وهناك مولي الولاء أو مولي الاصطناع وهو الحليف وكان يقول رجل لآخر ليس لي عشيرة ولا ناصر وإنني أنضم إليك وإلى عشيرتك فإن مت كان ميراثي لك فيعقد بينهما الموالاة وقد اعترف الإسلام بهذا النوع من الولاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مولى القوم منهم وحليفهم منهم).

وكان العرب يطلقون على الموالي الفرس لفظ (الحمراء) كما كانوا يسمونهم العجم وقد دخل الموالي في الإدارة ومنذ العصر الأموي وخاصة الإدارة المالية وكذلك جندوا في الجيش في الأقسام الشرقية من الدولة الإسلامية.

ثم بُرِزَّ منهم العديد في العلوم النقلية والعلقية وسكنوا في الكوفة والبصرة والفسطاط ودمشق والمدينة والقيروان ولعل نبوغهم هذا يرجع إلى أنهم انصرفوا إلى الثقافة منذ العهود الإسلامية الأولى فقد أتقنوا اللغة العربية وهي لغة العرب الفاتحين والدين الإسلامي الذي ساد في الدولة العربية الإسلامية وهذا كانت كتاباتهم باللغة العربية التي كانت لغة المخاطبة والعلم للفكر العربي الإسلامي.

وقد ساوى الإسلام بمبادئه السمحاء بين كل من المسلمين "لا فضل عربي على أعمي إلا بالتفوي" وبرز من الموالي في العهود الإسلامية الولي بل الحبشي مولى ابن بكر أول مؤذن في الإسلام وسلمان الفارسي المقرب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصهيب الرومي الذي عينه عمر بن الخطاب ليصل إلى المسلمين لما طعن طعنة الموت وأمره عمر بن الخطاب كذلك أن يساوي الموالي بالعطاء بمولاه وأمر الولاة أن يتساوا والرعاية بالعطاء، كما ظهر بعض الموالي وبرز في ميدان الحروب أمثال موسى بن نصير فاتح الأندلس ولكن وجد منهم من كانت أعمالهم وأفكارهم سلبية تجاه العرب والإسلام وأنهم اعتنقوا الإسلام خوفاً لا رغبة ومن نتيجة هذا ظهر بعض التناقض في أعمالهم تجاه العرب والإسلام بإثارة الفتنة وأن الخليفة عمر بن الخطاب نفسه طعن بخجر مجوسي وأن الحركات الهدامة المعادية للعرب والإسلام كان منشؤها من بلاد العجم وإن من بينهم من حاول الوقوف حتى أمام تعرية الدواوين في اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية عندما حاول الموالي إعطاء مائة درهم إلى صالح بن عبد الرحمن حينما كلفه الخليفة عبد الملك عن طريق واليه الحاج بتعرية

ديوان الخراج في العراق من اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية وقدم له مائة ألف درهم فقط لإظهار العجز في عملية التعريب هذه، ولما رفض صالح هذا العرض وأتم عملية التعريب قال له مروان بن فروخ -كاتب ديوان الخراج- الله قطع أصلك من الدنيا متلما قطعت أصل الفارسية من الديوان وهذا ما يجسد شعوبية بعضهم وحدهم على العرب ولا بد من الإشارة هنا إلى أنهم برعوا في فن الكتابة واتخذ خلفاءبني أمية كتابهم منهم أمثال الخليفة معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز، وكان عبد الحميد الكاتب لمروان بن محمد من أبرز الكتاب في كتابة الرسائل وأبلغهم.

أهل الذمة:

يطلق هذا الاصطلاح تاريخياً على أهل الديانات الأخرى من اليهود والمسحيين الذين سموا كذلك (المعاهدون) أو أهل الكتاب، وكان أهل الذمة في داخل المجتمع العربي الإسلامي يتمتعون بقسط وافر من الحرية الدينية والشخصية مارسوا طقوسهم الدينية وخضعوا في الأحوال الشخصية إلى رؤسائهم الروحانيين وقد عفى الإسلام أهل الذمة من الخدمة العسكرية حيث أصبحوا في ذمة الحاكم المسلم الذي كان يدافع عنهم مقابل دفع ضريبة محددة من الجزية، وكان مقدار الجزية يسمى دفع ضريبة محددة من الجزية، وكان مقدار الجزية يسمى بضريبة الرأس محدداً بدينار واحد في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم قسمهم عمر (رضي الله عنه) إلى ثلاثة أصناف الغني يدفع أربعة دنانير والمتوسط يدفع دينارين والفقير يدفع دينار واحد، ويعفى كل من المرأة والشيخ والطفل والراهب والفقير.

ويذكر أن بعض الخلفاء ومنهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) خصص لأهل الذمة ممن يعانون من أمراض فرضة مبلغاً من الصدقات كما كان

الحال في إقليم الجابية في الأردن في سنة ١٨ هـ كذلك فعل عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) مع العجزة من أهل الذمة في جملة إصلاحاته المشهورة وأشتهر من الذميين في الطب أمثال الطبيب ابن أثال وأبو الحكم النصراوي وكذلك أشتهر منهم بترجمة علوم اليونان إلى السريانية والعربية.

الأحوال الاقتصادية (الزراعة ومشاريع الري):

شهد العصر الأموي نشاطاً زراعياً واسعًّا كان وليد الأساس والقواعد التي وضعَت في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) في مجال الإقطاع الأحياء وطرق الري ووسائله ولهذا بعد العصر الأموي استمراراً ومتناً للنظام الراشدي، غير أن الأمويين ومنذ قيام حكمهم (٤١هـ/٦٦١م) قد صادفوا ظروفاً مالية صعبة كانت وليدة أمور سياسية وعسكرية وعمرانية وإدارية استوجبت منهم أن ينهجوا سياسة مالية مغایرة لما كان سائداً في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والعهد الراشدي وإنعكست هذه السياسة وأظهرت أثارها في الحقل الزراعي وسوف نفصل كل قسم وكما يلي:

الإقطاع والقطائع:

جمع الأمويين في سياستهم بين سيادة الملكية الصغيرة من جهة وسيادة الملكية الكبيرة من جهة أخرى، ومركز خلفاء أمية وبعض ولاياتهم الكبار في منهم القطائع على بعض قواعدهم وعمالهم وأقربائهم وأولادهم من بنين وبنات واقطعوا جنودهم أيضاً وشجعوا على الاستقرار والعمل في الحقل الزراعي.

وقد قطع معاوية قطائع عديدة لمن ينزل السواحل منذ أن كان والياً على الشام في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وذلك بغية تحصينها وتعزيز قوتها لمحاباه الأعداء، وبعد أن تولى الخلافة (٤١هـ/٦٨٠م) وكذلك لقطع قطائع عديدة في الحجاز لبني أمية فاقطع (ذلك) لمروان بن الحكم إلا أن

الأخير أهداها لأبن عبد الملك فصارت للوليد وسليمان أولاد عبد المتك من بعد وفاته، وفك أرض زراعية استصفاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) لنفسه كان يعطي منها لأبناء السبيل وفي العراق أقطع معاوية الحسن بن علي (رضي الله عنهما) (عين الصيد) ومن الواضح أن معاوية أقطع الحسن (رضي الله عنه) بداع سياسي.

وقد أقطع الخليفة عبد الملك بن مروان الحاج بن يوسف التقفي إقطاعات عديدة في فلسطين وببلاد الشام والعراق وكان خلفاءبني أمية يفضلون إقطاع الأراضي لبعض ولاتهم بدلاً من إعطائهم راتباً معيناً وفي مجال قطع الأراضي للنساء فقد أقطع الحاج خيرة بنت ضمرة امرأة المهلب بن أبي صفرة عباسان في البصرة وكان ذلك تقديراً للمجهود زوجها في حربه على الخوارج.

إحياء الأرض واستصلاحها وزرعها:

واجه خلفاءبني أمية -ومنذ قيام حكمهم- مشاكل مالية واقتصادية جسيمة وكانت وليدة أمور سياسية وعسكرية وإدارية و عمرانية وبذلوا جهوداً كبيرة في تذليلها واتخذوا تدابير منها عاجلة ومنها أجله وضعها بعضهم بالإيجاب ونعتها بعضهم الآخر بالسلب والخروج عن القيم والتقاليد والمبادئ الإسلامية ومن أهل الذين قاموا بتدابير إحياء الأرض واستصلاحها هو معاوية بن أبي سفيان (٤١-٩٩هـ).

فقد واجهت معاوية وقت وصوله إلى الخلافة أزمة مالية خانقة ففي:

- بلاد فارس حاول معاوية الاستعانة ببعض أموال هذه البلاد ولكن دون جدوى فكتب إلى زياد بن أبيه وكان والياً على هذه البلاد في خلافة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) "إن في يدك مالاً من مال الله وقد وليت ولاية فأد ما عندك من المال" فكتب زياد إليه "أنه لم يبق عندي شيء من

المال وقد صنعت ما كان عندي في وجهه واستودعت بعض المال لنازلة نزلت وعملت ما فضل به أمير المؤمنين رحمة الله.

- وفي العراق: لم يحصل معاوية على شيء من بيت مال الكوفة التي كان عليها الحسن بن علي (رضي الله عنهما) ولا مما كان في قبضة عبد الله بن عباس الذي سبق أن ولأه على بن أبي طالب (رضي الله عنه) على البصرة ويدرك أن من جملة شروط صلح الحسن (رضي الله عنه) لمعاوية كان أن يكون للحسن خراج دار أبجرد وما كان في بيت مال الكوفة والبالغ خمسة آلاف درهم. كما أشترط الحسن على معاوية أن يبعث لأخيه الحسين (رضي الله عنه) ألف ألف درهم سنويا وأن يقدمبني هاشم علىبني عبد شمس في العطاء فأجابه معاوية كما صالح عبد الله بن عباس شروط اشتراطها بنفسه منها الأموال التي أصابها فشرط ذلك له معاوية.

- وفي مصر: صارت مصر طعمه خالصة لعمرو بن العاص شرطها له معاوية يوم بايع ونسخة الشرط "هذا ما أعطى معاوية بن أبي سفيان عمرو ابن العاص، أطعاه أهلها، فهم له حيانه، ولا تنقص صاعته شرطا".

- وفي فلسطين: غالب نائل بن قيس الجذامي وأخذ بيت مالها.

- خطر الروم: واجهه معاوية خطرا جديدا جاء من الخارج فقد بلغه طاغية الروم قد زحف في جموع كثيرة فخاف أن يشغله مما يحتاج إلى تدبير وأحكام فوجه إليه، فصالحه على مائة ألف دينار، وكان معاوية أول من صالح الروم وكان صلحه إياهم في أول سنة ٤٢ هـ.

- الحاجة إلى الأموال: وكان الأمويون بحاجة إلى الأموال الكثيرة لسد حاجات البلاط والفتوات ولتهيئة الثورات.

أما تدابير معاوية في معالجته هذه الأزمة المالية فقد اتجهت سياسته نحو اتخاذ تدابير مالية واقتصادية عاجلة وآجلة يمكن تركيزها مما يأتي:

- مشاطرة عماله الأموال: وأول من شاطر ماله كان عمرو بن العاص بعد وفاته سنة (٤٣-٦٦٣م) ولم يكن يحث لمعاوية عامل إلا شاطر ورثته ماله وكان يردد دائمًا هذه سنة سنها عمر بن الخطاب.
- استصفاء أموال الناس، ولم يكتف معاوية باستصفاء أموال عماله بل إلى استصفاء أموال الناس.
- فرض الزكاة على الأعطيه.
- فرض هدايا النوروز والمهرجان.
- استعانة معاوية ببعض واردات البصرة.

استصفاء الصواخي:

كان على رأس التعبيرات المالية التي ينهجها معاوية تلك التي ركزت في إحياء الأرض واستصلاحها وزرعها، حيث رأى فيها المورد المالي الثابت لذلك وجه معاوية عنایته البالغة نحو استصفاء الصواخي واستصلاح البطائح وإحيائها وزرعها وقد بذل معاوية جهوداً كبيرة في تحسين الزراعة وتطويرها فقام بإنشاء مشاريع ري عديدة فأحيا بذلك أراضي واسعة من عملية الإنتاج الزراعي.

والصواخي هي تلك الأراضي الخاصة بال الخليفة وهي ملك للدولة وتعود عملية استصفاء الصواخي إلى عهد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب حيث أصفي من هل السواد عشرة أنواع هي:

- ١- أراضي كسره ٢- أراضي غيره من أفراد العائلة ٣- أوقاف دائرة البريد وطرق البريد ٤- أوقاف بيوت النيران ٥- الآجام ٦- أراضي من قتل في الحرب

٧- مقاييس الماء والمستقعات كالبطيحة في جنوب العراق ٨- أراضي من هرب من أهل البلاد في فترة الحرب ٩- كل صافية اصطفاها كسرى ١٠- أرجاء (الطواحين).

وكانت في بلاد الشام صواف أخرى، فلما هزم الله الروم وهرب تلك البطارقة لحق ما كان بأيديهم من مزارع وقرى وصارت صافية للمسلمين وكذلك كانت هناك صواف في الجزيرة واليمن والحجاز (مكة والمدينة) وقد حظيت بنصيب وافر في سياسة معاوية بن أبي سفيان صوب البطائح واستصلاحها وزرعها وعلى ضوء هذه التدابير والمنجزات المالية الإصلاحات الزراعية استطاع معاوية أن يخطئ أزمه المالية وقد ساعد له ذلك ولاته وعماله خراجع إذ كان في العراق زياد بن أبيه، والمغيرة بن شعبة، وعامله ابن آثار النصراني كاتبه على خراج حمص وسرجون بن منصور الرومي كاتبه وصاحب أمره.

مظاهر عامة أخرى في إحياء الزراعة:

لم تقتصر سياسة الأمويين الزراعية على استصفاء الصواخي واستصلاح البطائح فحسب، وإنما تناولت إحياء أراضي أخرى متعددة شملت مختلف الأمصار الإسلامية التي كانت بحوزتهم وقد ربط الأمويون في سياساتهم الاستزراعية بين قطع الأرض ومنحها من جهة وبين أحياها وزرعها وعدم تحجيرها من جهة أخرى، كما شجعوا الناس على العمل الزراعي وأبدوا عليه اهتماماً بالفلاحين وأسهموا من بيت المال في الصرف والإإنفاق على الشؤون الزراعية وتعود عملية إحياء الأرض وزرعها إلى عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان وواليه زياد بن أبيه بحيث ربط زياد بن أبيه بين عملية اقتطاع الأرض وبين إحيائها فكان لا يقطع أرضاً لشخص حتى يقوم بإحيائها وإذا أقطع لرجل وتمضي سنتان ولم يعمرها يأخذها منه.

وهكذا أستمر ولادة بنى أمية في الاهتمام بالزراعة، ففي العراق أولى الحاج بن يوسف التقى عنابة واهتماما وأنه قام بدور مهم وأساسي في استصلاح البطائح وخاصة عندما تقدم مسلمة بن عبد الملك وعرض عليه مبلغ ثلاثة ملايين درهم لاستصلاحها، وكان الحاج المشرف المباشر على الصرف والإنفاق ولما بنى الحاج مدينة واسط احتضر النيل والتراب وأحياناً على هذين النهرين الأرض وكان الحاج يقوم بجولات تفقدية في الحقول الزراعية ويستفسر من الفلاحين على أحوالهم وأحوال غلاتهم الزراعية ولم يكتف بذلك فسحب بل أنه كان يأمر بإقامة حفلات رسمية في مدينة واسط في أوقات نضوج بعض الغلات الزراعية. وفي مصر أولى عبد العزيز بن مروان في خلافة أخيه عبد الملك عنابة كبيرة لشؤون مصر الزراعية فشجع إلى زراعة أشجار النخيل والكرم والتين.

وفي الجزيرة شجع الوليد بن عبد الملك وأخوه مسلمة على إحياء بعض أراضي الجزيرة وزرعها وحفر الأنهر فيها، وكذلك اهتموا بالأراضي الزراعية في أذربيجان الواقع أن الأمويين أسهموا من بيت مال إلى جانب رؤوس الأموال الفردية مساهمة فعالة في إحياء الأرض وزراعتها بحيث أن الحاج أقرض الفلاحين مليون درهم من بين المال تشجيعاً لهم على القيام بأمورهم الزراعية، وأن عمر بن عبد العزيز لم يكن يتوانى عن القيام بصرف الأموال من بين المال في سبيل إحياء أرض الصواхи وزرعها وبهذا أصبح بيت المال الأموي بمثابة بنك التسليف الزراعي ومن مظاهر اهتمام الأمويين بالحاصلات الزراعية ما كان قد أبدوه من اهتمام كبير بإنشاء مخازن خاصة لحفظ الأطعمة والحبوب من التلف، فقد شيد زياد بن أبيه داراً للزرق في البصرة لخزن الحبوب وعين الحارث بن نوفل عاملأً فيها.

كان لعملية مسح الأراضي أهمية أساسية في الكشف عن طوبغرافية الأرض وتمهيد الطريق إلى معرفة قابليتها الزراعية والإنتاجية وإقامة العديد من مشاريع الري فيها، وأول من وضع الأساس الأولى لعملية مسح الأرض في العراق الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقد تميزت عملياته باتجاهين رئيسيين الاتجاه الأول: المسح العام الذي قامت به اللجنة التي شكلها عمر بن الخطاب والمتكونة من عثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان لمسح أرض السواد ولما جاء الأمويون اعتمدوا مسوحات عمر (رضي الله عنه) أساساً لعملية المسح مع التركيز في العملية نفسها مع ما قام به كل من زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف التقيي اللذين يرجع إليهما الفضل في عملية مسح الأراضي تركزت في السواد وأن زياد بن أبيه قد أبتكر وحده قياسية سميت (بالزراع الزيادي) والتي تساوي وفق حساباتنا الآن (٦٦,٥ سم) وهناك مسوحات في مصر اتخذت الفدان وحدة قياسية، وهكذا استمر الأمويين في المسح العام ولمختلف الخلفاء إذ قام عمر بن هبيرة بمسح عام لمنطقة السواد في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ، والتي استمرت في العصر الأموي أهمية كبرى في إنشاء العديد من مشاريع الري التي لعبت دوراً كبيراً في الحملات الاستزراعية الكبيرة التي قام بها معاوية بن أبي سفيان فأرسست بذلك قواعد للدولة المالية وأنقذت الخزينة من أزمتها المالية وقد تتبع الحملات الاستزراعية الأخرى بعد ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حتى بلغت ذروتها في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٢-١٢٥ هـ) وواليه خالد بن عبد الله القسري.

وقد وسع الخلفاء الأمويون وولاتهم وطوروا مشاريع الري التي وضعت أساسها خلال العصر الراشدي فقد شهد العصر الأموي نشاطاً واسعاً في هذا المجال تجلى في حفر الأنهر وشق القنوات والجداول وإقامة السدود وأحواض

المياه وإنشاء الجسور والقناطر ونصب آلات مقاييس الماء وسوف نتطرق إلى الخلفاء الأمويين بالترتيب في سرد أعمالهم في مشاريع الري.

-١ في خلافة معاوية بن أبي سفيان: في خلافة معاوية بن أبي سفيان وولايته على البصرة زياد بن أبيه، بذلك جهود كبيرة في هذا المجال وكان زياد بن أبيه قبل أن يوليه معاوية ولادة البصرة مسؤولاً عن الديوان وبيت المال في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في البصرة، وفي ولادة عبد الله بن عامر بدأ نشاطه في حفر الأنهر وقد نشط في حفر الأنهر أول ما جاء لولادة البصرة في عهد الخليفة معاوية، بحيث أصبحت البصرة عبارة عن شبكة من الأنهر والقنوات والجداول بحيث انتعشت الحياة الزراعية ووصلت واريتها إلى سينين مليون درهم، أما في الكوفة فقد أقيمت الجسور والقناطر وفي خراسان شيدت قناطر على ثلاثة أنهار في بلخ فقيل لها قناطر عطاء.

-٢ في خلافة عبد الملك وابنه الوليد: نشطت حركة مشاريع الري نشاطاً واسعاً في خلافتي عبد الملك وابنه الوليد بحيث بذل ولاة هذين الخليفتين جهوداً كبيرة في هذا المضمار شملت مختلف الأمصار الإسلامية، وكان والتي العراق الحجاج الذي قدم العراق سنة ٧٥هـ وقبل اتخاذ واسط مركزاً لولايته في العراق، أراد نزول الصين من كسر. ثم لما أتُخذ واسط واحتقر النيل والزاب أحيا ما على هذين النهرين من الأرض وأحدث المدينة التي تعرف بالنيل ومصرها، والنيل نهر كان يأخذ من الفرات مياهه إلى دجلة في منطقة تقع شمال مدينة بابل وقد سماها الحجاج بالنيل تيمناً بنيل مصر العظيم وبنى مدينة النيل التي تقع بين بغداد والكوفة وكانت أجمل مدينة في الناحية كلها، وأطلالها اليوم بن المدحتية قرب الفرات والنعمانية على دجلة والتي تسمى بـتل النيل والنيليات التيلية وقد أكمل الحجاج حفر نهر

الأنهار وفي الموصل ولـى عبد الملك بن مروان ابنه سعيد عليها فحفر نهرًا فيها سمي باسمه وفي الجزيرة قام سعيد بن عبد الملك أيضًا في خلافة أخيه الوليد بحفر نهر فيها وعمر ما هناك من أراض و كان يقال له سعيد الخير.

-٣- وفي مصر: أقام عبد العزيز بن مروان مقاييساً للماء في منطقة الجزيرة (بين الفسطاط والجizra) وكانت تدعى جزيرة النساء، وكذلك بنى قنطرة في الفسطاط سنة ٦٩ هـ وقام بتشييد قنطر أخرى عندما كان والياً على مصر لأخيه عبد الملك.

-٤- وفي الحجاز: أمر الوليد بن عبد الملك واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز بحفر آبار فيها وتم ذلك في عام ٨٨-٧٠ هـ.

-٥- وفي فلسطين: بنى سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة ومصرها واحتفر لأهلها قناتها التي تدعى بربدة واحتفر آباراً فيها.

-٦- في خلافة عمر بن عبد العزيز: ولما تولى عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ) الخلافة أولى عناية باللغة لمشاريع الري لما رأى فيها من أهمية في إحياء الأرض واستصلاحها حيث تم حفر نهرين في البصرة ومن مظاهر اهتمام عمر بن عبد العزيز بالماء والآبار والجداول أنه كتب كتاباً إلى عمالة قال فيه: "غلب الماء على شيء فهو له".

-٧- في خلافة هشام بن عبد الملك: يظهر أن حركة إنشاء مشاريع الري قد بلغت أوج عزها وتقدمها في خلافة هشام بن عبد الملك (١٢٥-١٠٥ هـ) ولعل الأسباب التي أدت إلى ذلك هو ميل الخليفة في امتلاك الضياع الواسعة وما كانت تدر عليه من غلات وواردات طائلة وقد ساعد على ذلك طول مدة خلافته البالغة عشرين عاماً، فضلاً عما أبداه ولاته من نشاط واسع في هذا الميدان شمل مختلف الأمصار الإسلامية ويبدو أن العراق بمدنه الثلاث

البصرة، وواسط، والكوفة كان المحور الأساسي التي ترکزت فيه حركة إنشاء مشاريع الري المتعددة في حفر الآبار وشق القنوات والجداول وإقامة السدود والقنطر و قد حظي بنصيب وافر في هذه الميادين في خلافة هشام وولاية خالد القسري عليه.

الجزية والخارج

إصلاحات عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠٥ هـ):

لما جاء عمر بن عبد العزيز إلى الخلافة أبدى مرونة وبعد نظر فائفين في الناحية المالية، بأن وضع حلا يحفظ حقوق بين المال ويراعي مبادئ الإسلام حتى سمي بعمر الثاني فقد ميز ولأول مرة في تاريخ المسلمين بين الجزية والخارج وعدّ الجزية ضريبة يدفعها غير المسلم وتسقط عنه بإسلامه أما الخارج فعده إيجارا للأرض وقال بأن أرض الخارج كانت أولاً ملكاً مشتركاً بين المسلمين وأنها تركت بين المغلوبين يزرعونها لقاء إيجار يدفعونه للأمة الإسلامية وهو الخارج ولذلك فعل المسلم حيث يشتري أرض الخارج أن يدفع خراجها كإيجار للأرض إذ هي وقف للمسلمين.

وفي حالة إسلام الذمي يعفى من الجزية ولكن أرضه تبقى خراجية، وكانت نظرته للصواخي تدل على اهتمام بشؤون الخزينة، فإنه لم يتوجه إلى إقطاعها بل فضل أن تعطى بالزراعة بالنصف وما لن تزرع فأعطوها بالثلث فإن لن تزرع فأعطواها حتى بلغ العشر فإن لم يزرعوا أحد فامنحها فإن لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين ولكنه لم يتعرض للإقطاعات التي وهبها أسلافه، بل أقر القطاعات التي أقطعها أهل بيته.

إصلاحات الأشرس بن عبد الله السلمي ونصر بن سيار:

إن سياسة عمر بن عبد العزيز توقفت بوفاته الفجائية في سنة ١٠١ هـ إلا أنها تركت أثرا عميقا في سياسة الأمويين المالية والزراعية، تجلت بصورة واضحة خاصة في محاولتي الأشرس بن عبد الله السلمي وبنصر بن سيار، إذ كان الأول عامل هشام بن عبد الملك في خراسان للفترة ما بين (١١٧-١٠٥ هـ / ٧٢٩-٧٢٧ م) إذ حاول الأشرس أن يعفي المسلمين في ما وراء النهر من الجزية، فنجحت دعوته لدرجة كبيرة، فرغم الولي ل征收 الوارد من جهته وتذمر الدهاقين لأنهم لا يودون نشر دين فيه روح المساواة، بحيث جاء دهاقنة بخارى إلى الأشرس يذكرون له بال征收 الذي حصل وقالوا له: "من تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا" فكتب إلى عاملة على الخراج "أن يأخذوا الخراج من كانوا يأخذونه منه، فأعادوا الجزية على من أسلم".

وهكذا كان دور دهاقنة الفرس واضحأ في عرقلة الإصلاح أما نصر بن سيار (١١٦-١٢٦ هـ / ٧٤٨-٧٣٨ م) فقد وضع حلا عادلا ثابتا لمشكلة الضرائب في خراسان وقد تصرف وفق أسس سياسة عمر بن عبد العزيز في العراق، فقرر إعفاء المسلمين من الجزية ولم يجد صعوبة في ذلك إذ وجد ثلاثة ألف رجل يدفعونها وثمانين ألف رجل من المشركين رفعت عنهم الجزية وكان أكثرهم من أعون الدهاقين، فأعاد عليهم الجزية وعفا المسلمين ثم قسم أراضي خراسان إلى مناطق فرض على كل منطقة كمية ثابتة معينة تجبى على الأرض مهما كان دين مالكها وكان هذا التدبير ضربة عالية قوية للدهاقين أفقدتهم أغلب امتيازاتهم يسرعون بالانضمام للدعوة العباسية وهكذا جاءت إصلاحات الأشرس ابن عبد الله السلمي ونصر بن سيار متاخرين في الوقت الذي كانت فيه الدولة الأموية تسير نحو الانهيار والسقوط.

يذكر البلاذري، أنه لما أتم فتح العراق والشام، الخليفة "الراشد الثاني" عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهياً الخراج، جمع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال لهم: إني قد رأيت أن أفرض العطاء لأهله فقالوا له: نعم الرأي يا أمير المؤمنين ومن ثم استشارهم بمن يبدأ فأجابوه: إبدأ بنفسك فرفض وقال لهم: ولا ولكنني أضع نفسي حيث وضعها الله وإبدأ بالبيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهكذا فقد وضع العطاء بحسب القرابة والسابقة والفضل والحاجة، وببدأ بأزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم لعلي (رضي الله عنه) ومن ثم من شهد بدرا من المهاجرين والأنصار ولأبناء البدرين إلا حسنا والحسين (رضي الله عنهم) فرض لهما ما فرض لمن شهد بدرا وكذلك فرض عطاء للمرأة والطفل الرضيع فإذا كبر زاد من عطاءه وفرض عطاء خاصا لكل من شهد القادسية وساوى في العطاء فلحق الموالي بمواليهم ومن هذا يتبين أن عمر فرض العطاء وأراد أن يدون هذا العطاء فدون الديوان وكان ذلك في سنة ٢٠ على الأرجح فعين لجنة تكون من مخرمة بن نوفل وجابر بن مطعم وأمرهما أن يكتبوا الناس على منازلهم لما انتهت اللجنة من عملها سجل المعلومات في سجل وكان أول ديوان (سجل) يتوضّح من أحد من لم يأخذ وهذا كان ديوان الجندي للمقاتلة بأسمائهم وأعطياتهم حتى يتفرغوا للجهاد في سبيل سيادة الإسلام وكذلك رغبة عمر (رضي الله عنه) في جعل أمّة العرب أمّة عسكرية وإن هؤلاء المقاتلة يأخذون عطاء ليتفرغوا للمهام العسكرية ولا يشغلوا بأمور حاجتهم أثناء أوقات السلم.

وما تجدر الإشارة إليه أن عمر (رضي الله عنه) عندما أراد فرض العطاء وجمع الزكاة من المسلمين وجد هناك اختلافاً في وزن الدرارم الواردة من العراق وغيرها فأمر كذلك أن تتساوى هذه الدرارم بالأوزان، قال: "انظروا

الأغلب مما يتعامل به الناس من أعلىها وأدنها. فجمع بين الأعلى والأدنى وأخذ وسطها فكان وزن الدرهم الإسلامي وتنفق المصادر على أن عمر (رضي الله عنه) قد أوضح سياسته المالية في توزيع العطاء أمام صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ففرض العطاء أو لا ثم دونه كان الديوان (ديوان الجند) وعلى هذا فقد ساوى عمر كل طبقة في العطاء مع موالיהם. ولكن الأحوال لم تبق فقد تبدل الوضع وخاصة في العصر الأموي واحتياج خلفاء بني أمية للمال أولاً للسيطرة على الوضع الداخلي وثانياً للإنفاق على حاجات دولة متطرفة في مجتمع متحضر في الشام وثالثاً لتوسيع إدارة الدولة وزيادة نفقاتها وهذا ما رأيناه في تدابير معاوية المالية عندما واجهته الأزمة المالية حال مجئه للخلافة، ويطهر أن سياسة الدولة الأموية العربية وتأكيدهم على هذه الناحية استوجبه تعديل على سياسية الدولة الرشيدة وعليه فهو يعتبر عصراً متقدماً للنظام الرشيد ومهداً للنظام العباسي فقد دفعهم أن يهتموا أكثر في الزراعة والحاصلات لحفظ الأطعمة والحبوب من التلف، فقد شيد زياد بن أبيه داراً للرزق في البصرة لخزن الحبوب في خلافة معاوية بن أبي سفيان وفي أرض الخزر أسكن مسلمة بن عبد الملك قوماً من ربيعة وعشرين ألفاً من أهل الشام على العطاء وبنى هرياً للطعام وهرياً للشعير وخزانة للسلاح.

على أن الإصلاحات الداخلية التي تمت في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) تدلل على سمو روح الإسلام وعظم مبادئه وتوجيهاته وتدل ذلك على عبرية هذا الخليفة العظيم، وأنها أعمال لو تمت في العصر الحديث لكانت مخرجاً ومنها أن تعهد الأيتام وكفالهم ورتب لهم المؤدبين ورتب لهؤلاء الأرزاق المنتظمة كما رتب من يقود المبصرين ووضع المجنومن في بيت برعاهم طيباً حتى لا يخرجوا إلى الناس بعاهاتهم ورتب لهم الأرزاق وعين لكل مقعد خادماً يهتم بأمره وأجرى لهم الأرزاق. ولما انتقلت الخلافة إلى عمر بن

عبد العزيز (١٠١-٩٩هـ) كانت الحالة الاقتصادية قد وصلت إلى مستوى يدعو إلى الدهشة فتؤكد المصادر التاريخية أن الفقر والعزوز قد اخْتَقَا في عهد هذا الخليفة الزاهد حتى قيل إن دافع الزكاة لا يجد من يأخذها منه، ويرى أنه عندما جيء بصدقات أفريقياً وطلب القراء لإعطائهم هذه الصدقات لم يجدوا فقيراً، فاشترى بتلك المبالغ رقاب فأعتقدت ومن سياسة عمر بن عبد العزيز أنه رفع زرق العامل (راتبه) إلى ثلاثة دينار ولما سُئل لماذا أجاب أردت أن أغنيهم عن الخيانة.

الفصل السادس

التنظيمات
الإدارية والعسكرية

الخلافة:

لم يستخلف علي بن أبي طالب أحداً، فانتخب الكوفيون ابنه الحسن لتوفر شروط الخلافة فيه، ثم تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان الذي كان له الأثر الكبير في تطور الخلافة الإسلامية وذلك بإدخاله مبدأ الوراثة سنة ٥٧ هـ/٦٧٦ م في محاولته للحصول على البيعة لابنه يزيد مما أثار سخط العرب وبعض الأمويين لأن ذلك يتنافى مع الإسلام الذي لا يعتبر الخلافة ملكاً متوارثًا يمكن أن يورثها الخليفة لمن يشاء، ويتعارض مع القيم القبلية التي وإن أقرت بقاء السلطة في القبيلة لكنها لا تقر بالوراثة مباشرةً من الأب إلى الابن.

وعلى رأي الدواري فإن الدوافع التي دفعت معاوية للأخذ بمبدأ الوراثة هي رغبته في تجنب المشكلات التي قد تحصل بعد وفاة كل خليفة، أو معرفته بقوة العصبية على بنى أمية ورغبتهم في حفظ الملك فيهم.

تمكن معاوية بذبوماسيته أن يأخذ البيعة لابنه يزيد من الأنصار وهذا يعني أن الخلافة ظلت انتخابية نظرياً، ولم ينظر إليها البتة على أنها منصب وراثي، لكنها فقدت قيمتها لأن معاوية كانت تُسندُ القوة وإن تردد في استعمالها صراحة.

وهكذا فإن معاوية قد ابتعد عن فكرة انتخاب الخليفة وأغفل مبدأ الخدمة والسبق في الإسلام وأكَّد على عامل القوة والنفوذ في الوصول إلى الخلافة وكان نجاح معاوية يمثُّل ظهور المبادئ القبلية واحتقار المبادئ الإسلامية، ويعلق حسن إبراهيم حسن على تطور البيعة بقوله: "على أنه ينبغي ألا يغرب عن ذهاننا أثر البيئة في تطور نظام البيعة، إذ أنه لما كانت المدينة حاضرة الدولة العربية في عهد الخلفاء الراشدين، كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربي، وقام ذلك النظام الذي يتنقق وطبيعة العرب، فلما أصبحت دمشق حاضرة الدولة العربية، تأثر

العرب باليئة التي عاشوا فيها وغدا نظام الخلافة أشبه شيء بالنظام الملكي القيصري.

ثم جددت البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية، فأصبح تجدد البيعة عادة يسير عليها الخلفاء وقد شهد العصر الأموي صراعاً بين ثلات مبادئ:

١- مبدأ الوراثة المباشر من الأب إلى الابن.

٢- المبدأ الإسلامي الذي يؤكد على اختيار من تتوفر فيه شروط الخلافة.

٣- المبدأ القبلي الذي يقر بسيادة القبيلة ويقبل باختيار أكثرهم قدرة وموهبة وحنكة وأكبرهم سناً.

يمثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير المبدأ الإسلامي، ويمثل مروان ابن الحكم المبدأ القبلي، ويمثل خالد بن يزيد مبدأ الوراثة. وقد درست هذه المبادئ في فصول سابقة من هذا الكتاب.

وقد شهد القسم الثاني من تاريخ الدولة الأموية (عهد الفرع المرواني) صراعاً بين المبادئ الثلاث المار ذكرها، فقد ثار العلويون والخوارج والعباسيون باسم الدين وكان فشل الوليد في تحيية أخيه سليمان صدمة لمبدأ الوراثة وكان عهد سليمان إلى عمر بن عبد العزيز وعهد يزيد الثاني إلى أخيه هشام ثم إلى ابن الوليد نصراً للمبدأ القبلي، وكان مقتل الوليد الثاني ومجيء يزيد الثالث خطراً للانتصار للمبدأ القبلي لعداء اليمانية للوليد الثاني ولأن الوليد تحدى المشاعر القبلية بالعهد لبني الصغيرين وكان مجيء مروان الثاني للخلافة بسبب مساعدة قيس وتأييدها له إضافة إلى حنكته وقوته نصراً للمبدأ القبلي على مبدأ الوراثة.

إن ترشيح شخص واحد للخلافة في عهد بني سفيان قد حل محله ترشيح اثنين في عهد بني مروان فقد رشح مروان ابنيه ليختلفاه على التعاقب، وهما عبد

الملك وعبد العزيز ولما كان الأخير فقد توفي قبل الأول فقد رشح عبد الملك ولديه الوليد وسلمان ورشح سليمان ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم أخيه يزيد بن عبد الملك ورشح يزيد أخيه هشام ثم ابنه الوليد ولم يتبع بنو مروان القاعدة القائلة بأن يخلف الأبن أباه.

وكان حكم معاوية الثاني فاشلاً إذ لم يكن بمقدوره أن يحكم العرب المسلمين لصغر سنها وقله تجربته ولذا فإن مروان ومن جاء بعده استتوا سنها تعين شخصين بالغين لتجنب حكم الصغار.

ولما كانت سلطة الخليفة في العهد الأموي تستند إلى قوة القبائل لذا صار الخليفة يراعي شعور رؤساء القبائل ويتصرف معهم كأنه أحدهم وإن كان أكبرهم وأخذ الخلفاء الأمويين يهتمون بالعادات والعرف والتقاليد القبلية أكثر من اهتمامهم بالمبادئ الإسلامية وكان الحكم عربياً صرفاً لاعتراض بنى أمية بأفضلية العرب.

ورغم اهتمام الخلفاء الأمويين بالمبادئ والقيم القبلية أكثر من اهتمامهم بالمبادئ الإسلامية فقد كان الخلفاء الأمويون يتمسكون ببعض الأمور الدينية فيؤمنون الناس في الصلاة، ويلقون خطبة الجمعة على المسلمين ويرسلون الجيوش للأقطار البعيدة لنشر الإسلام فيها وكان للدين أثره على بعض الخلفاء فقد كان معاوية الثاني متدينًا وكان عمر بن عبد العزيز رجل دين أكثر مما هو رجل سياسة وجاء يزيد الثالث إلى الحكم باسم الدين.

الولاية:

بلغت الدولة العربية أقصى توسعها في العهد الأموي وكانت مقسمة إلى خمس ولايات كبيرة هي:

أ. العراقيان: العراق العربي ويشمل بلاد بابل وأشور القديمة وال伊拉克 العجمي ويشمل بلاد فارس وكرمان وسجستان وخراسان وكابل وبلاط السند وما وراء النهر وبعض أقسام البنجاب وعمان والبحرين وكان العراق وحاضرته الكوفة يتولى إدارة العراق العجمي بواسطة عمال يعينهم والي العراق.

ب. مصر.

ج. الحجاز واليمن

د. الجزيرة ويتبعها أرمينية وأذربيجان وبعض أراضي آسيا الصغرى.
هـ. أفريقيا الشمالية حتى غربي مصر وبلاط الأندلس وجزر صقلية وسردينيا وبالبلمار ومركزه الفيلوان وأناب والي أفريقيا ولاة من قبله لحكم بلاط الأندلس وجزر البحر المتوسط وطجمه.

حرص الخلفاء الأمويون في اختيار الولاية من العرب وبلغ اهتمامهم باختيار الولاية أن بعض الولاية كانوا من أفراد البيت المالك، ويعتبر عبد الملك بن مروان المؤسس الحقيقي لنظام الولاية لأنه صبغ النظام الإداري والإدارة المالية بالصبغة العربية.

كانت سلطة الوالي كبيرة جداً كما يتبيّن لنا من سياسة زياد بن أبيه والحجاج ابن يوسف ومن سيرة موسى بن نصير. فقد كانت سلطة الحجاج قوية جداً في العراق وكان يجتهد في القيام بأمور كثيرة دون مراجعة الخليفة، وسار على خطته ولاة كثيرون منهم خالد بن عبد الله القسري والي العراق، وقد طالت مدة حكم بعض الولاية فقد حكم الحجاج في العراق والشرق لمدة عشرين سنة ١٢٠-١٠٥ هـ ٦٩٤-٧١٣ م وحكم خالد القسري خمس عشرة سنة ١٢٠-١٠٥ هـ ٧٣٧-٧٢٣ م وكانت سلطة بعض الولاية تطغى على الخليفة رغم أن وظيفه

الوالى هي إمامه الناس في الصلاة وقيادة الجيوش الإسلامية في ولايته أو ينبع عنه قادة مناسبين ويعين عمال الولاية ويقمع محاولات التمرد فإن عدداً كبيراً من الولاة قاموا بتجفيف المستقعات وحفر جداول الري وضربوا النقود وعربوا الدواوين باسم الخليفة ويدرك الكبيسي أن اختيار الولاية في عصر الخليفة هشام بن عبد الملك (١٢٥-٧٤٣هـ/ ٧٢٤م) لم يكن يتم حسب قاعدة معينة وربما كان يتم لمصالح الدولة الاعتبار الأول في اختيار هشام لولاته كما أن استمرارهم في مناصبهم يتوقف فضلاً عن رضا الخليفة والناس عنهم إلى حد كبير على حسن تصرفهم.

ويساعد الوالى في إدارة الولاية موظفون يعينهم هو وهم - العامل وصاحب الخراج والكاتب - فأما العامل فهو الذي يتولى موارد الولاية عندما استقرت دعائم الإمبراطورية العربية تماماً، وكان رأيه فيما يختص بصالح الخزينة يفضل أحياناً على رأي الأمير.

صاحب الخراج هو الموظف الذي يختص بجمع ضريبة الأرض عندما صار الخراج مورداً من موارد بيت مال المسلمين وهو يدير دخل الولاية وكانت إدارة الدخل منفصلة عن الشؤون التنفيذية منذ السنوات الأولى للعصر الأموي، فصاحب الخراج كان يتولى جمع وتوزيع دخل الولاية، فهو يجبي الخراج والزكاة والجزية والضربيه من النساء والإقطاعيين وتصريف جميع تكاليف الولاية من الرواتب والعطاءات وبقية الشؤون العامة وكان الخليفة بعض الأحيان هو الذي يعين صاحب الخراج و يجعله مستقلاً عن الوالى وربما عزل بعض الولاية لعدم رضا صاحب الخراج عنهم.

وأما الكاتب فكان رئيساً لديوان الوالى والمخفف عن الوالى قدرًا كبيراً من العمل، وبعد أن توسيع الدولة العربية تعقدت الأمور الإدارية أصبح الوالى

مضطراً أن يعين عدة كتاب لمساعدته ومن الشروط الواجب توافرها في الكاتب أن يكون حسناً ويتمنع بعدة خصال منها بعد الغور وحسن المداراة وأحكام للعمل ولا يؤخر عمل اليوم إلى الغد والنصحة لصاحبه.

يتقاضى الوالي خمسة وعشرين ألف درهم شهرياً ويتقاضى رؤساء الكتاب ثلاثة مائة درهم شهرياً، أما صغارهم فيأخذون ثلثين درهماً شهرياً وقد رفع زياد بن أبيه رواتب رؤساء الكتاب إلى ألف درهم شهرياً وجعل راتب صاحب بيت المال ألف درهم شهرياً ورغم سلطات الوالي الواسعة والثقة العالية التي أولاها له الخلفاء الأمويون فإن الخلفاء جعلوا من واجبات عمل البريد مراقبة سير الولاية والعمال في الأقاليم العربية والإسلامية وإحاطة الخليفة علماً بما يبدرون منهم من أعمال حسنة أو سيئة.

القضاء:

لم تكن مكانة القاضي في العهد الأموي بالجودة التي كانت عليها في عهد الخلفاء الراشدين إذ كان لابد من التضحية بأمور كثيرة تحد من استقلالهم ومقامهم لإرضاء نزوات الولاية والعمال.

ولكن ظل معظم القضاة مستقلين غير متحيزين في مسائل النزاع الخاصة بالعامة وحدهم وكان للقاضي قدر من الحرية في الفصل في القضايا لعدم تعين قواعد الشريعة إذ ذاك أو أن القاضي يكتب لل الخليفة ليستوضح منه قضية ما في الشريعة.

وقد بين عمر بن عبد العزيز مستلزمات القاضي وهي أن يكون رجلاً عفيفاً مجتهداً سليماً من العيوب تقى عالماً لا تأخذه في الله لومه لائم. قال عمر ابن عبد العزيز: "إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل علم بما كان قبله، ونزاهة عن طمع، وحلم عن خصم، واقتداء الأنثمة، ومشاركة أهل العلم والرأي".

واكتسب منصب القاضي في عصر عمر بن عبد العزيز مكانة مرموقة في الدولة الأموية وجاء في كتاب وجهه عمر بن عبد العزيز إلى عقبة بن زرعة عاملة على الخراج في خراسان: "أن للسلطان أركان لا يثبت إلا بهما فالوالى ركن والقاضي ركن وصاحب بيت المال ركن والركن الرابع أنا".

ولأهمية مكانة القاضي في الدولة كان عمر بن عبد العزيز يهتم في اختصار القضاة حتى كتب إلى عامل البصرة: "أن أجمع إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعه فول القضاء أنفذهما وافقههما".

وكان قاضيه على مدينة الرسول أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم من خيرة القضاة علمًا ودرأة في الحكم، حتى أن مالك وصفه بأنه لم يكن أحد بالمدينة عنده من علم القضاة ما كان عند أبي بكر بن حزم.

وعندما ولّى عمر بن عبد العزيز ميمون بن مهران على قضاة الجزيرة وعلى خراجها كتب إليه ميمون: "كلفتني ما لا أطيق أقضني بين الناس وأنا شيخ كبير، ضعيف، رقيق" فكتب إليه عمر بن عبد العزيز "أن أجلب من الخراج الطيب واقض ما استبان لك، فإذا النبس عليك أمر فأرفعه إلي فإن الناس لو كانوا إذا كبر عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا" وقد أشار فلها وزن إلى ارتقاء مكانة القاضي في عهد عمر بن عبد العزيز فقال "إن منصب القاضي قد أصبح على عهد عمر أكثر استقلالا وأكبر شأنًا مما كان".

ومع أهمية منصب القاضي في الدولة الأموية فقد كان تعين قضاة الولايات من صلاحيات الولاية فهم الذين يختارون القضاة يولونهم. أما دمشق فكان الخليفة يختار لها قاضيا.

لم تكن المذاهب الفقهية قد تبلورت في الدولة الأموية فكان المجال مفتوحا أمام القضاة لإصدار أحكامهم وفق المعايير الإسلامية فكانوا يصدرون

الأحكام بحسب رأيهم مستدين إلى العادات العملية المشتملة بطبيعة الحال على قواعد إدارية مراعين نص (التشريع) القرآني وروحه وكذلك المقاييس الدينية الإسلامية المعترف بها.

وطيلة العهدين الراشدي والأموي كان لكل من الخليفة والولاة والقضاة حق القضاء والحكم بين الناس ولكن الخلفاء والولاة كانوا ينظرون غالباً فيما يتعلق بالشؤون الإدارية والقانون العام، أما القضاة فكانوا ينظرون في القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية من مواريث وزواج وطلاق أو شؤون اليتامى والأرامل أو المعاملات في الأسواق.

وظل القضاء محتفظاً بمكانته وخطورته حتى أواخر الدولة الأموية فقد جاء في كتاب كتبه عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن الخليفة مروان بن محمد لبعض ولاته: "فاعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ولا يمثل محله أحد من الولاة لما يجري على يديه من مغالط الأحكام ومجاري الحدود فليكن من توليه القضاء في عسكرك من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوفار والعصمة والورع".

وللقاضي كتاب يساعدونه في أمور كثيرة، وقد أساء بعض هؤلاء الكتاب السيرة فقد كانوا لا يكتبون إلا برسوة ويدرك أن كتاب قاضي مصر يحيى بن ميمون كانوا لا يكتبون قضية إلا برسوة فحكم يحيى في ذلك فلم ينكره ثم كلام مرة بعد مرة فلم يعزل منهم أحداً من كتابه، وشكراً لبيت وصيه إلى يحيى بن ميمون فلم ينصفه منه وشهد له جماعة من قومه أنه مظلوم فلم يستمع يحيى إليه فتمثل اليتيم بأبيات شعر منها:

حکمت بالباطل لم تأت حقا ولم يسمع بحکم مثل ذاكا

فَلَمَّا بَلَغَ الشَّاعِرَ يَحْيَى سُجْنَ الْبَيْتِمَ فَرَفَعَ أَمْرَهُ إِلَى هَشَامَ فَعَظَمَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَكَتَبَ بِصَرْفِهِ، وَذَكَرَ هَشَامَ فِي كِتَابِهِ إِلَى وَالِي مَصْرَ الْوَلِيدِ بْنِ رَفَاعَةَ أَصْرَفَ يَحْيَى عَمَا يَتَوَلَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَتَخِيرَ لِقَضَاءِ جَنْدَكَ رَجُلًا عَفِيفًا وَرَعَا تَقْيَا فَعْزَلَهُ.

وَتَوَسَّعَ الْأَمْوَيُونَ فِي إِفَاضَةِ الْأَمْوَالِ عَلَى الْقَضَاءِ فَكَانَ قَاضِيَ مَصْرَ ابْنُ حَجَّيرَ الْأَكْبَرِ يَأْخُذُ أَلْفَ دِينَارٍ فِي السَّنَةِ وَكَانَ شَرِيحُ يَرْزُقَ عَلَى الْقَضَاءِ خَمْسَ مِائَةَ دِرْهَمٍ شَهْرِيًّا وَكَانَ رَزْقُ ابْيَاسَ بْنِ مَعَاوِيَةَ قَاضِيَ الْبَصَرَةِ مِائَةَ دِرْهَمٍ، وَكَانَ قَاضِيَ الْفَسْطَاطِ يَأْخُذُ فِي زَمْنِ مَعَاوِيَةَ سَنْوِيًّا ثَلَاثَ مِائَةَ دِينَارٍ فِي زَمْنِ مَرْوَانِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٢٤٠ دِينَارًا وَفِي زَمْنِ الْمَهْدِيِّ الْخَلِيفَةِ الْعَبَاسِيِّ ثَلَاثَ مِائَةَ وَسِتُّونَ دِينَارًا.

أَمَّا الْقَضَاءُ فِي الْأَنْدَلُسِ فَكَانُوا يَسْمُونُ قَضَاءَ الْجَنْدِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ فِي فَتَرَةِ الْوِلَاةِ كَانُوا جَنْدًا وَلَهُذَا فَقَدْ كَانَ الْقَاضِيُّ قَاضِيَهُمْ فَلَمَّا قَامَتِ الدُّولَةُ الْأَمْوَيَّةُ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلَهَا وَكَانَ الإِسْلَامُ قَدْ اَنْتَشَرَ تَغْيِيرَ اسْمِ الْقَاضِيِّ مِنْ قَاضِيِّ الْجَنْدِ إِلَى قَاضِيِّ الْجَمَاعَةِ.

وَيَبْدُو أَنَّ تَحْقِيقَ تَوْلِيَةِ الْقَاضِيِّ فِي الْأَنْدَلُسِ لَمْ تَتَقَرَّرْ عَلَى وَجْهِ مُحَمَّدٍ فِي فَتَرَةِ الْوِلَاةِ، فَقَدْ كَانَ عَامِلُ الْأَنْدَلُسِ يَوْلِيَ الْقَاضِيِّ أَحْيَانًا كَمَا وَلَى عَقْبَةَ بْنَ الْحَجَّاجَ السَّلْوَلِيَّ الْقَاضِيَ مُهَدِّيَّ بْنَ مُسْلِمٍ وَهُوَ أَوَّلُ قَاضِيٍّ فِي تَارِيخِ الْأَنْدَلُسِ وَيَبْدُو أَنَّ الْعَامِلَ كَانَ يَقْوِمُ بِالْقَضَاءِ بَيْنَ الْجَنْدِ وَبِنَفْسِهِ قَبْلَ ذَلِكَ.

الجيش:

جَاءَ الإِسْلَامُ بِمِبَادِئِ إِنْسَانِيَّةٍ تَهْدِي إِلَى الْقَضَاءِ عَلَى وَاقِعِ فَاسِدٍ وَبَنَاءِ دِعَائِمٍ مَجَتمِعٍ إِنْسَانِيٍّ جَدِيدٍ وَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُ الْعَرَبِ إِيقَافَ هَذَا التَّيَارِ الإِنْسَانِيِّ الْوَاسِعِ بِالْقَضَاءِ عَلَى الدِّعَوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ فَكَانَ لَابْدَ لِلرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

وللمسلمين من أن يدافعوا عن دينهم ومبادئهم فحدث الصدام الفكري والحضري بين العرب والمسلمين وبين أعداء الإسلام وهكذا تكونت أول نواة للجيش في الإسلام فقد أصبح العرب المسلمون الأوائل جميعاً جنوداً يقودهم الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليدافعوا عن دينهم ثم تشكلت الطائفة الأولى للجيش من المهاجرين والأنصار وازداد عدد المقاتلين فكانوا في معركة بدر أكثر من ثلاثة مائة وارتفع عددهم حوالي سبع مائة مقاتل ثم أزداد العدد فيما بعد عندما أخذت القبائل العربية تدخل الإسلام أزواجاً وجماعات.

وفي العصر الراشدي انضمت إلى الجيش العربي الإسلامي قبائل عربية من اليمامة ونجد واليمن والجاز وأصبح الخليفة هو القائد الأعلى للجيش واهتم الخليفة الرشادون بتوسيع التكاثر والمعسكرات لخزن الأرزاق والأطعمة وبناء الإسطبلات وكانت هذه المعسكرات حيدة التهوية وفسحة وفي أماكن صحية معروفة والحق بكل جيش عدد من الأطباء والجراحين خاصين به

وفي بداية تحرير العراق والشام ومصر وفلسطين استقر العرب في هذه البلدان ومارسوا الزراعة وامتلكوا البيوت والضياع ففترت عندهم روح الحرب وانصرفوا عن الجيش ففقط عمر إلى ذلك فمنعهم من الاستقرار في المدن والانصراف إلى الجهاد وضمن لهم مرتباتهم وأرزاقهم وأرزاق أولائهم.

وكان أقل راتب للجندي في عهد عمر هو ٢٠٠ درهم في السنة ثم زاد إلى ٣٠٠ درهم، ونال الضباط رواتب ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ درهم في السنة وخصص إلى جانب هذا الراتب لزوجة كل جندي وطفليه عطاء من الدولة بالإضافة إلى ذلك فقد خصص لكل جندي الملبس والنعال وأمور أخرى ووزعت بين الجندي أربعة أخماس الغنائم من الثروات الهائلة التي كانت تؤخذ من العراق والشام ومصر.

وزادت رواتب الجندي في عهد معاوية إلى (١٠٠٠) درهم سنويًا للشخص بما في ذلك عطاء أسرته، وفي سنة ٦٧٤هـ/١٩٣م كان في العراق وحده ٦٠,٠٠٠ من أصحاب العطاء بلغت رواتبهم وعطاء أسرهم ٦٠ مليون درهم سنويًا وبإضافة إلى ذلك فقد كان الجندي يقبضون مبالغ إضافية بسبب قيامهم بمهام خاصة.

وكان عمر أول من جعل الجندي مهنة مخصوصة وأنشأ ديوان الجندي لتنظيم أجور الجندي وتقييد أسماءهم وأسماء قبائلهم ورتبهم ومقدار مرتباتهم وبعد أن اتسعت حركة التحرير والفتح الإسلامي تطور الجيش في التنظيم إذ دخلت عليه الكثير من أساليب التنظيم وفنون التدريب من خبرات البلاد المفتوحة فأصبح لكل فرقة قائد، وتطورت طبيعة المعارك فبعد أن كان العربي يحارب العربي من غير المسلمين صار العربي يحارب أقواماً مختلفة تمتلك جيوشاً ضخمة مدربة ومنظمة ولها أساليبها القتالية الراقية في الشام والعراق.

وحرص عمر بن الخطاب أن يجنب الجيش مما قد يصيبه من انحرافات أخلاقية نتيجة لغياب الجندي فترة طويلة عن عوائلهم وذلك بإيجاده لنظام الإجازات الدورية حيث لا يبتعد الجندي أكثر من أربعة أشهر عن أسرته فيما عدا حالات الطوارئ غير العادية.

واهتم الأمويون بالجيش وتطويره وتدريبه، وأصبحت عملية إعداد الجندي وتهيئة المقاتلين تأخذ الحيز الأكبر من سياسة الدولة الأموية وقد أولى الخليفة معاوية بن أبي سفيان هذه العملية اهتماماً خاصاً وقد أعادته قابلية السياسية والإدارية والخبرة التي اكتسبها خلال توليه الشام في خلافة عمر وعثمان في اختيار الولاية الأكفاء لإدارة الأمصار الإسلامية كعمرو بن العاص و زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة ولغرض كسب رجال القبائل العربية الذين هم العمود الفقري

للجيش فقد استخدم مقدراته الكبيرة في فهم عقليات هؤلاء الرجال ثم نفذ من خلال ذلك وبما ملكه من مال إلى التحكم فيهم والسيطرة عليهم، فأغرىهم بالأموال والمناصب وقرب رؤسائهم سواء من القبائل اليمنية أو القيسية واستطاع أن يجذب منهم أعداداً كبيرة في الحملات البرية والبحرية وقد أظهرت هذه السياسة أن عملية تجنيد المقاتلين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقوة الولاة وكفاءة تدابيرهم الإدارية والعسكرية.

وعندما تولى المغيرة بن شعبة الكوفة سنة ٤١هـ/٦٦١م ورأى تهاون الناس مع الخارج وتباقلهم في الخروج جهز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل وأمر أن يعلن في الكوفة بأن كل من وجد من أفراد هذا الجيش في المدينة بعد يوم واحد تعرض لأشد العقوبة.

ويمكن اعتبار ولاية زياد بن أبيه على البصرة سنة ٤٥هـ/٦٦٥م البداية الحقيقة لتشديد في النفي ومعاقبة المخالفين، لأن سياسته قائمة على الحزم وعدم التهاون مع المخالفين لم تدع أحداً من الجندي يجرؤ على الإخلال بمكانه أو الهرب من الجيش لأن ذلك كان يعرضه لأشد العقوبات وقد أظهرت خطبته التي استهل بها ولايته على البصرة مدى تصميمه على تنفيذ ذلك ويبدو أنه نجح فيما صمم عليه وفي ذلك يقول الطبراني: "وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكَّدَ الملك لمعاوية ، وألزمَ الناس الطاعة وتقدم في العقوبة وجُرِدَ السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً وكان من نتيجة هذه السياسة أن ازداد عدد المقاتلة في البصرة حين قدم زياد أربعين ألفاً فأصبح عددهم ثمانين ألفاً.

وقد شعر زياد بن أبيه أنه لا يمكنه السيطرة على الجندي وليس باستطاعته تهيئة قوات كبيرة قادرة على إنجاز مهام القتال إلا بإعادة تنظيم القبائل في

البصرة والكوفة لضمن السيطرة عليها من الناحية العسكرية فقسم قبائل البصرة إلى أخماس على كل خمس رجلاً وقسم قبائل الكوفة إلى أرباع بعد أن كانت مقسمة إلى أسبوع.

وبالرغم من اضطراب الحياة السياسية في العراق بعد وفاة يزيد بن معاوية واستفحال حركة ابن الزبير في الحجاز والعراق وما تركته من آثار سيئة على عملية تجنيد المقاتلين إلا أن مجيء الخليفة عبد الملك بن مروان الذي شهد عهده تطويراً كبيراً في مؤسسات الدولة الأموية، قد أعاد للتجنيد فاعليته وقوته فعندما سار عبد الملك إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير كان بعض جند الشام يتهاونون في المسير ويختلفون عن اللحاق بالجيش فأمر عبد الملك، الحاج بن يوسف وكان على ساقية الجيش باستفار من تخلف من الجندي وفي سنة ٧٢هـ / ٦٩١م كتب الخليفة عبد الملك إلى أمير العراق بشر بن مروان يأمره بإعداد الجندي وتجهيز حملة من خمسة آلاف رجل لمقاتلة الخوارج وأمره أن يصرفهم إلى الري بعد انتهاءهم من الخوارج ليكونوا كمسالح لحماية الخراج ومن ثم يستبدلهم بأخرين مكانهم".

وفي سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م أوعز عبد الملك إلى قائده عمر بن عبيد الله بن معمر أن يجند من الكوفة والبصرة من أراد الخروج للجهاد فانتدب معه عشرة آلاف من الكوفة وعشرة ألف من البصرة وعين المهلب بن أبي صفرة سنة ٧٤هـ / ٦٩٣م لقتال الخوارج فكان الجندي يتهربون من القتال والاستراك في الحملات والبعوث رغم تهديدات والي البصرة بشر بن مروان بعقاب المخالفين حتى إذا تولى الحاج العراق سنة ٧٥هـ / ٦٩٤م أعاد تنظيم ديوان الجندي والعطاء وأنذر المخالفين من الجندي بالتلععرض للعقوبة الشديدة التي قد تصل إلى حد الإعدام، فقد أُعلن في خطبه عند قدومه الكوفة واليا عليها أنه من وجد في الكوفة من جند المهلب بعد ثلاثة أيام ضربت عنقه، ثم دعا عرفاء الجندي وطلب منهم إلتحاق الجندي

بالمهاب واستسلام البراءات منه موافاتهم وهددهم بضرب أعنفهم إن تباطأوا في تنفيذ الأمر وقد نفذ الحجاج وعيده بإعدام المخالفين عندما ضرب عنق أحد زعماء القبائل ويدعى عميرة بن ضابئ الذي طلب أن يحل ابنه بدلا عنه فجعله عبره لغيره.

لقد قام الحجاج بتطبيق الإجراءات الصارمة بحق المخالفين من الجند بصورة أكثر جدية واستخدام القوة والبطش لتحقيق ذلك، وقد شملت هذه الإجراءات أصحاب الديوان ومن أهل العطاء الذين كانوا ملزمين بالقتال عندما تدعوا الضرورة إلى ذلك.

ويمكن اعتبار هذه الإجراءات التي اتخذها زياد والحجاج البدائيات الأولى للتجنيد الإلزامي في الجيش الأموي لأن الظروف السياسية والعسكرية كانت تفرض اتخاذ مثل هذه الإجراءات كحركات الخوارج واستمرار المعرك في الأقاليم الشرقية حيث كانت تتطلب تجنيد أعداداً كبيرة من المقاتلين.

وقد أثمرت هذه الإجراءات فقد استطاع الحجاج في سنة ٧٧هـ/٦٩٦ م أن يجند لقتال الخوارج من الكوفة وحدها خمسين ألف مقاتل وبلغت عدة الجيش الذي كان تحت قيادة قتيبة بن مسلم في خراسان حوالي أربعة وخمسين ألف مقاتل، كما استطاع الحجاج في سنة ٨١هـ/٧٠٠ م أن يجهز جيشاً قوامه أربعون ألف مقاتل من مقاتلة البصرة والكوفة وسيره إلى سجستان لقتال الترك بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث وجهز الجندي بكل ما يحتاجونه من السلاح والعدة الكاملة وزودهم بالخيول الرائعة حتى سمي الجيش بجيش الطواويس لحسن هيئتهم.

وفي جبهة أرمينية وأذربيجان كانت عملية إعداد المقاتلين تهدف إلى إيجاد مقاتلين أشداء بالنظر لوعرة المنطقة وبعدها عن مقر الخلافة مما يشكل صعوبة في إيصال الإمدادات إليها عند الضرورة وقد اتخذت الإجراءات

لاصطحاب المقاتلين لنسائهم وأولادهم في الحروب، وكان الهدف من ذلك مضاعفة قوة المقاتلين العرب وجدهم في المعارك ويرتبط قاتلهم بالدفاع عن أولادهم ونسائهم إضافة إلى استقرار بعض هؤلاء المقاتلة في المدن المحررة.

وبالنظر إلى أهمية مدينة باب الأبواب وموقعها الإستراتيجي في جبهة أرمينية و حاجتها إلى المقاتلين القادرين على الدفاع عنها وإيقاف هجمات البيزنطيين، قرر الأمير مسلمة بن عبد الملك وضع حامية من أربعة وعشرين ألف مقاتل من أهل الشام وجعلهم فرقا كانوا كأجناد الشام جند دمشق وجند حمص وجند فلسطين والقسم الأخير لما تبقى من جند الشام والجزيرة.

أما في بلاد الشام مقر الخلافة الأموية فإن نظام الأجناد فيها يقدم أوضاع الأمثلة على عملية إعداد الجند وتطبيق قواعد التجنيد في الدولة الأموية، فالأجناد أقاليم استقرت فيها فرق الجيش العربي الإسلامي حمايتها وقبض أعطياتها فيها وهي امتداد للتقسيم البيزنطي الذي وجده العرب قائما في الشام بعد تحريرها والذي يسمى بنظام البنود وهي تضم المحاربين المقيمين في كل إقليم ويكتفى خراج الإقليم أرزاق وأعطيات جنوده.

كانت الأجناد في بلاد الشام تتالف من جند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين وجند حمص أما جند قنسرين فكانت مضمومة إلى حمص حتى خلافة يزيد بن معاوية فجعلها جندا بعد أن أضاف إليها إنطاكيه ومتبح، فأصبحت الأجناد العربية في بلاد الشام خمسة أجناد جمعت فيها القبائل العربية حيث أصبح من الممكن توجيه مقاتلة هذه القبائل في حملات فصلية أو حملات ذات أمد طويل.

لقد اعتمد الأمويون اعتمادا كبيرا على هذه الأجناد في إعداد المقاتلين وتهيئة الحملات الفصلية (الصوانف والشواني).

التي أصبح تنظيمها وتهيئتها يتم بإشراف الخليفة الأموي نفسه وتقوم بها الفرق الشامية والجزرية التي كانت تشتراك في هذه الحملات وتتبادل الخدمة في القتال البري والبحري وذلك لتلافي الخلاف الذي قد يحدث بسبب ذلك وللحفاظ على التوازن بين القبائل وقد ساهمت هذه الأجناد في استكمال تحرير مصر وكانت قاعدة لإمداد القوات المصرية فقد كتب أحد قواد الأمويين إلى معاوية يشكو قلة الجنود الذين معه في الإسكندرية ويطلب منه المدد فأجابه معاوية "إني قد أمدتك بعد الله بن مطیع في أربعة آلاف من أهل المدينة وأمرت معن بن زید السلمی أن يكون بالرملة في أربعة آلاف ممكین بأعنہ خيولهم حتى يبلغهم عنك فذع يعبروا إليکم".

وبالنظر لتأييد القبائل العربية في الشام للأمويين وفضيل هؤلاء لهم في العطاء فقد نجح الأمويون في الاعتماد على جند الشام وتوجيههم للقضاء على الحركات والفتن التي كان تهدد الخلافة الأموية ففي الوقت الذي فشل فيه الحاج لمرات عديدة في القضاء على حركة الشيباني الخارجي كان لجند الشام الذين أرسلهم الخليفة عبد الملك بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي وحبيب بن عبد الرحمن الحکمي دور كبير في القضاء على هذه الحركة كما كان لهؤلاء الجندي ومهارة قائهم سفيان بن الأبرد الفضل في انتصار الحاج على حركة ابن الأشعث سنة ٨٣هـ/٢٠٢.

وقد أصبح التجنيد الإلزامي في عهد هشام بن عبد الملك من ضمن التنظيمات العسكرية للجيش الأموي فلم يكن يسمح لأحد بالتخلف عن الجهاد وحروب التحرير واشترط على كل من يأخذ العطاء من أصحاب الديوان أن يخرج إلى الجهاد أو يخرج عنه بديلا، ويظهر أن هذا الشرط كان في عهد الخليفة هشام ساريا حتى على أعضاء البيت الأموي ولم يستثن الخليفة نفسه من ذلك فقد كان يعقوب مولى الخليفة هشام يأخذ عطاء هشام ويخرج بدلا عنه.

ومما يدل على الجدية في تطبيق هذا الشرط في عهد هشام أن أحدا لم يجرؤ على التخلف أو التهرب في الخروج للجهاد إلا إذا تولى بعض الأعمال التي تعفيه من ذلك كالاشتغال ببعض أعمال الديوان.

ولما حج الخليفة هشام سنة ١٠٦هـ / ٧٢٤م أمر بأن يفرض على أهل المدينة بعث أربعة آلاف فسمى ذلك العام عام الأربعية ألف. وكان واجب هؤلاء الجنديين فرض عليهم البعث الخروج والمرابطة في سواحل الشام طيلة غياب الجندي في حملات الصوائف ولما كتب هشام يطلب منه الإمدادات جهز له عشرة آلاف من جند البصرة وعشرة آلاف من جند الكوفة وجهزه بالسلاح الكبير ومنحه صلاحية تجنيد ما لا يزيد عن خمسة عشر ألف مقاتل.

وفي سنة ١٢٦هـ / ٧٤٣م تمكن مروان بن محمد في خلافة يزيد الثالث أن يضم إلى عسكته أعداداً كبيرة من جند الشام والجزيرة ومن حاولوا بعد مقتل الوليد بن يزيد الهروب من أجنادهم والعبث بالنظام ونهب القرى فضبطتهم ثم أمرهم باللحاق بأجنادهم وفي الوقت نفسه استطاع أن يجند من أهل الجزيرة أكثر من عشرين ألف رجل.

أما بالنسبة لتجنيد المقاتلين في المغرب والأندلس فلم يكن إلزامياً أو خاضعاً لإجراءات أو قواعد صارمة كما هو الحال في الأقاليم الشرقية وإنما كان طوعياً واختيارياً بسبب تمسك البربر بالإسلام وحماسهم للجهاد.

لقد حقق نظام التجنيد للدولة العربية الأعداد الكبيرة من المقاتلين وإذا ما استعرضنا جبهات القتال وساحات العمليات الحربية التي خاضتها الجيوش العربية الإسلامية خلال العصر الأموي - والتي ذكرناها سابقاً - والتي شملت الجبهة الشرقية وجبهة المغرب والأندلس والجبهة الشمالية، أمكننا أن نتصور الأعداد الهائلة من الجنود التي كانت تطلبها الجبهات ولهذا دأبت المؤسسة

العسكرية للدولة العربية المتمثلة بدواوين الجناد لتهيئة الأعداد الكبيرة من المقاتلين من أصحاب الديوان إضافة إلى المتطوعين.

وكان الأمويون يختارون قواد جيوشهم من ذوي المكانة في العشائر والمقدرة العسكرية فقد اختار زياد بن أبيه بن الريبع بن محمد البشكري والحكم بن عمرو الغفاري وأما الرتب العسكرية فهي كما يلي:

١- أمير عشرة: وهو مسؤول عن عشرة جنود ويسمى عريف.

٢- قائد: وهو مسؤول عن كل عشرة أمراء عشر.

٣- أمير: وهو المسؤول عن كل عشرة قادة.

وهناك موظفون مدنيون مرتبطون بالجيش وهو الصراف والخازن والقاضي والمترجم والواعظ وقد استحدث زياد وظيفة المنكب وهي غامضة اختلفت فيها المصادر فبعضها تقول أن المنكب هو رئيس العرفاء وبعضها تقول أنه أقل منه رتبه وذلك استحدث وظيفة النقيب حيث يذكر البعض أنها أعلى من وظيفة العريف والبعض يذكر أنها أدنى.

أما بالنسبة لتسلیح الجيش، فقد حرص العرب على تسلیح الجيش بمختلف أنواع الأسلحة والمؤن وكان الجيش يتكون من الرجال الذين يتسلّحون بالدروع والحراب والأقواس والسيّام، وكان الرماة من أهم عناصر الرجال في الجيش وهم يقفون في صفوف متراصّة يتقدّمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان ويرتدون أقبية قصيرة متذليلة إلى تحت الركبة، وأما الفرسان فيلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب المزينة بريش النسور وفي العصر الأموي استخدم المشاة رماحا طول كل منها ٨ قدّم وأقواسا وسهاما في جعب ومزاريب وسيوفا ذات حدين وصوالحة ذات عقدة حديدية حادة وفؤوس الحرب ودرعا طويلة تغطي الجسم وأخرى صغيرة مستديرة أيضا لها عقدة في الوسط ولبسوا

الخوذ وقمصانا من الزرد لحماية الجسم، وكانت أيديهم وأرجلهم مغطاة بالحديد وتسلح المقاتلة بالدبابيس لاستخدامها عند الالتحام وأحيانا استخدمت مفاتيح، وتسلیح الخيالة بالرماح والأقواس والسيف وسیوف طويلة وعريضة مستقيمة يحمي الخيول على الصدر والجباره أواح حديدية ومن أسلحتهم لدك المدن المحصنة الدبابة مثل الدبابة التي استعملها موسى بن نصير لدك حصون مدينة ماردة الأندلسية.

وكانت التعبئة العسكرية تختلف من عصر إلى عصر، ففي عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان المسلمون يقفون للقتال صفوفا كما يفعلون في الصلاة ثم يسيرون لمواجهة العدو متكافئين متضامنين لا يتقدم أحد منهم الصف أو يتاخر عنه وتغير الحال في العصر الأموي فقد ترك نظم الخط المستقيم وقسم الجيش إلى كتائب تكون الأولى في الوسط (قلب الجيش) بأمر القائد العام وواحدة على يمينها وتسمى الميمنة وأخرى على يسارها وتسمى الميسرة ثم كتيبة من الفرسان تكون أمام القلب وتسمى المقدمة وكتيبة خاصة في خلف القلب وتسمى الساقفة.

تسير الطليعة في مقدمة الجيش تتبعس الطريق وتنفحصه ثم يتبعهم إلى مسافة كبيرة إلى الوراء الجيش في ترتيبه الحربي فالمقدمة تسير إلى الأمام يتبعها القلب والجناحان ثم تسير المسافة المتاخ والآلات الحصار وكان الجندي العربي يصاحب عائلته وقطعاً ومامشية وكان الجندي يكثرون ويتلون آيات القرآن في أثناء سيرهم للمعارك كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس في نفوسهم وقد امتاز الجندي العربي بالنشاط والخفة وسرعة الحركة والمثابرة والصبر والحماس وبذل النفس ونصرة الدين.

وعنى الأمويون بتنظيم الأرزاق (وهو ما يعطى للمقاتل وعياله من المواد العينية شهريا إضافة إلى عطائه السنوي) فأنشأ زياد بن أبيه دار الرزق

في الطرف الشرقي من مدينة البصرة حيث كانت تخزن فيها الحبوب لتوزيعها على الناس وكان توزيع الأرزاق يجري شهرياً غالباً ما يكون ذلك في شهر رمضان حيث يتمون الناس استعداداً للصيام غالباً ما يذكر البلاذري: "أن زياد كان إذا أهل هلال المحرم آخر المقاتلة أعطياتهم وإذا رأى هلال شهر رمضان آخر للذرية أرزاقهم".

لقد كانت الحنطة هي المادة الرئيسية التي يعتمد عليها الناس في حياتهم المعيشية لذلك كانت الأرزاق توزع من الحنطة غالباً إضافة إلى المواد الأخرى كالسمن والتمر.

وفي سنة ٩٨هـ/٧١٦م احتل يزيد من المهلب دهستان والبحيرة التي كان يتحصن بها الترك فطالبه الجندي بالأرزاق وكانت البحيرة منطقة تموين للأعداء وفيها أعداداً كبيرة من ظروف وأكياس مملوءة بالقمح والشعير والسمسم والعسل ولصعوبة إحصاء وحصر ما هي هذه الأكياس والظروف من المواد اقترح أحد أصحاب يزيد أن يعلم على كل كيس أو ظرف ما فيه من مواد ويدعو الجندي ليأخذ كل منهم ما يريد ويثبت ما أخذ كل رجل من هذه الأكياس فأخذوا شيئاً كثيراً وفي خلافة هشام بن عبد الملك فتح الأمير مسلمة بن عبد الملك باب الأبواب في أرمينية وبنى فيها مخازن للحبوب (الحنطة والشعير) وبالنظر لكثره إنتاج القمح في تلك المناطق فقد أصبحت مدينة الباب مركزاً لخزن الحبوب.

فبعد أن تولى مروان بن محمد ثغر أرمينية في خلافة هشام وفتح كثيراً من مدنها فرض على أهالي تلك المدن كميات كبيرة من الحنطة وجعلها في أهراء مدينة الباب لتأمين أرزاق الجندي وبسبب غنى الأقطار الإسلامية بالمنتجات الزراعية وخاصة الحنطة والشعير وتوفّر هذه المادة الحيوية فلم تنشأ للدولة أي مشكلة في توزيع الأرزاق إضافة إلى ما يحصل عليه المقاتلون من

غنائم البلاد المفتوحة وإمكانهم شراء المواد الغذائية من عطائهم أو من أحصائهم.

الشرطه:

أصبح لصاحب الشرطة في العصر الأموي اختصاص أكبر من القاضي فقد كان يستطيع أن يتصرف معتدما على التقارير التي يقدمها إليه الضباط الذين يعملون من تحت إمرته دون انتظار شكوى يقدمها إليه المعتدى عليه وهذا عكس القاضي وكذلك كان في استطاعته أن يحبس شخصا مشتبها في أمره وأن يعذبه حتى يكرهه على الاعتراف على الرغم من أن الفقه الإسلامي يعتبر الاعتراف كرها باطلًا، وكذلك باستطاعة صاحب الشرطة سماع شهادة أهل الذمة وغيرهم من الأشخاص الذي لا تصح شهادتهم في مجالس القاضي وقد ساءت سمعة من شغل منصب صاحب الشرطة لاشتهاه الشرطة بالقسوة.

وتحظيت الشرطة باهتمام الأمويين ففي البصرة مثلاً عهد زياد إلى الشرطة تنفيذ أوامر الأمير ومطاردة قطاع الطرق والأشقياء والمتربدين واللصوص كما كانوا يحفظون الأمن في البصرة ضد هجمات الخوارج على المدينة، غير أن عملهم كان محصوراً في المدينة ولم يذكر اشتراكهم في الحملات العسكرية أو في الفتح، ويختلف تنظيم الشرطة عن تنظيم المقاتلة وكان عددهم في عهد زياد أربعة آلاف، ويظهر من أسماء الشرطة أنهم من قبائل مختلفة.

وقد نجحت شرطة زياد في تحقيق النظام والأمن في سائر أنحاء البصرة، واستظل الناس في حكمه في أمن وسلام حتى أنه كان يسقط من الرجل والمرأة الشيء فلا يأخذ أحد حتى يعود صاحبه فإذا أخذه بعد أن كان الناس لا

يأْمُونُ فِي بَيْوَتِهِمْ وَأَصْبَحَتِ الْمَرْأَةُ تِبَاتٍ وَلَا تَغْلِقُ عَلَيْهَا بَابَهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَسْتَغْيِثُ مِنَ الاعْتَدَاءِاتِ فَلَا تَغَاثُ.

ويسمى رئيس الشرطة في الولاية (صاحب الشرطة) وقد يكون أكثر من صاحب شرطة في المدينة الواحدة ففي البصرة مثلاً كان صاحب الشرطة أيام زياد يسيران بين يديه بحربيتين وكان زياد يحرص على أن يكون صاحب الشرطة شديد الصولة قليل الغلبة.

وكان تعين صاحب الشرطة مرهوناً بالوالى فهو المسئول عن تعينه ولم يتدخل الخلفاء في تعين صاحب الشرطة إلا في حالات قليلة ويدرك البلاذري أن خالدا القسري والى العراق عين صاحب شرطة صغير السن فكتب إليه الخليفة هشام بن عبد الملك: "أنك وليت شرطتك رجلاً حدثاً فلو وليتها ذا حيلة ونقلت صاحبك إلى ما هو أجدى عليه.. فولاه فارس وولى الشرطة للعربيان بن الهيثم".

وفي أيام معاوية سجل جميع المشبوهين في دمشق وروقبوا وعين زياد جعد بن قيس لمراقبة نشاطات الفساق ومطاردتهم، وكانت الشرطة تتارد المغنيين وشاربى الخمر.

فعندما فشى الغاء بالковفة أيام خالد بن عبد الله القسري كاتب خالد صاحب شرطته فسجن الأخير بعض المغنيات وكثيراً ما كان مدمنو الخمرة من المسلمين يرشون الشرطة ويحملونهم على السكوت والتستر على بيع الخمر وشربها.

وفي خلافة هشام بن عبد الملك أدخل نظام الأحداث على الشرطة وكان صاحبه يضطلع بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً في أعمال صاحب الشرطة والقائد، ف تكون وظيفته نصف حربية ونصف بوليسية إذ كان عليه المحافظة على

القانون والنظام وإذا لزم مناوشة التائرين في المعركة والنظر في شؤون الشرطة في الولاية.

وكان صاحب الشرطة في مصر ينوب عن الأمير في الفسطاط إذا غاب عنها ولذا فإنهم يعبرون عن هذه الوظيفة أحياناً بخلافة الفسطاط وكان صاحب الشرطة في مصر هو الذي يصلى بالناس إذا غاب الأمير أو الوالي وهو الذي يتولى أعطيات الجنود وغير ذلك من الأعمال، وتقسم الشرطة في مصر إلى قسمين:

١- الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط وقد أنشأت داراً لهذه الشرطة بعد فتح

مصر ٢٤٠هـ.

٢- الشرطة العليا ومقرها مدينة العسكر وقد أنشأت داراً لهذه العسكرية عندما أسس صالح بن علي العباسي سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠ م مدينة العسكر. وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر أعلى من الفسطاط لذلك سميت الشرطة العليا لعلو مكانها.

ومن المحتمل أن الشرطة كانوا يعطون رواتب ومحاصصات منتظمة مقدارها يزيد نسبياً عن عطاء المقاتلة ولكن لا توجد معلومات عن رواتبهم سوى أن صاحب شرطة أخذ عن عمله مائة ألف درهم في أوائل عهد عبد الملك بن مروان.

الأسطول:

أبدت الدولة الأموية اهتماماً كبيراً بالأسطول فمعظم سواحل الشام من فتوح معاوية بنفسه بعزو جزره وهكذا رأينا الأمويين حينما نقلوا مركز الدولة العربية الإسلامية من الحجاز إلى الشام غيرروا وجهتها بصورة واضحة تغييراً بدأ بوادره منذ عملوا لأبي بكر وعمر في فتح الشام ومصر، لكن هذا التغيير لم

توضّح معالمه إلّا في عهد معاوية الذي حرص أن يوجه الدولة وجهة غربية بيزنطية وتابعه على ذلك خلفاؤه فتحولت دولة الإسلام من دولة قارية صحراوية إلى دولة بحرية.

كان معاوية بن أبي سفيان هو منشئ الأسطول العربي فقد أحس بحاجة العرب إلى قوة بحرية لمواجهة البيزنطيين الذين كانوا يهددون السواحل الشامية ولذ فقد أسس قواعد لصناعة السفن الحربية في الإسكندرية والشواطئ الفلسطينية وخاصة عكا التي استقدم إليها صناعاً مصريين ليبنوا السفن الحربية فيها ورتب الشواتي والصوائف لغزو الإمبراطورية البيزنطية وهذا يعني أن معاوية وضع نظاماً يكفل استمرار الحرب بين العرب والبيزنطيين صيفاً وشتاءً وبلغ أسطول الشام في عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة.

وقد ساهم ولادة معاوية في إنشاء قواعد بحرية لصنع السفن الحربية ففي مصر قام مسلمة بن مخلد بإعداد القوات البحرية وتوفير وسائل قوتها حفاظاً على سيادة العرب في الحوض الشرقي للبحر المتوسط فبني دوراً لصناعة السفن في مصر وأشرف بنفسه على صناعة السفن الحربية بدار صناعة السفن الحربية في جزيرة الروضة وذلك سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م وبنى العرب أيام معاوية أسطولاً لهم في مياه المغرب.

وقد تجلّى نشاط البحرية العربية في شمال أفريقيا ضد صقلية في خلافة معاوية إذ قام واليه معاوية بن حديج منه ٤٤ هـ/٦٦٤ م بحملة على صقلية من برقة ثم وافقه بعد ذلك الإمدادات من مصر وظلت الحملات العربية توجه إلى جزيرة صقلية منذ خلافة معاوية وحتى أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد.

وفي سنة ٦٦١ هـ/١٨٢ م اتخذ البيزنطيون من جزيرة صقلية قاعدة لإدارة الحرب البحرية ضد العرب في برقة ولذا فقد سار عبد الملك على نهج معاوية

من حيث الاهتمام بالقوة البحرية العربية في شرق البحر المتوسط وسار الوليد على سياسة أبيه عبد الملك بن مروان في تقوية الأسطول وتدعمه وسائل التعاون بين القوة البحرية والبرية.

واهتم الولاة الأمويون في أفريقيا بإنشاء دور لصناعة السفن، فقد أنشأ حسان بن النعمان الغساني والي أفريقيا (688-786هـ/696-730م) داراً لصناعة السفن في مكان يسمى ترشيش (تونس حالياً) سنة 73هـ/691م ثم بدأ بصناعة المراكب البحرية التي الفت أسطول أفريقيا العربية.

وأستطيع العرب في عهد عبد الملك بن مروان أن يسيطروا بصورة تكاد تكون تامة على شواطئ معظم الجزر الواقعة في حوض البحر المتوسط الشرقي وتمكنوا من إخراج هذا البحر من دائرة السيادة البيزنطية ونالت القوة البحرية اهتمام الخليفة هشام فقد أنشأ داراً لصناعة السفن الحربية في صور وبني فيها فندقاً وكانت أغلب الحملات البحرية في البحر المتوسط يرسلها والي أفريقيا.

أحرز الأسطول العربي في العصر الأموي سلسلة من الانتصارات على الأسطول البيزنطي، ففي سنة 80هـ/699م قام عبد الواحد بن كنود بحملة أفلت بهما من الإسكندرية وأغار على جزيرة قبرص ثم عاد إلى الإسكندرية محملاً بالغنائم ثم هاجم الأسطول العربي هذه الجزيرة عام 125هـ/743م في خلافة الوليد الثاني.

وفي سنة 84هـ/704م أرسل والي أفريقيا موسى بن نصير حملة بقيادة ابنه عبد الملك لغزو جزر البحر المتوسط وغنم العرب كثيراً من هذه الغزوة وفي سنة 91هـ/710م أرسل موسى حملة أخرى ضد سردينا.

وفي سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م قام الأسطول العربي من إحدى قواطعه في القيروان في شمال أفريقيا بغزو جزيرة صقلية وتكررت هجمات العرب بعد ذلك على صقلية.

وفي سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م قام بشر بن صفوان الكلبي بغزو صقلية ثم توالت الحملات الخاطفة على الجزيرة دون انقطاع.

وفي سنة ١١٢هـ / ٧٣٢م قام العرب بحملة من سوريا ضد قبرص وتكررت هذه الحملة سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م وفي الوقت نفسه غزا العرب جزيرة سردينيا.

وفي سنة ١١٥هـ / ٧٣٣م وأمر والي أفريقيا بغزو قبرص دون جدوى ثم أرسل والي أفريقيا عبد الله بن حبيب حملة ضد صقلية سنة ١١٦هـ / ٧٣٤م دون جدوى أيضاً وبعد سنة أرسلت حملة أخرى إلى سردينيا أيضاً.

وفي سنة ١٢٣هـ / ٧٤٠م نجح العرب في احتلال أقسام من جزيرة صقلية وأرغموا أهلها على دفع الجزية وتمكنوا من احتلال مناطق أخرى وقوي نفوذهم في الجزيرة أثر حملة أخرى قاموا بها سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣م.

ويمكن القول أن العرب في العصر الأموي قد كسروا الوحدة التاريخية للبحر المتوسط وحولوه من بحيرة داخلة في نطاق العالم اللاتيني اليوناني إلى حد بين ذلك العالم وعالم آخر هو العالم العربي الإسلامي المشرقي.

كان لكل سفينة عربية قائد (مقدم) له القيادة في كل ما يخص بالبحر في سفينته وهو المسؤول عن تدريب الجنود وتجهيز الحملات.

وهناك موظف آخر يسمى الرئيس وهو مسؤول عن الإشراف على الملاحة ويسمى قائد الأسطول أمير البحر ومنه استقل لفظ Amiral

لقد أتقن العرب علوم البحار فأصبحوا أساتذة أوروبا يدل على ذلك أن بعض المصطلحات البحرية المستعملة في أوروبا لا تزال تلفظ بعربتها إلى الوقت الحاضر ومن تلك الاصطلاحات Cable المأخوذة من لفظ حبل وكلمة المأخوذة عن لفظ دار الصناعة Arsenal.

الفصل السابع

ظواهر الحضارة العربية
الإسلامية
في العصر الأموي

الحياة الفكرية العلوم الدينية:

تعد العلوم الدينية في مقدمة العلوم التي نالت اهتمام العرب المسلمين وعنایاتهم خلال العصور المختلفة حيث تأسست المدارس الدينية في أقاليم الدولة العربية الإسلامية ببعض الجهدات التي بذلها الصحابة الذين شاركوا في حركة الفتح الإسلامي وتفرقوا في الأماصار وكان أساس تلك المدارس القرآن الكريم والحديث الشريف وعلوم الفقه، فكان بداية التأليف العلمي عند العرب وثيقة الصلة بهذه المصادر وكان المدينة والبصرة والكوفة والفسطاط ودمشق من أقدم وأهم مراكز الحركة العلمية وبعد علم القراءات أساس علوم التفسير ويتناول أساليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والنقطات، ومن أشهر العلماء في هذا الميدان نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني في المدينة، وعبد الله بن كثير مولى عمر بن علقة الكاني (ت ١٢٠ هـ) في مكة، وعاصم ابن أبي النجود (ت ١٢٨ هـ) في الكوفة وعبد الله بن عامر البصبي (ت ١١٨ هـ) في دمشق.

ثم يأتي تفسير القرآن الذي نشأ في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) وتولى صاحبته هذه المهمة من بعده، باعتبارهم الواقفين على أسراره المهدتين بهدي الرسول الكريم ومن أشهر المفسرين من الصحابة عبد الله بن عباس، وعن الصحابة أخذ التابعون وعن التابعين أخذ تابعوا التابعين، فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير.

وإلى جانب علم القراءات والتفسير يأتي علم الحديث ويراد به ما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من قول أو فعل وقد أخذ الناس الحديث من الصحابة وأل بيت الرسول الكريم، ثم ظهرت طبقة التابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة، غير أن الحديث لم يتم تدوينه إلا أواخر القرن الأول الهجري في

خلافة عمر بن عبد العزيز (١٠١-٩٩هـ) وكانت الأحاديث تحفظ في صدور الرجال أو تكتب في صحف متفرقة، وخشية انتشار الأحاديث التي انتحلت لتنبية حاجة البدع والترهات فقد حرص الخليفة عمر بن عبد العزيز على تدوين الأحاديث الصحاح، وأمر بعض من كان يثق بهم من علماء الحديث بجمعها فكتبت في دفاتر وأرسلت نسخة منها إلى أقاليم الدولة العربية الإسلامية ومن أشهر المحدثين في العصر الأموي سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري بالبصرة (ت ١٦٦هـ) وهو صاحب كتاب الجامع الكبير، وأبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة (ت ١٥٩هـ) صاحب كتاب السنن، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت ١٥٠هـ) ومغيرة بن مقدم الطبي (ت ١٣٦هـ) صاحب كتاب الفرائض وزائدة بن قدامة التقي (ت ٦١هـ) ومن مؤلفاته كتاب السنن وكتاب القراءات وكتاب التفسير ومحكول الشامي (ت ١١٦هـ) صاحب كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه، ومن أشهر المحدثين في العصر الأموي عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (١٥٩هـ) وله من الكتب كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه.

علوم اللغة:

اضطرب العرب بعد اختلاطهم بالروم والفرس وغيرهم من الشعوب التي دخلت الإسلام إلى وضع قواعد اللغة العربية للمحافظة على العربية من اللحن والخطأ ظهرت مدرسة النحوين في البصرة يرأسها أبو الأسود الدؤلي الذي قيل أنه سمع فارئاً يقرأ أن الله بريء من المشركين ورسوله بالكسر فقال: ما ظنت أن أمر الناس آل إلى هذا فأتصل بزياد بن أبيه وطلب منه أن يعين له كاتباً يفعل ما يقول له، فأتاها بكاتب من عبد القيس، فلم يرضه، فأتاها بأخر لعله المبرد فقال له أبو الأسود: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه على أعلى، وإن ضمت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فمي فاجعل النقطة

من تحت الحرف، وقد أخذ عدد من النحاة عن أبي الأسود منهم يحيى بن يعمر، وعنترة بن معدان، وميمون الأقرن، وعيسى بن عمر التقي الذي كان من مشاهير رجال النحو بالبصرة وعنه أخذ الخليل بن أحمد، وأصدر كتاب المكمل، ومن أخذ عن الدولي يونس بن حبيب (ت ١٨٣هـ).

ومما تجدر الإشارة إليه ظهور الغلظ ومصطلحات جديدة لم يكن للعرب سابق عهد بها استحداثه الشريعة الإسلامية والنظم السياسية والإدارية التي شهدتها الدولة العربية وقد ازدادت هذه المصطلحات بما نقله المسلمون عن الشعوب الأخرى في مختلف ميادين العلوم كالطب والرياضيات والفلسفة والكميات، وأدى ذلك إلى البحث في مفردات اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقاتها فظهر المعاجم العربية، حيث يعد الخليل بن أحمد الأزدي (ت ١٧٠هـ) أول من وفق في جمع أول معجم في اللغة العربية وهو أول من استخرج العروض وحسن به أشعار العرب، وصنف الخليل كتابه المشهور المسمى العين، كما صنف كتاباً أخرى منها كتاب النغم وكتاب العروض وكتاب الشواهد وكتاب النقط والشكل، وكتاب فائت العين وكتاب الإيقاع.

الشعر:

كان الخليل بن أحمد قد وضع قاموساً للغة وأنشأ علم العروض لوزن الشعر فتطور الشعر في العصر الأموي واتخذ اتجاهات جديدة لم تكن معروفة عند العرب قبل الإسلام فظهر شعر الغزل ومن أشهر شعراء هذا اللون عمر بن أبي ربيعه في الحجاز و جميل عذر، كما ظهر الشعر السياسي الذي غدا وسيلة للدعاية فوجد شعراء أبلوا بلاء حسناً منهم - عبيد الله بن قيس الرقيات والكميت ابن زيد الأسي - كما كان هناك شعراء موالين للخلافة مثل الفرزدق شاعر عبد

الملك بن مروان والوليد وسليمان ويزيد وجرير شاعر الحاج بن يوسف التقي
والأخطل شاعر معاوية وخلفائه وقد سجل هؤلاء الشعراء المفاخرات القبلية.

علم الكلام:

شهد العصر الأموي عدداً من الحركات الفلسفية الدينية كالمرجئة التي كانت تقول بأرجاء (بتأجيل) الحكم على مرتكب الكبيرة -أي من هو أو كافر- إلى الله يوم القيمة. فالله هو الذي يحكم على أعمال العباد وليس للعباد أن يحكم بعضهم على أعمال بعض ووقف المرجئة هذا الموقف هرباً من الثورة علىبني أمية وكان المرجئة يعتقدون أن يزيد ونفراً من الأمويين فاسقون أو كافرون ولكنهم كانوا لا يريدون أن يصارحون العداء أو يقاتلوهم ومن أشهر المرجئة ثابت قطنة (ت ١١٠هـ).

أما القدرة وهي القائلون بالقدر بمعنى القدرة، أي قدرة الإنسان على اكتساب أعماله وهو منكرون للقضاء والقدر. وأول من قال بالقدر معبد الجهنمي وخرج معبد مع ابن الأشعث على عبد الملك فأخذه الحاج وقتلته سنة ٨٠هـ / ٦٩٩م وممن قال بالقدر أو محمد عطاء بن يسار القاصي البصري (١٧-٣١٠هـ) وأول من وسع القول في القدر غيلان الدمشقي.

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩هـ استدعي غيلان واستتابه من القول بالقدر وبخلق القرآن وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ولا يتفضل الناس فيه فأظهر غيلان التوبة بعد أن أمر عمر بن عبد العزيز بقتله إن لم يكف عن القول بذلك كله، فلما توفي عمر سنة ١٠١هـ وجاء يزيد بن عبد الملك وكان صاحب له ولذات عاد غيلان إلى ما كان يقول به فلما مات يزيد وخلفه أخوه هشام سنة ١٠٥هـ، أمر هشام بقتل غيلان.

ومن القدريّة الجعد بن درهم وكان من أهل دمشق يقول بالقدر وبخلق القرآن وبنفي الصفات عن الله سوى الخلق والفعل وقتل الجعد بن درهم يوم الأضحى من سنة ١٠٥هـ، قتله خالد بن عبد الله القسري.

أما المعتزلة فهي من مدارس الفكر والكلام في الإسلام وظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في البصرة ويرجع أصل هذه التسمية إلى واصل بن عطاء الذي اعتقد حلة أستاذه الحسن البصري بمسجد البصرة لاختلافه معه في الرأي وتتلخص أراء المعتزلة في القوم بعدم تكثير مرتكب الكبائر واعتباره في منزلة بين المترفين أي بين المؤمن والكافر وقالوا بالقدرة أي إن الله تعالى قادر لا يخلق أفعال الناس وإنما يخلقون أفعالهم، كما ذهب المعتزلة إلى القول بسلطان العقل وقدرته على معرفة القبيح من الحسن وقالوا بالتوحيد فنفوا أن تكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته بل أن الله عالم وقدر وحي وسميع وبصير ذاته.

أما الجبرية وهي التي تذهب إلى القول بأن إرادة الله تعالى مطلقة وقدرتها تضع حدا لإدارة الإنسان والإنسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة وإن الله يخلق في الإنسان الأعمال والأفعال ولا قدرة للإنسان على تغييرها، وأول من قال بالجبرية جهم بن صفوان الذي سمي اتباعه بالجهمية وكان جهم من الذين يدعون إلى الإصلاح بالقوة وقد انضم إلى الحارث بن سريح في قتال نصر ابن سيار وإلى الأمويين على خراسان فأرسل نصر بن سيار إليهما سلم ابن أحرز فأنهزم الحارث ووقع جهم في الأسر فقتله سلم سنة ١٢٨هـ ويبدو أن قتله كان بداع من السياسة لخروجه على بنية أمية ولا صلة له بأقواله لأنه قتل في أيام مروان بن محمد، وكان مروان تلميذات للجعد بن درهم كجهنم بن صفوان ومشاركاً كالجهنم في عدد من أقواله.

كانت المدينة مركزا للدراسات التاريخية التي قامت على دراسة سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأخبار الغزوات والهجرة الأولى إلى الحبشة ثم إلى يثرب، وقد اعتمد المؤرخون الأوائل على الروايات الشفوية فكان كل جيل يستمد أخباره من الجيل السابق، وكان الخبر التاريخي يستمد من السماع عن الحفاظ والموثق بهم وهو ما يعرف بالأسانيد التي اتبعها المحدثون في روایتهم للحديث فكان الخبر التاريخي يتتألف من عنصرين، رواة الخبر على التابع وهو ما يعرف بالسند أو الإسناد، ثم نصر الخبر ويسمى المتن.

وأقدم المؤلفات التاريخية التي جمعت بين الحديث والتاريخ كتب المغازي والسير وقد ازدهر هذا النوع من التأليف في المدينة باعتبارها دار الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودار السنة التي عاش فيها الصحابة وسمعوا الحديث ورواه إلى التابعين وتوزع مؤرخو السيرة والمغازي في مدرسة المدينة ومكة على ثلات فئات فبرز في الأولى أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥ هـ) وعروة بن الزبير (ت ٩٢ هـ) ومن رجال الفئة الثانية عبد الله بن أبي بشر بن حزم الأنصاري (ت ١٣٥ هـ) وعاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري (ت ١٢٠ هـ) الذي عهد إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز الجلوس في جامع دمشق ليحدث الناس عن مغازي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومناقب الصحابة وعليه اعتمد ابن اسحق والواقدي كذلك يأتي ابن شهاب الزهرى (ت ١٢٤ هـ) ضمن هذه الفئة ويعد من أعظم مؤرخي المغازي والسير ويرجع الفضل إليه في تأسيس المدرسة التاريخية في المدينة. أما الفئة الثالثة ضمن رجالها محمد بن اسحق (ت ١٥٢ هـ) أشهر تلامذة الزهرى وتنسب إليه أقدم كتب السيرة التي وصلتنا. ومحمد بن عمر الواقدي مولىبني هاشم (ت ٢٠٧ هـ) الذي فاق ابن اسحق في

دقته في المادة وفي الأسلوب مع زيادة العناية بالتاريخ وتحقيق تواريχ الأحداث وتوضع الإطار الجغرافي المتصل بالواقع.

وقد ظهرت خلال العصر الأموي أيضاً مدرسة أخرى للتاريخ في البصرة والكوفة تميزت بتناول الموضوعات الخاصة بالمعارك والفتح الإسلامي ودراسة الأنساب ولم تخُل هذه المدرسة من كتاب السير والمغازي منهم عمر بن راشد اليماني البصري (ت ١٥٠هـ) ومن أشهر كتاب التاريخ والأخبار من بين أصحاب هذه المدرسة أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي (ت ١٥٧هـ) الذي اهتم بكتابه للأحداث التاريخية العامة في الإسلام كالردة والفتح والأحداث البارزة في خلافة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) واستشهاد الحسين (رضي الله عنه) وأخبار الازارقة الخوارج بالإضافة إلى اهتمامه بالأنساب ومنهم سيف بن عمر الكوفي الأسيدي، (ت ٩٨هـ) وعوانة بن الحكم الكوفي ومما تجدر الإشارة إليه أن الأمويين قد أبدوا اهتماماً بموضوع الأنساب ووضع سجلات لهذا الغرض ويعد محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ) من أشهر نسائي العراق وهو من علماء الكوفة الذي اهتموا بدراسة الأنساب.

كما شهد القرن الأول والثاني الهجري عناية كبيرة بدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام حيث تم تدوينه خلال العصر الأموي ومن ابرز المؤرخين الذين اشتهروا في هذا الميدان عبيد بن شريه الجرهمي الذي ألف لمعاوية بن أبي سفيان كتاب الملوك وأخبار الماضين وتضمن الكثير من أخبار العرب في عصر ما قبل الإسلام وقد أدرك عبيد خلافة عبد الملك بن مروان ويأتي بعد عبيد الجرهمي مؤرخ آخر هو وهب بن منبه (ت ١١٠هـ) وكان يمنياً من أهل ذمار وقيل أنه من أصل فارسي كما قيل أنه كان يهودياً وأسلم، ومن الكتب التي تتسب إلىه كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم ويغلب على أخباره طابع القصص الشعبي الخراقي كما هو الحال عند عبيد بن شريه.

علوم الكيمياء والطب:

برز الاهتمام بهذه العلوم خلال وقت مبكر من الدولة الأموية حيث أشار المؤرخون إلى أن أول من اهتم بالكيمياء خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي قيل أنه أخذ هذا العلم على يد راهب من أهل الإسكندرية يدعى سريانوس الراهب وكان خالد قد نزل بمصر في خلافة مروان بن الحكم، فيذكر أن خالداً هذا رافق مروان في حملته في سنة ٦٥ هـ.

أما في مجال الطب فقد اشتهر عدد من النصارى خلال العصر الأموي منهم الطبيب المعروف بابن أثال وكان طبيباً لمعاوية بن أبي سفيان وعرف بسعة معرفته بالأدوية المفردة والمركبة ثم طبيب الحاج بن يوسف التقفي (تيدوق) وما سر جوية اليهودي الفارسي طبيب مروان بن الحكم الذي ينسب إليه كتاب في الطب باللغة السريانية إلى العربية وهو كتاب - أهرن بن أعلىن القسي ثم أبو الحاج النصراوي طبيب معاوية بن أبي سفيان ثم ابن أجر السكندي طبيب عمر بن عبد العزيز.

الحركة العمرانية

تخطيط المدن وبناؤها:

استطاع الأمويون بفضل سياستهم أن يسيروا بالعرب في طريق القوة والمنعة فمثلاً زخر عصرهم بالفتحات العربية فإنه زخر بحركة عمرانية واسعة شملت منشآت مدينة ودينية تمثلت بإنشاء المدن والمساجد والقصور، وقد اتخذ العرب في عصرهم طرازاً للعمارة خاصاً بهم يتناسب مع طبيعتهم وحال معيشتهم وكان لطراز العمارة طابع جديد بما دخل فيه من عناصر فنية مختلفة وصارت العمارة العربية تميّز بالقباب والمآذن والأعمدة والمنXBبات.

بناء القيروان:

عندما ولى معاوية بن أبي سفيان القائد عقبة بن نافع الفهري أفريقية في سنة ٤٩ هـ فكر عقبة بعد انتصاراته التي حققها هناك ببناء مدينة عربية تكون قاعدة أمامية لحروب التحرير في المغرب، ومركزًا للنشر الإسلامى وذلك جريا على السياسة التي ابتدأها العرب في المشرق العربي عندما انشاؤوا الكوفة في العراق ثم الفسطاط في مصر فأختار عقبة موقع القيروان لبعده عن ساحل البحر حتى يكون العرب بآمن من غارات الأسطول البيزنطي، فضلاً عن قرب الموقع من السبخة حيث ممكن أن ترعى الإبل في أمان.

وحسب الطريقة التقليدية في بناء المدن العربية الإسلامية منذ بناء البصرة والكوفة والفسطاط فقد اختط عقبة دارة الإمارة والمسجد الجامع واختار الناس الخطط والدور.

وتختلف الروايات في تقدير مساحة المدينة، فيقول ابن الأثير أن دورها (أي محيطها) كان ٣٦٠٠ (ثلاثة آلاف وستمائة) باع بينما يقول ابن عذارى أن دورها بلغ ١٣,٦٠٠ (ثلاثة عشر ألف وستمائة) ذراع، ويعتقد البعض أن المساحة الأولى التي تقدر بحوالي ٥٨٠٠ متى مربع معقولة بالنسبة لخطة المدينة الأولى وإقامة الأسوار ووسائل الدفاع - أي بالنسبة للمدينة العسكرية - أما المساحة الثانية التي تقدر بحوالي ٧٠٠٠ متر مربع فهي معقولة بالنسبة لساكنى العسكر والقبائل ومن انصاف إليهم من أهل البلاد وعلى ذلك يمكن القول أن المدينة العسكرية الأصلية المسورة حيث المسجد الجامع ودار الإمارة والذخائر كان محيطها ٣٦٠٠ باع بينما انتشرت حولها مساكن القبائل والمساجد الخاصة بها في محيط بلغ ١٣,٦٠٠ ذراع وهذه ليس بغرير.

وبطبيعة الحال لم يتم بناء المدينة بهذا الشكل دفعة واحدة إذ كمل البناء سنة ٥٥٥هـ وكانت المدينة تعمّر وتنسج شيئاً فشيئاً خلال تلك الفترة ولم يوجه عقبة خلال ذلك الوقت كل همة للبناء إذ كان يوجه السرايا لتوطد سلطان العرب في البلاد وتبع السيطرة البيزنطية عنها ووصل الجندي العربي مطمئناً إلى مقامه في القيروان.

وفي الوقت الذي أتم عقبة بن نافع بناء تلك المدينة (القيروان) أتى أمر الخلافة بعزله عن ولاية أفريقيا فكان جزءاً غريباً بعد قيام الرجل بهذا العمل الكبير في خدمة الإسلام.

بناء واسط:

لقد رأى الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٦-٩٥هـ) أن الحاج بن يوسف الثقي (٧٥-٩٥هـ) خير من يوكل إليه أمر العراق لما عرف من شدة وحزم وكان الخليفة عبد الملك باختيار الحاج قد اختار أكفاء رجال دولته لمواجهة خطر الأزارة في الشرق وإعادة النظام والاستقرار في العراق الذي حتمت ظروفه الإدارية الفلاقة إلى إنشاء مدينة واسط.

وكان اختيار موضع واسط بعد تفتيش متواصل وببحث دقيق أبرزت نتائجه فيما بعد أنه اختيار موفق بدليل أن إنشاء مدينة واسط في هذا الموضع كان خاتاماً للفتن التي قامت في ذلك العصر.

ويمكن حصر العوامل التي دفعت الحاج لاختيار موضع واسط في عامل إداري وعامل إقتصادي وعامل صحي فالعامل الإداري يتضح في اختيار الموضع وسط بين الكوفة والبصرة ويبدو أن إعجاب الحاج بموقع واسط حصل نتيجة إدراكه لأهمية الموضع من الناحية الإدارية لأن الحاج كان قد اكتسب خبرة إدارية من جراء تنقله بين الكوفة والبصرة وعرف مسار ازدواجية الإدارة

لذلك عول على اختيار هذا الموضع ليوحد به إدارة ولايته ويقضي بالانتقال إليه على الإزدواجية ومضارها بالنسبة للإدارة فيها.

كما أنه يجب أن لا نغفل من جانب آخر أهمية موضع واسط من الناحية العسكرية التي تعتبر إحدى فوائد موضع واسط الإدارية فوجود دجلة في شرق الموضع والفرات في غربة يكون له استراتيجية حربية ممتازة فإنه يصعب العبور من دجلة أو الفرات إذا ما قطعت الجسور فتهيأ للحاجاج الفرص للاستعداد والقضاء على الثورات من المدينة المنيعة واسط، هذا بالإضافة إلى أهمية موضع واسط من ناحية قريبة من المشرق فإن الحاج بعد أن تم له القضاء على الفتنة التي قامت عليه في العراق أراد أيضاً من هذا الموضع أن يدير العمليات العسكرية لمواصلة الفتوحات في المشرق فجهز الجيوش وسيرها لفتح.

أما العامل الاقتصادي فكان من مميزات موضع واسط فموقع هذا الموضع على نهر دجلة أدى إلى أن تكون للمدينة أراضي خصبة تمتد من دجلة إلى الفرات فقد استفاد الحاج والأمراء من مياه هذين النهرين وقد أفادا المؤرخون والبلدانيون العرب في ذكر الأراضي الزراعية التابعة لمدينة واسط، فقال ابن حوقل "إنها خصبة كثيرة الشجر والزرع وليس لها بطائح ولها أرض واسعة ونواح فسيحة وعمارة متصلة ونواحي واسط عمل مفرد من أعمال العراق يعامل جليل تيبة خطير" ووصفها المقدسي بقوله "واسط قصبة عظيمة كثيرة الشجر معدن السمك حسنة الأسواق واسعة السواد".

ومنح موضع واسط أهمية تجارية واسعة النطاق فقد كانت منذ إنشائها ملتقى عدة طرق برية وهمائية ساعدت على تنشيط الحركة التجارية وتبادل السلع في أنحاء مختلفة من البلاد.

وتبرز نظرة الحاج الاقتصادية في اختيار موضع واسط حيث أراد أن تكون المدينة في موقع خصب يتصل بطريق ليكون مرتفعا للرعيه ومصدر رزق لها.

أما العامل الصحي فقد كان له أثر واضح في اختيار موضع واسط، فعندما أراد الحاج بناء مدينته هذا حذوا أسلافه بتأكide على الناحيتين الطبيعية والصحية إلى جانب النواحي الإدارية والاقتصادية فأرسل الحاج رجلا وأمره أن يلتمس له مكانا في كرش من الأرض ول يكن على نهر جار ويبدو أنه سار على ما يقرر ياقوت إلى قرية يقال لها واسط القصب فبات بها واستطاب ليلها واستعدب أنهارها واستمرأ طعامها وشرابها فكتب إلى الحاج بالخير ومدح له الموضع.

ولاختيار الموضع المقترن أرسل الحاج الأطباء للتأكد من صحة ما أخبره به ففحصوا الموضع وجالوا في مواضع أخرى غيره ولكنهم رجعوا وقالوا: ما أصينا مكان أوفق من موضعك هذا في حفوف الريح وانشق البرية.

وعندما وضحت للحجاج صورة الموضع الإدارية والاقتصادية والصحية، بعث من يشتري له هذا الموضع فاشتراها من صاحبها ليقيم مدينته عليه، بعد أن له عبد الملك في بناء مدينته بين المcriين.

كانت خطط مدينة واسط على مثل ما خططت به كل من البصرة والковفة فقد ذكر البلاذري أنه عندما وصلت إلى الحاج أحبار خروج ابن الأشعث سنة ٨١هـ أتى إلى موضع واسط فابتلى به مسجدا يذكر موقعه - المقدسي - في الغرب من طريق الأسواق بعيدا عن الشاطئ ويجنبه بينما يذكر البعض أن مقر الحاج هو في الجانب الغربي منه وفيه قبة مشرفة خضراء ترى من قم الصلح وهي بلدة تقع شمال واسط على ضفة دجلة الشرقية وكانت

دار الإمارة في واسط تقع على الجدار القبلي من مسجد الحاج وبالقرب منها أقيمت دواوين الحكومة ودار الرزق والسجن.

فكانـت هذه المنشـات الدينـية منها وـالحكومـية تـؤلـف قـسـماً من أـقـسـامـ المـديـنـةـ لـهـ كـيـانـهـ الـخـاصـ وـيـقـعـ عـلـىـ الأـغـلـبـ فـيـ وـسـطـ المـدـيـنـةـ وـعـمـلـ الـحـاجـ فـرـاغـاـ حـولـ هـذـاـ قـسـمـ يـسـمـيـ الرـحـبةـ يـشـرـعـ مـنـهـ الـطـرـقـ وـإـلـيـهـ تـفـضـيـ الشـوـارـعـ ثـمـ عـيـنـ مـكـانـ السـوقـ الـعـامـ مـنـهـ وـبـعـدـهـ شـرـعـ الـمـخـطـطـوـنـ يـقـطـعـونـ الـقـطـائـعـ، وـيـقـيمـونـ فـيـهاـ الـمـرـاقـقـ فـاـخـتـطـتـ كـلـ قـبـيلـةـ الـمـكـانـ الـمـخـصـصـ لـهـ.

وـقـدـ أـمـدـتـنـاـ الـمـصـادـرـ التـارـيـخـيـةـ بـأـسـمـاءـ مـسـاجـدـ أـخـرىـ صـغـيرـةـ يـمـكـنـ أـنـ تـطـلـقـ عـلـىـ اـسـمـ مـسـاجـدـ الـأـحـيـاءـ مـثـلـ مـسـجـدـ سـيـارـ بـنـ دـيـنـارـ وـهـوـ أـحـدـ رـوـاـةـ الـحـدـيـثـ فـيـ مـدـيـنـةـ وـاسـطـ كـمـ ذـكـرـ مـسـجـدـ عـبـدـ الـحـمـيدـ وـمـسـجـدـ حـسـانـ النـبـطـيـ عـلـىـ دـجـلـةـ قـرـبـ الـمـدـيـنـةـ.

وـبـيـدـوـ أـنـ هـذـهـ التـشـكـيـلـةـ الـبـنـائـيـةـ أـحـيـطـتـ عـلـىـ مـاـ يـقـولـهـ الـمـبـرـدـ بـسـورـ وـخـندـقـ وـكـانـ عـلـىـ دـجـلـةـ جـسـرـ مـتـخـذـ مـنـ السـفـنـ طـولـهـ سـتـمـائـةـ وـثـمـانـيـنـ ذـرـاعـاـ كـانـ يـرـبـطـهـ بـالـجـانـبـ الـغـرـبـيـ وـلـهـ فـيـ جـانـبـهـ الـغـرـبـيـ رـصـيدـ مـنـ الـأـجـرـ طـولـ قـاعـدـتـهـ (٤٧)ـ مـتـراـ وـهـوـ مـتـحرـشـ الـجـانـبـيـنـ يـبـلـغـ سـمـكـةـ مـنـ الـوـسـطـ أـكـثـرـ مـنـ مـقـرـبـةـ أـمـاـ فـيـ جـانـبـهـ الـشـرـقـيـ فـكـانـ يـوـجـدـ مـسـفـاهـ خـاصـةـ بـهـ وـهـيـ تـقـابـلـ تـنـامـاـ الـرـصـيفـ الـأـجـرـيـ الـمـمـتدـ مـنـ الـجـهـةـ الـغـرـبـيـةـ مـقـابـلـةـ تـامـةـ. وـبـالـقـرـبـ مـنـ الـجـسـرـ كـانـ هـنـاكـ مـشـرـعـةـ، أـطـلـقـ عـلـىـهـ اـسـمـ مـشـرـعـةـ الـفـيـلـ وـأـنـ سـبـبـ هـذـهـ التـسـمـيـةـ عـلـىـ مـاـ يـعـنـقـدـهـ الـبـلـاذـرـيـ هوـ أـنـ عـاـمـ الـحـجـاجـ عـلـىـ السـنـدـ مـحـمـدـ بـنـ الـقـاسـمـ الـنـقـفيـ أـهـدـىـ إـلـىـ الـحـجـاجـ مـنـ السـنـدـ فـيـلـاـ، فـأـخـرـجـ فـيـ هـذـهـ الـمـشـرـعـةـ وـلـابـدـ أـنـ هـذـهـ الـمـشـرـعـةـ كـانـتـ تـسـتـخـدـمـ لـإـنـزالـ الـبـضـائـعـ الـتـجـارـيـةـ إـلـىـ السـفـنـ وـتـفـريـغـهـاـ مـنـهـاـ.

أما تاريخ بنائها فقد أعطت المصادر التاريخية نصوصاً مقاربة في تاريخ بناء هذه المدينة، فابن قتيبة يذكر أنه عندما هرب ابن الأشعث إلى سجستان أمر الحاج جيشه بالرجوع إلى مدينة واسط حيث كان قد بناها وأقام بها في ذلك الوقت.

ويذكر البلاذري أنه عندما وصلت إلى الحاج أخبار خروج ابن الأشعث ألى إلى موضع واسط فابتلى له مسجداً وقال هذا مكان وسط فسميت واسط القصب ثم بناها بعد ذلك.

وأشارت المصادر إلى فتنة ابن الأشعث أنها بدأت سنة ٨١هـ ويدرك الذهبي أن الحاج في سنة ٨٢هـ انشأ مدينة بالعراق وفي واسط جعل فيها دار الإمارة أما اليعقوبي فيذكر أن الحاج بنى مدينة واسط في السنة التي هرب فيها ابن الأشعث أي سنة ٨٣هـ ويتفق الطبرى مع اليعقوبى في تاريخ بناء هذه المدينة.

ففي ضوء ما تقدم أن المؤرخين قد تقارب إشارتهم في تاريخ بناء مدينة واسط وهي تحصر تاريخ البناء بين سنة ٨١هـ وسنة ٨٣هـ.

ويبدو من سير الأحداث التاريخية أن الحاج أخذ يعد العدة لبنائها من تعين الموضع وشرائه وجلب المواد الإنسانية له وتهيئة العمال والفنانين لبنائها، حين قيام فتنة ابن الأشعث في سنة ٨١هـ التي لم يؤثر قيامها على سير العمل في بناء هذه المدينة وعندما بلغة أخبار فتنة ابن الأشعث أمر بالشرع في بنائها وأنه بعد هروب ابن الأشعث أمر الحاج أصحابه بالتوجه نحو مدينة واسط.

ويتبين مما تقدم أن الحاج بدأ في بناء مدینته في سنة ٨١هـ واستمر هذا البناء إلى نهاية سنة ٨٢هـ وأصبحت جاهزة للسكنى مع بداية سنة ٨٣هـ.

ومنذ ذلك التاريخ اضطاعت مدينة واسط بإدارة العراق وأقاليم الدولة الأموية في المشرق وأن أمراء العراق منذ نشأتها كان بعضهم يقيمون فيها ويشرفون منها على إدارة العراق والمشرق الإسلامي كما كان ولاة واسط مسؤولين عن تعيين عمال البصرة والكوفة، وكان هؤلاء العمال تابعين لوالى واسط ومسؤولين أمامه.

الجابية:

كانت الجابية في الأصل قرية من أعمال دمشق وعندما حرر العرب بلاد الشام من السيطرة البيزنطية اعتبرت الجابية من أعمال مدينة دمشق كذلك، ثم أحقت بكوره الجيدور الواقعة في شمالي حوران والتي تعد والجولان كورة واحدة.

ويبدو أن موضع الجابية اكتسب شهرة طيبة حتى سمي بها أحد أبواب دمشق (باب الجابية) الذي تردد ذكره عند المؤرخين العرب أثناء تحرير دمشق وفي موضع الجابية من الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في طريق إلى بيت المقدس.

والراجح أن الجابية حظيت باهتمام الخلفاء الأمويين بما تحتله من بعض الذكريات التاريخية، نجد أن المصادر أغفلت بيان هذا الاهتمام ولعل ذلك يعود إلى اهتمام المؤرخين بإبداء المعلومات عن المنشآت الدينية والمدنية في دمشق وغيرها من مدن الشام الرئيسية وأغفلوا الجابية التي قال فيها ابن عباس "أرواح المؤمنين بالجابية من أرض الشام".

الرملة في فلسطين:

كان الخليفة الوليد بن عبد الملك (٩٦-٨٦هـ) قد ولّ أخاه سليمان جند

فلسطين فانتقل إلى الرملة ومصرها وكان أول من بنى فيها قصره وداراً تعرف بدار الصياغين وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً لها ثم اخترط مسجداً فيها فبناه.

وعندما نسلم سليمان الخلافة (٩٦-٩٩هـ) أذن للناس أن يبنوا دوراً لهم في الرملة فابتزوا واحتقر لهم القناة التي تدعى بردة كما احتقر لهم أيضاً آباراً عذبة لتهيسر استقرار الناس في أرضها الرملية.

وظل خلفاء بني أمية ينفقون على آبار الرملة وفناتها لكي لا تتدثر فيهرج الناس تلك المدينة، ولما استخلف بنو العباس أنفقوا عليها أيضاً، وكان الأمر في تلك النفقة يخرج في كل من خليفة بعد خليفة، فلما استخلف المعتصم أسجل بذلك سجلاً فانقطع الاستثمار وصارت النفقة يحتسب بها للعمال وشربهم من الآبار المالحة والموسرون لهم بها صهاريج مقلقة وكانت الرملة أكثر البلاد صهاريج مع كثرة الفواكه وحصة الهواء.

رصفة الشام:

وهي المعروفة برصفة هشام بن عبد الملك في غربى الرقة، بينها أربعة فراسخ على طرق البرية بناها الخليفة هشام لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف وينزل فيها بقصره المعروف بالزيونة.

وكان يحيط بالمدينة سور، ولا يجري عندها نهر ولا عين ماء، بل كان أهلها يشربون من صهاريج عندهم وكانت مياه الآبار تستخرج من آبار يتراوح عمقها بين مائة وعشرين ذراعاً وأكثر.

ويبدو أن أهل المدينة كانوا يعانون كثيراً من شحة المياه فإذا صادف وفرغت صهاريجهم، اضطروا إلى جلب الماء من الفرات الذي يكون بعيداً عنهم، وإزاء مشكلة شحة المياه في موضع رصفة الشام فإننا لا نتوقع قيام

زراعة فيها اللهم إلا إذا اعتمدت على مياه الأمطار وهذا يفسر لنا اعتماد بعض أهلها في معاشهم على التجارة ونلاحظ أيضاً أن جل أهلها كانوا يمتهنون عمل الأكسية التي لا بد أنها تدخل في تجارتكم وقد أشتهر أهلها بصناعة النسيج وأوضح ياقوت ذلك بقوله " وكل رجل فيها غنيهم وفقرهم يغزل الصوف ونساؤهم ينسجن".

بناء المساجد:

أبدي الأميون اهتماماً متزايداً بتجديد المساجد الأولى التي أسست في عصر الخلافة الراشدة مثل جامع البصرة وجامع الكوفة وجامع الفسطاط وجامع المدينة المنورة الذي أعيد إنشاؤه في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وجامع صناعة الكبير الذي أعيد بناؤه في زمن الوليد بن عبد الملك، كما اهتموا بإنشاء عدد كبير من المساجد الجامعة مثل جامع دمشق والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع عقبة بن نافع في القيروان.

تجديد المساجد الأولى:

بدأ العرب المسلمون بتجديد مسجد الرسول الكريمي في المدينة تجديداً شاملاً في خلافة الوليد بن عبد الملك في سنة ٨٨هـ حتى أصبح بحق درة المساجد واستعان الوليد بعض المهرة من صناع مصر والشام في بنائه وكسوة جدرانه بالفسيفساء والرخام وجعل صالح بن كيسان متولي البناء الأساس بالحجارة في حين جعل عمد المسجد من حجارة حشيت بعمد الحديد والرصاص مدت فوقها السقوف الخشبية المباشرة.

وتم تجديد جامع البصرة الذي بني باللبن والطين في خلافة معاوية بن أبي سفيان في سنة ٤٤هـ فأعيد بناؤه من الآجر والجص وسقف بخشب الساج واتخذت له عمد من الحجر وثم ذلك على يدي زياد بن أبي سفيان وذكر أيضاً أن

زياد بنى منارة الجامع بالحجارة وأقام للجامع مقصورة. أما مسجد الكوفة الذي يعود تاريخ إنشائه إلى سنة ١٧ هـ فقد جدد بناؤه في سنة ٥١ هـ على يد زياد أيضا وزاد في المسجد ووسعه.

كذلك أضيف إلى جامع صنعاء الكبير الذي بناه ويرين يخس الأنصاري الصحابي في سنة ٦ هـ وقيل فروة بن مسيك المراري وقيل أبان بن سعيد، فعندما أفضت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك كتب إلى أيوب بن يحيى التقي بالولاية على صنعاء واليمن، وأمره أن يزيد في مسجد صنعاء وبينيه بناءً جيداً محكماً، فبناءه أيوب وزاد فيه من جهة القبلة الأولى.

وزيد أيضاً في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط الذي أسس في سنة ٢١ هـ، عده مرات في العصر الأموي واتخذت له أربع مآذن في ولاية مسلمة بن مخلب الأنصاري سنة ٥٣ هـ في أركان الجامع وأعاد الوالي فره بن شريك بناءه في سنة ٩٢ هـ واستحدث فيه المحراب المجوف لأول مرة.

إنشاء المساجد الجامعية الجديدة

الجامع الأموي في دمشق:

ويعتبر من أشهر المساجد التي بناها الأمويون ويدرك البلاذري أن موضع بنائه كنيسة يوحنا المعمدان التي أقامها الإمبراطور تيورسيوس داخل معبد الإله جوبتير الدمشقي وهو معبد وثنى قديم احتفظت الكنيسة بجدراه الخارجية وأبراجه الأربع القائمة في الأركان فلما حرر العرب المسلمين دمشق دخلها خالد بن الوليد من الجهة الشرقية عنوة وانتهى إلى النصف الشرقي من الكنيسة فاتخذ المسلمين مسجداً بينما دخل أبو عبيدة بن الجراح المدينة من الجهة الغربية صلحاً، فترك النصف الثاني من الكنيسة للنصارى وبذلك شارك المسلمون نصارى دمشق في كنيستهم الكبرى، وأقاموا صلواتهم في النصف

الشرقي دون أن يقوموا بإجراء أي تغيير معماري فيه واكتفوا باتخاذ موضع القبلة في الجدار القبلي.

وقد حاول معاوية بن أبي سفيان أن يقنع نصارى دمشق بالتنازل عن نصيبيهم لضمّه إلى المسجد، فأبوا ذلك فأمسك عن طلبه وعاود عبد الملك بن مروان مطالبتهم بهذا الشطر لإدخاله في الجامع وبذل لهم مالا فأبوا أن يسلموه إليه فلما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة رأى أن يقيم مسجداً جاماً لل المسلمين يقل نظيره فبادر بمقاؤضه أصحاب الكنيسة في التخلّي عن شطرهم وعرض عليهم مالاً كثيراً وأبدى استعداده لأن يعرضهم عن ذلك الشطر بكنيسة أخرى في أي مكان شاءوا لقاء تنازلهم عنه فلما بلغ أبوا أنزعوه منهن وأمر بهدم الكنيسة والجامع القديم، وبناء الجامع وتم بناؤه في عام ٨٧هـ وبعد هذا الجامع بحق آيه من آيات الفن العربي في البناء وعلى الرغم من تعرضه للحريق لعدة مرات وأضيف إليه وجدد عدة مرات فإنه ما يزال بحق حافظاً لرونقه وبهائه حتى اليوم.

يشتمل جامع دمشق هذا على بيت للصلوة وصحن تحيط به مجنبات ويتألف بيت الصلاة من ثلاثة بلاطات (أروقة) موازية لجدار القبلة تحملها عدة أعمدة رخامية ويعتبر هذه البلاطات في منتصفها بلاط واسع عمودي على جدار القبلة ينتهي بالمحراب. يتجاوز في ارتفاعه البلاطات العرضية الأخرى الممتدة من الشرق إلى الغرب فبينما يبلغ ١٥ متراً في هذه البلاطات يصل نحو (٢٣) متراً في البلاطة الوسطى وتعلو هذه البلاطات سقف منشوريه الشكل في حين يقوم عليها في منتصف بلاط القبلة قبة حجرية أضيفت في عصر متأخر سنة ٤٧٥هـ وكانت جدران المسجد مكسورة بزخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة التي تمثل مناظر طبيعية دمشقية.

والواقع أن الوليد بن عبد الملك قد بالغ في بناء هذا المسجد حتى كان محرابه مرصعاً بالجواهر الثمينة عليه قناديل الذهب والفضة ومحلى بالفسيفساء والسلسل الذهبية حتى أن الناس أخذوا يرمونه بالتبذير وأنه بناه من بيت مال المسلمين فلما بلغت هذه الأموال إلى مسامع الوليد خطب من في المسجد فقال: إنكم تقولون وتقولون وفي بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة إذا لم يدخل لكم فيها قمح.

قبة الصخرة:

تعد قبة الصخرة ببيت المقدس من أروع العوائد الدينية الأموية، أنشأها الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 72هـ في وسط الحرم الشريف، وكانت هذه البقعة موضع احترام أهل الديانات السماوية الثلاث على السواء.

وقبة الصخرة بناء حجري مثمن الشكل تتوسطها الصخرة التي ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسرى عندها ليلة الإسراء والمعراج فسميت القبة بذلك بقبة الصخرة.

ونظام قبة الصخرة التخططي، اتخذ شكل بناء مثمن أقيمت فوق قبة عالية تغطيها الفسيفساء المزينة باللون الأخضر والذهبي وحملت القبة على دائرة من العقود نصف الدائرية تقدم على أعمدة قديمة جلبت من عوائد قديمة، وعلى أكتاف وارتبطة فيما بينها عند رؤوس التيجان بأوتار خشبية ضخمة ويفصل بن الصف الدائري للعقود التي تقوم عليها القبة والمثمن الخارجي للبناء كله مثمن من العقود التي تقوم على الأعمدة والأكتاف وقد طل تخطيط قبة الصخرة فريداً في العمارة الإسلامية في عصورها المختلفة لأن تصميمها يطابق الفرض الذي أقيمت من أجله وهو تحويل الصخرة المقدسة بالحرم الشريف.

المسجد الأقصى:

يعد المسجد الأقصى ثالث المساجد المقدسة في الإسلام بعد مكة والمدينة المنورة، وأول القبلتين وقد سرى الرسول (صلى الله عليه وسلم) إليه.

فقد أنشأ الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مصلى من الخشب في سنة ١٦ هـ عندما تم الصلح بينه وبين أهل القدس ثم بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ وقيل أن الذي بناه الوليد بن عبد الملك.

ويتألف بيت الصلاة في هذا المسجد من عدة بلاطات طويلة عمودية على جدار القبلة، وقد تهم بعض بناء هذا المسجد، وأعيد بناؤه في زمن الخليفة العباسى المهدى ثم أصيب أيام الغزو الصليبى بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس واتخذوه كنيسة وأغلب الظن أن قسمه الأوسط ما زال يحتفظ بعناصره الأموية الأولى.

بناء الفصور:

حرص الأمويون على الاستمتاع بالحياة الدنيا والظهور بمظاهر الترف والأبهة فاهتموا ببناء الفصور المنمنمة والمزينة بالزخارف النباتية والهندسية، وتدل الآثار الأموية الباقيه من الفصور الخلافية على تجاوز الأمويين استخدام الزخرفة إلى استعمال التصوير في الفصور.

ويتجلى في بناء الفصور الأموية في الباذية، ميل الأمويين الأصيل إلى الفن والانجذاب إلى الباذية حيث التمتع بهدوء الطبيعة في الصحراء التي عاش فيها آباؤهم ولا شك أن الباذية هي التي تبعث منها ملكات العرب الفكرية، ونعني بها ملكات الحس والشعور والخيال وهي مصدر الإلهام بالنسبة للشعراء والحكماء، ولهذا آثرها خلفاءبني أمية ولم تغتهم حياة الترف واللهو في المدن أن

يقصدو الباٰدية لتنعم فيها بالراحة والهدوء أو الفرار من الطواعين التي تجتاز المدن ولهذا أقاموا معظم قصورهم على أطراف الباٰدية.

وما زالت آثار بعض القصور التي بناها خلفاء بنى أمية في الباٰدية باقية حتى اليوم، وأهمها آثار (قصر المشتى) الذي قيل أن الوليد الثاني أقامه على أنقاض قصر غسانى في شرق الأردن، ويحيط بالقصر سور خارجي مربع الشكل تدعمه أبراج نصف دائريّة في بدناته وأبراج أسطوانية في الزوايا الأربع ويبلغ طول كل جانب منه ٤٤ متراً والقصر يتكون من مجلس أمامي مزود بغرف بجانبيه وفناء مركزي كبير يتوسطه حوض ماء. أما القاعة الرئيسية فأشبه ما يكون نظامها (بالنظام المستطيل) القائم على ثلاثة أروقة تمتد عمودية على الجدار الرئيسي وكان القصر مزوداً ببوابة واحدة يكتنفها على كل من الجانبين برج نصف دائري مطول ويزين الجدران الجانبية واجهة من النقوش الدقيقة حفرت زخارفها في الكسوة الحجرية حفرًا غيرًا وقد نقلت هذه الواجهة مع الأسف بزخارفها ونقوشها المكتظة إلى متحف الدولة برلين.

وإلى الخليفة الوليد الثاني أيضًا يرجع الفضل في بناء قصر خربة المنية الذي يقع إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية، ويدرك المؤرخون أن هذا الخليفة قام ببناء قصر القسطل أيضًا الذي يبعد نحو عشرين ميلاً جنوبى عمان، ويشير المؤرخون أيضًا إلى أنه كان ينزل بالقصر الأزرق ببادية الأردن ويقع بين أرض بلقين وفزاره على ماء يقال له الأغدق.

ومن القصور التي تتسب إلى الخليفة هشام بن عبد الملك قصر خربة المفتر ويقع على بعد ثلاثة أميال شمال أريحا قريباً من البحر الميت وكان قصراً شتوياً ترдан جدرانه رسوم آدمية وحيوانية وإلى الخليفة هشام أيضًا ينسب قصر الحير الغربي الواقع على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب الغربي من تدمر،

ولعله نفس القصر الذي ذكره الطبرى باسم الزيتونة وهناك بقايا قصر يسمى الحير الشرقي يقع على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من تدمر ينسب بناؤه إلى نفس الخليفة.

ومن القصور التي تنسب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك القصر المعروف بقصر عمره الذي يقع على بعد خمسين ميلاً من عمان، وهو بناء صغير نسبياً يقع على حمام وقاعة للاستقبال تنفذ على الجانب الجنوبي منها غرفتان من الجانبين أشبه بالمخدعين وقد ازدانت أرض الغرف والقاعة بالفسيفساء التي تمثل زخارف نباتية أما الغرف الأخرى فكانت مكسوة بالرخام، وتزدان جدران الغرف بصور ملونة من النوع المعروف بالفريسكو وكذلك ازدان الحمام بصور ملونة آدمية وحيوانية.

الفصل الثامن

سقوط الدولة الأموية

كان الحزب العلوى من بين الأحزاب العربية المعارضة للخلافة الأموية، فهو يرى أن أبناء علي بن أبي طالب هم أحق الناس بالخلافة وقد عبر عن معارضته للأمويين بعدة ثورات منها ثورة الحسين بن علي وحفيده زيد بن علي.

ثم ظهر فرع من الحزب العلوى نقل الإمامة من العلويين أبناء فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى محمد بن الحنيفة وهو ابن الإمام علي ابن أبي طالب من غير فاطمة (رضي الله عنها) ثم انتقلت الإمامة بعد موت ابن الحنيفة إلى ابنه ابن هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفة الذي تسبب إليه الفرقة الهاشمية، وقد جمع أبو هاشم حوله الأنصار والمؤيدين وتسلم منهم الخمس والهدايا. وكان حركته سرية.

وكان أبو هاشم يزور الأمويين فيستقبلونه بترحاب، لكن الأمويين وضعوا عليه عيوناً يتبعون حركاته وسكناته، وتزوي معظم المصادر التاريخية أنه في سنة ٩٧ هـ / ٧١٥ م أو ٩٨ هـ / ٧١٦ م كان أبو هاشم في طريق عودته من الشام إلى الحجاز بعد زيارة سليمان بن عبد الملك وكانت حالته الصحية على غير ما يرام، إما بسبب مرض طارئ أو بسبب سمه دسه له سليمان بن عبد الملك أو بسبب طبيعي وكان في منطقة الشراء لذا فقد أمر أصحابه أن يرجعوا به إلى الحميّة مقر العباسين ومركز دعوتهم فأوصى هناك لمحمد ابن علي العباس وجعله إماماً للحركة السرية الهاشمية إذ لم يكن لأبي هاشم ولد ولذلك فقد أمر اتباعه باتخاذ محمد بن علي العباسي إماماً فهو أعلم من غيره، وأنه درس على يده.

لم تذكر المصادر التاريخية أن عبد الله بن العباس كان طموحاً من الناحية السياسية وكانت علاقته بالعلويين حسنة جداً وقد ظهر الطموح السياسي للبيت العباسي بظهور علي بن عبد الله بن العباس الذي كان نشطاً من الناحية

السياسية وقد نظرت إليه الخلافة الأموية بعين الحذر إلا أن عبد الملك بن مروان كان يتودد إليه لأنه كان يرى بأن التصادم معه ربما يؤدي إلى ازدياد شهرته بين الناس، ولكن الوليد بن عبد الملك سجنه وضربه بالسياط ثم نفاه إلى الشراه فاتخذ الحميمة مكاناً لإقامته، وبعد وفاته سنة ١١٨هـ / ٧٣٦م ظهر ابنه محمد كشخصية قوية بين العباسين ومحمد هذا هو الذي أوصى له أبو هاشم بوصيته المشهورة وأعلم أسماء دعاته وأتباعه، وبهذا انتقلت القيادة من العلوبيين إلى العباسين.

ويذكر المسعودي أن أبي هاشم أوصى إلى علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وأن علي بن عبد الله أوصى إلى ابنه محمد بن علي وأن محمد أوصى إلى ابنه إبراهيم الإمام المقتول بحران وأن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبي العباس بن عبد الله بن الحارثية.

وعلى الأرجح فإن هذا التنازل كان لمحمد بن علي لا لأبيه علي، ذلك لأن محمد بن علي كان تلميذاً وصديقاً لأبي هاشم ولم يكن أبو هاشم ميلاً لعلي ابن عبد الله وأن للوراثة الروحية أثر في ذلك التنازل ومن المحتمل أيضاً أن علياً العبسي لم يشاً أن يورط نفسه وهو رجل كبير السن بأمور كالتي سبق ذكرها يضاف إلى ذلك المنافسة وعدم الوئام بين الفرع الفاطمي والفرع الحنفي من الحزب العلوي.

وبعد وفاة أبي هاشم وفد الدعاة العرب القاطنين في خراسان على محمد ابن علي العباس وربما كان الوفد قد وصل في حدود عام ١٠٠هـ على حد قول الطبرى ثم رجع الوفد إلى خراسان وانتخبوا أثنتي عشر نقيباً من أنصارهم وأرسلوا أسماء النقبياء إلى محمد بن علي ويذكر الطبرى أن أعضاء الوفد

اختاروا سبعين آخرين مساعدين لهم. وكان النقباء ينتمون إلى مختلف القبائل العربية وهم:

- من تميم: القاسم بن محاشع وعيسى بن كعب، لاحظ بن قريظه وموسى بن كعب.
- من شيبان: خالد إبراهيم الذهلي.
- من طيء: قحطبة بن شبيب.
- من خزاعة: سليمان بن كثير، مالك بن الهيثم، طلحة بن زريق، زياد بن صالح.
- من بجالة: أسلم بن سلام.
- ومولى حنيفة: شبل بن طهمان.

ويتضح من أسماء النقباء أعلاه أن أحد عشر نقيبا كانوا من العرب ونقيبا واحدا كان من الموالي وهذا يؤكد الدور القيادي الهام الذي اضطلع به العرب في قيادة الدعوة العباسية وتنظيمها.

ثم اختار الدعاة من بقية السبعين ٥٨ رجلاً من عرب مرو وخراسان وهناك دعاة الدعاة وهم مسؤولون عن تنظيم الدعوة خارج خراسان وكان عربا أيضا.

وقد ظن بعض المؤرخين أن اصطلاح أهل خراسان يعني السكان الفرس المحليين إلا أن المؤرخين والرواة المسلمين أطلقوا عدة اصطلاحات (أهل البصرة) و(أهل الشام) و(أهل الكوفة) و(أهل خراسان) على القبائل العربية التي سكنت هذه الأماكن، وقد فهم مؤرخون آخرون من اصطلاح (سكان القرى) التي يستعملها بعض الرواة والمؤرخين أنهم سكان بلاد محليين من الفرس الذين

يتعاطون الزراعة إلا أنه من الملاحظ بأن العرب وخاصة المستوطنين منهم في خراسان سكنا القرى وامتهنوا الحرف، ويؤكد المؤرخون الأوائل صفة غير العربي من أهل خراسان حين يذكرونها بنعنه بكلمة من العجم فيقولون مثلاً عن شخص ما (رجل من أهل خراسان العجم) وقد ورد في كتاب الإمامة والسياسة وجود عشر آلاف رجل مع أبي مسلم من أهل خراسان سوى العجم.

ولم يمض وقت طويل حتى نقل العباسيون مركز نشاط الدعاة إلى المستوطنين العرب في خراسان مع الاحتفاظ بالكونفة كنقطة ارتباط بين مرو والحميمة ويدرك الدوري أن الدافع الرئيس الذي حدا بمحمد بن علي إلى اختيار خراسان مركزاً لنشر الدعاة العباسية يرجع إلى سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية في خراسان.

ويرى عمر أن أسباب ذلك كثيرة تتلخص في إرسال الولاية الأمويين أربعة أخماس الغنيمة من خراسان إلى دمشق مما أدى إلى معارضة القواد والشيوخ العرب الذين أصرروا على الاحتفاظ بأربعة أخماس الغنيمة وهو حقهم، وأن سياسة التجمير أي إبقاء القوات العربية على حدود العدو وعدم فسح المجال لهؤلاء لقضاء مدة كافية بين عوائلهم، وتسلیط الدهاقين على العرب المستقررين في القرى لجباية الضرائب في حين كان العرب يرون أن الواجب يقضي بإعفائهم من الضرائب لأنهم عرب ومسلمون كما وأنهم استأعوا لتسليط الدهاقين الفرس عليهم، يضاف إلى ذلك حذف أسماء طائفة من المقاتلة العرب من الديوان، وروى الطبرى ما يؤيد قول عمر، قال الطبرى: مر هشام ابن عبد الملك وليه على خراسان (الجندى بن عبد الرحمن) يقرض العطاء إلى ١٥ ألف مقاتل من بين مجموع الحامية البالغ عددها ٤٠ ألف مقاتل ولم يكن هناك على أحسن تقدير أكثر من ١٦٠٠ مقاتل من الموالي النقية من العرب.

ويبدو أن السياسة الأموية في دمج العرب المستوطنين واحتلاطهم مع السكان الإيرانيين المحليين حيث وقع الجانبان تحت نفس الأخطاء السياسية والاقتصادية وكان سبب تذمرهم واحدا هو خطأ في سياسة الأمير الأموي وجشع الدهقان الفارسي كل ذلك أدى إلى تذمر سكان خراسان من عرب وموالٍ إذ لم تقتصر الحالة السيئة على الموالي وحدهم.

وقد استغل الدعاة العباسيون الذين انتشروا في المدن والقرى التي استقر فيها المقاتلة العربية أو استوطن فيها العرب أسباب التذمر التي يعني منها هؤلاء محاولين كسبهم بشتى الوعود والوسائل منددين بالأمويين مثيرين الحساسية بين المقاتلة أصحاب الامتيازات وغير المقاتلة الذين حذفت أسمائهم من الديوان وبين العرب القدماء وبين من هاجروا حديثا إلى خراسان مستفيدين من تصدام مصالح هذه الكتل المختلفة.

أما ما قيل عن وصية الإمام محمد بن علي العباسي لدعاته وتأكيده على خراسان فربما كانت من وضع جماعة من أنصار الدعوة للتدليل على رجاحة عقل محمد بن علي وعقيريته في اختيار أحسن الأماكن مركزاً لدعوته ولما كانت الدعوة العباسية وارثة للهاشمية التي كان لها أنصارها في خراسان قبل الدعوة العباسية فإن الأخيرة ركزت جهودها على خراسان، وقد أوصى محمد بن علي دعاته أن يستتروا وأن يتربوا بزي التجار ويدعوا إلى الرضا من آل محمد ومع ذلك فإن السلطة الأموية شعرت بوجود تنظيم سياسي ضدها، ففي سنة ١٠٩ هـ/٧٢٧ م ألقى أسد بن عبد الله القسري والي خراسان القبض على زياد بن محمد وكان المسؤول عن الدعوة في منطقة مرو وأمر بإعدامه مع عشرة رجال وصبيان عفا عن أحدهم وأعدم الآخر، وكان لهذا الحادث أثره على الدعوة فقد أرسل محمد بن علي خداشا وكان رجلاً كوفياً لإعادة تنظيم الدعوة العباسية.

ويذكر أن خداشا لم يتورع في إدخال أراء غير إسلامية متطرفة فظهر بواجهة إسلامية للبعض وبواجهة متطرفة خرمية للبعض الآخر مما أكسيها مرونة وجلب لها الاتباع، ويذكر الطبرى أن خداشا تكذب وأظهر دين الخرمية ودعا إليه ورخص بعضهم في نساء بعض وأخبرهم أن ذلك عن أمر من محمد ابن علي ولذا فقد تبرأ الإمام العباسى من خداش وأرسل بدله بكير من ماهان الذى نظم الدعوة العباسية تنظيمًا محكمًا، فقسم الأتباع إلى نقباء وكانت الأكثرية الساحقة منهم عربا يرأسهم شيخ النقباء والقائم بأمر خراسان سليمان ابن كثير الخزاعي وكان ذلك سنة ١١٨ هـ / ٧٣٦ م وأكده على وجوببقاء الشعارات العامة وهي الدعوة للرضا من آل البيت والتتدد بظلم الأمويين وجورهم والثار للمظلومين من آل البيت الذي لهم الحق بالخلافة.

وفي سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م عين نصر بن سيار الكنانى واليا على خراسان وقد استمرت ولاية نصر على خراسان حتى نهاية الدولة الأموية بالرغم من محاولات يوسف بن عمر والي العراق لاستعادة سيطرته على خراسان وقد قام نصر بتغيير النظام الضرائبى فى خراسان فقد فرض الخراج على الأرض مهما كانت جنسية الشخص المالك وفرض الجزية على أهل الذمة فامتنع الدهاقون وأتباعهم الذين كانوا معفيين من الضرائب وكان العرب أول من تذمر من هذه السياسة لأن المسلم لا يدفع ضريبة الخراج على الأرض إنما يدفع العشر فقط.

نشطت الدعوة العباسية في عصر هشام (١٢٥-١٠٥ هـ / ٧٤٢-٧٢٣ م) بفضل قيادة وإشراف محمد بن علي إلى أن مات سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م. وعندما كان محمد بن علي في مرضه الأخير زاره بكير بن ماهان بالشام من أرض الشراه فعرفه محمد بابنه إبراهيم وقال له هذا إبراهيم سيفودكم وبعد الوفاة ذهب بكير من ماهان إلى خراسان ومر في طريقة بالковفة وفيها أمر كبار مؤيدي الدعوة وأنصارها أن يتوجهوا إلى إبراهيم ليتعرفوا عليه.

توجه وفد من أهل الكوفة لزيارة إبراهيم الإمام وقد ضم الوفد الذي زار إبراهيم الإمام من جملة ما ضم صبياً واسمه عبد الرحمن الخراساني والذي كني فيما بعد (أبو مسلم) والراجح أن الدعوة قد تعرفوا عليه في سجن الكوفة، فإن صحت هذه الرواية فهذا يعني أن انضمام أبي مسلم للدعوة العباسية كان في أواخر عام ١٢٤هـ / ٧٤١م ولم يتعرف أبو مسلم على محمد بن علي بل تعرف على ابنه إبراهيم الإمام، وقد ألقاه إبراهيم الإمام إلى جانبه إما للاختبار أو لتقينه مبادئ الدعوة العباسية وخاصة وأن إبراهيم وجد فيه الإنداخ والحماسة للدعوة ثم أرسله إبراهيم لتولي قيادة الدعوة في خراسان وذلك سنة ١٢٨هـ / ٧٤٥م والتاريخ الأخير هو بداية دور العلن للدعوة العباسية.

وفي سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣م عين أبو سلمة الخلل (حفص ابن سليمان) رئيساً للدعوة العباسية في الكوفة ثم قام أبو سلمة بزيارة خراسان حيث زار جرجان والتقي بالمسؤول عن الدعوة فيها وهو أبو عون (عبد الملك بن يزيد الأزدي) وهو يومئذ رئيس القوم، وفي مردو التقى بسلامان الخزاعي وأرسل مجاشع بن هريث إلى ما وراء النهر.

أما أبو مسلم فلم يقبله سليمان بن كثير الخزاعي في خراسان في أول الأمر حيث طرده ولم يقبله بين صفوف الدعوة ولكن نفور بعض الدعاة أمثال أبي منصور طحة بين زريق وأبي داود خالد بن إبراهيم وغيره من كبراء سليمان هو الذي دعاهم إلى قبول الشخص الغريب أبي مسلم فاضطر سليمان إلى الإعتراف بأبي مسلم خوفاً من انشقاق الثورة وتصدّعها.

ولعل عدم قبول سليمان لأبي مسلم في بداية الأمر يعود إلى صغر سن أبي مسلم وقلة تجربته التي قد تعرض الدعوة إلى الخطر يضاف إلى ذلك أن

سلیمان طلب من ابراهیم أن يبعث له ممثلاً من أهل البيت أي من الهاشميين وخاصة العباسيين ولم يكن يتخيّل أنه سيرسل له مولاه ليمثله في خراسان.

إن أهم ما قام به هو اختيار اللون الأسود شعاراً لل Abbasians لأن هذا اللون كان رأيَ الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عندما دخل مكة وكذلك فقد كان علي بن أبي طالب يرفع الرأيَ السوداء في بعض حروبه.

وفي سنة ١٢٧هـ / ٧٤٤م تسلم مروان بن محمد الخليفة الأموية بعد أن زحف بجيش من الجزيرة مدافعاً عن حق أبناء الوليد الثاني المقتول، ولكن سرعان ما أعلن نفسه خليفة بعد أن قتل أبناء الوليد في دمشق في ظروف غامضة، ولم يكن مروان مستنداً على أساس شرعية في دعوته بالخلافة حيث لم يكن له حق شرعي فيها، ورغم أن أهل الشام لم يبدوا معارضته في بادئ الأمر فإن التذمر بدأ ينمو وقويت المعارضة من قبل النساء الأمويات أنفسهن وثارت مصر والجaz والجزيرة وسوريا واليمن، ولقد ساعد هذا الوضع المتدهور الدعاة العباسيين على تركيز نشاطهم خلال سنة ١٢٩-١٢٥هـ / ٧٤٦-٧٤٥م وخاصة في القرى التي يسكنها العرب في أطراف مرو وغيرها.

إن سند الدعاة العباسيين جاء من العرب المستقرين في مرو وضواحيها الذين أدركوا بأن لا مفر من الثورة من أجل تغيير جزري لا في خراسان نفسها بل في كل الإمبراطورية هذا رغم وجود بعض الموالي ضمن أنصارهم.

وقد أدرك الدعاة العباسيين بأن العرب وحدهم مصدر للسلطة والقوة الوحيدة في خراسان ومن أجل إنجاح الثورة يجب أولاً كسبهم إلى الدعوة ولم يفضل الدعاة العباسيون في بداية الدعوة قبيلة عربية على أخرى بالرغم من أنهم حصلوا على مساعدة من اليمانية أكثر من المضريقية إلا أنهم كانوا دائماً يرحبون بالمضربيين الذي يرغبون بالانضمام للدعوة العباسية.

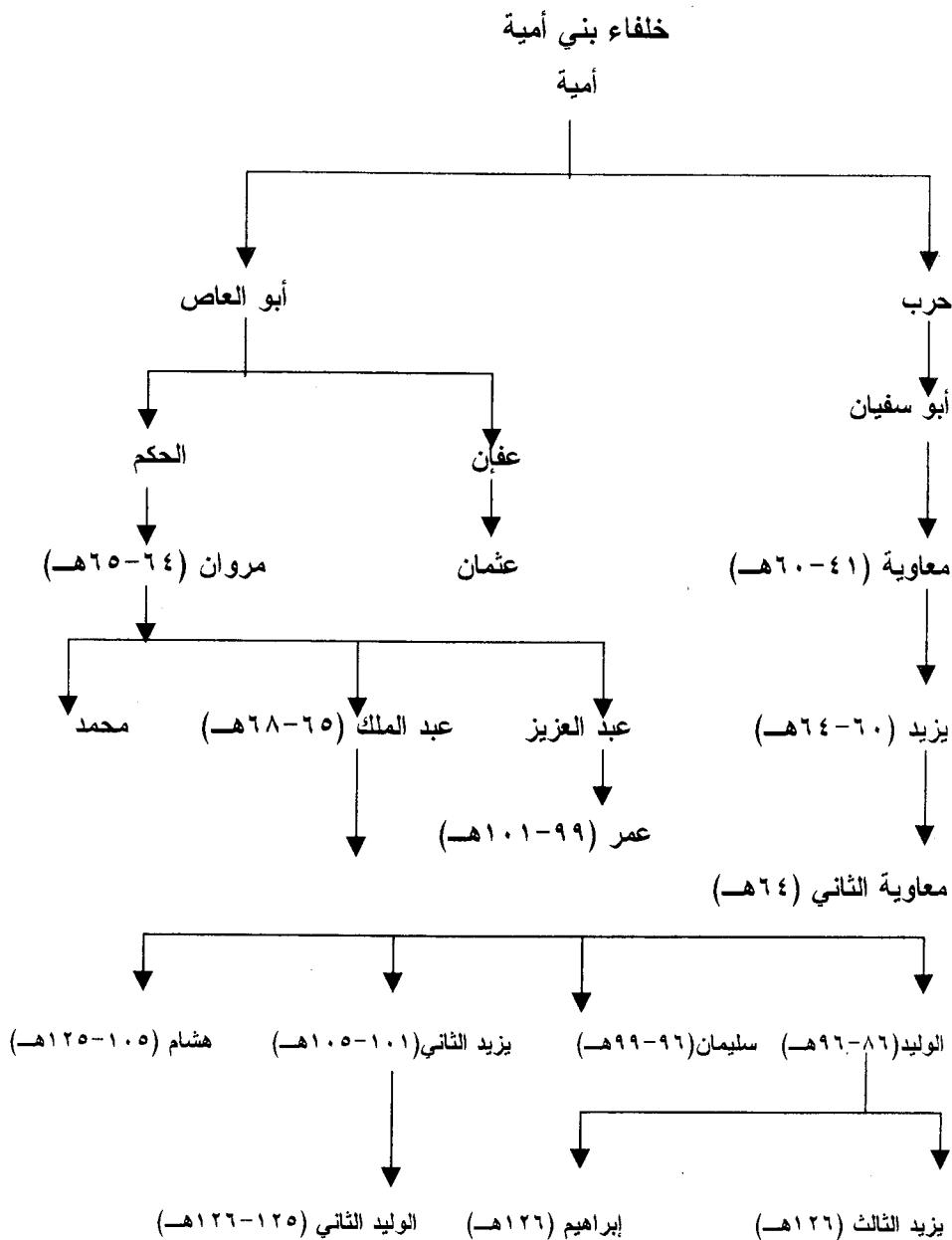
وجاء أمر إبراهيم الإمام إلى سليمان الخزاعي بضرورة إعلان الثورة، فأعلنت في ٢٥ رمضان سنة ١٢٩هـ/حزيران ٧٤٧م، وفي سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م تمكن الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاءبني أمية من إلقاء القبض على إبراهيم وسجنه، ومات إبراهيم في السجين في محرم ١٣٢هـ/٧٤٩م وكان قد أوصى قبل وفاته بأن يكون أخوه أبو العباس إماماً للدعوة العباسية من بعده حيث أُعلن ذلك في جمع من الهاشميين ومواليهم.

واستمر الدعاة برئاسة سليمان الخزاعي على عملهم بنشاط وعزيمة فتمكنوا من السيطرة على مرو وتمكن القائد قحطبة بن شبيب الطائي من الاستيلاء على خراسان التي انطلقت جيوش العباسيين منها إلى الري ثم ساروا إلى نهاؤن وسيطرروا عليها وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم لدخول العراق، وفي سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م عبر الجيش العباسي الفرات نحو الكوفة حيث انتصر على الجيش الأموي الذي كان يقوده ابن هبيرة وقد استدرج نصر بن سيار بالأمويين في دمشق وحضرهم من خطر العباسيين ولكن مروان كان مشغولاً بقمع الثورات المتعددة وطلب نصر النجدة من يزيد بن عمر والي العراق لكن الأخير اعتذر بعدم وجود قوات إضافية عنده وتظاهر بانشغاله بقمع الاضطرابات في العراق كما أنه ادعى بأن أهل العراق لا يمكن التقة بولائهم للأمويين.

وزحف الجيش العباسى بقيادة عبد الله بن علي إلى الزاب حيث تخندق مروان بن محمد بين دجلة والزاب الكبير، وكان جيشه مؤلفاً من أهل الشام والجزيرة كما انضم إليه البدو واستمرت المعركة عشرة أيام وارتکب مروان خطأ استراتيجياً كبيراً بعبوره إلى الساحل الأيسر من الزاب الكبير فقد فقد سيطرته وموقعه الحصين ولذلك خسر المعركة وانسحب باتجاه الموصل التي أغلقت أبوابها بوجهه فاضطر للانسحاب نحو الشام يتبعه عبد الله بن علي ومن الشام هرب إلى فلسطين فمصر يتبعه عبد الصمد بن علي وقد فوجئ مروان

وهو مختلف في إحدى كنائس قرية بوصير بالجيش العباسى فقتل وهو يحارب
في ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م.

ملحق رقم (١)



معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ):

ولد معاوية بن أبي سفيان قبل الهجرة بحوالي خمسة عشر عاماً، ودخل الإسلام يوم فتح مكة مع من دخل من أهل مكة وكانت سنه آنذاك ٢٣ عاماً، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) حريصاً على أن يقرب إليه حديثي العهد بالإسلام من عظاماء الأسر حتى يضمن إقبالهم على هذا الدين ويتيح لهم الفرصة ليعتمق الإسلام في قلوبهم، وعلى هذا قرب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إليه معاوية وضمه إلى كتاب الوحي، وقد روى معاوية عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعن كبار الصحابة وعن أخته زوجة رسول الله حبيبة بنت أبي سفيان، كما روى عنه سعيد بن المسيب وأخرون.

وكان يزيد بن أبي سفيان قائداً لأحد الجيوش الأربع التي وجهها الخليفة أبو بكر الصديق لفتح الشام وكانت وجهته دمشق ولما أراد الخليفة أن يرسل مددًا لهذه الجيوش كان معاوية على رأس المدد الذي أرسل ليزيد، وحارب معاوية تحت إمرة أخيه وتولى قيادة الفيلق الذي فتح صيدا وبيروت وغيرهما من سواحل الشام، ولما تم النصر لل المسلمين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ولــ الخليفة عمر يزيد ولاية دمشق كما جعل معاوية واليا على الأردن، وتوفي يزيد في طاعون عمواس في عهد الخليفة عمر، فضم عمر إلى معاوية ولاية دمشق ولــما جاء عهد الخليفة عثمان جمعت لــ معاوية ولاية الشام كله، وأصبح حكامه تحت أمره يولــهم ويــعزلهم وظل أميراً عــشرين عاماً كما أصبح بعد ذلك خليفة عــشرين عاماً.

وكان من نتائج معركة صفين أن ضعف الوضع العسكري والسياسي للخليفة على ابن أبي طالب فقد حاربه الخوارج بشدة وترافق أهل البصرة عن تأييده وكان أهل الكوفة معه بارائهم فقط، كما تمردت بعض الولايات الفارسية وحاول أهل كرمان وفارس الامتناع عن دفع الخراج.

وفي سنة ٤٦٠ هـ / ٦٦٠ م عقدت هذه قصيرة بين الخليفة علي ومعاوية إذ اتفقا على أن يكون العراق تحت حكم الخليفة علي والشام تحت حكم معاوية ولا يتدخل أحدهما في شؤون الآخر ولا غارة ولا غزو بينهما. وفي السنة نفسها أعلن معاوية نفسه خليفة للمسلمين وأخذ البيعة من أهل الشام وبذا يكون معاوية قد تحدى الخليفة علي فقرر إعداد حملة لمحاربة معاوية لكن استشهاده حال دون ذلك وبعد استشهاد الخليفة علي بايع أهل الكوفة وما جارواها الحسن بن علي.

وفي سنة ٤٦١ هـ / ٦٦١ م دانت الأمة العربية الإسلامية لمعاوية بن أبي سفيان، إذ أن الحسن بن علي حينما رأى ضعف أنصاره وقلة إخلاصهم لقضية تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رغم معارضة أخيه الحسين وعقدت معااهدة بين الطرفين التزم فيها معاوية أن يعمل بكتاب الله وسنة الرسول وأن تكون الخلافة له مادام حيا ويكون الناس آمنين حيث كانوا من أرض الله وأن لا يولي أحداً بعده.

ولكي يوطد معاوية دعائم خلافته، اعتمد على مجموعة من الولاة الكفوئين في تذليل المشاكل والقضاء على التأثيرين ضده، وتبني حكمه في الولايات وأبرز هؤلاء الولاة عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه.

ولم يبق معاوية في الحجاز مثل الخلفاء الراشدين بل أقام في الشام، واتخذ دمشق عاصمة لخلافته وقد ابتكر معاوية في خلافته أشياء لم يسبق إليها

فهو الذي أمر أن ترفع الحراب بين يديه وهو الذي وضع المقصورة ليصل إلى بها في المسجد ليأمن هجمات الأعداء حين صلاته. ومن مبتكرات معاوية كذلك ترفيه نظام البريد بحيث كانت الخيل المصمرة تقف مستعدة في مراكز على طول الطريق، فيركب صاحب البريد واحداً منها ويسرع به حتى يصل إلى محطة أخرى فيستبدل به غيره ويتركه ليستريح وهكذا، وأنشأ معاوية كذلك ديوان الخاتم.

ويذكر أن عهد معاوية كان من أنصر عهود الخلافة الإسلامية، كان فيه الأمن الداخلي مستتبًا، فقد غلت على أمرها كل العناصر المعادية لمعاوية، غلت بعثاته أو بسيفه وكان عهده حافلا بالرخاء والغنى، أما العلاقات الخارجية فقد كان للمسلمين فيها النصر والغلبة.

يزيد بن معاوية (٦٤-٦٥هـ):

هو يزيد بن معاوية وأمه ميسون الكلبية، وهي امرأة بدوية تتزوجها معاوية قبل أن يلي الخلافة ولكنها لم تحتمل حياة الحضر فأعادها معاوية إلى أهلها ومعها ابنها يزيد فنشأ هذا في الباذية حيث أجاد اللغة والأدب والصيد بقدر ما جهل الخداع والسياسة والإدارة.

لقد حاول معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد وهو على قيد الحياة وقد واجهت معاوية صعوبات في هذه المحاولة الرامية لحصر الخلافة في عائلته من هذه الصعوبات التقاليد الإسلامية التي تؤكد بأن الحكم لله يحمل أعباءه أفضل المسلمين وهو ليس ملكاً بشرياً يتوارثه الناس ولا تبيح التقاليد العربية انتقال الرئاسة من الأب إلى الابن رغم أنها تبيح ذلك داخل القبيلة أو العشيرة بضاف إلى ذلك أن الغالبية العظمى من المسلمين لم تكن تميل إلى يزيد لعدم توفر

صفات الخلافة فيه ولذا فقد بذل معاوية جهوداً لأخذ البيعة من المتندين واستعمل القوة تارةً والمال والدهاء السياسي تارةً أخرى.

تولى يزيد الخلافة بعد موت أبيه، وذلك في سنة ٦٨٠ هـ وقد كتب يزيد إلى سائر الأمصار بتوليه فبأيته إلا أنه امتنع عن مبايعته اثنان عظيمان الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وهما من النفر الذين رفضوا مبايعته بولاية العهد، وعلى الرغم من أن يزيد طلب من عامله على المدينة إلزامهما بمبأيعته فإنهما رفضا وتمكنا من مغادرة المدينة والذهاب إلى مكة في أواخر رجب ٦٨٠ هـ.

ذهب الحسين بن علي إلى الكوفة حيث قاد ثورة ضد يزيد وظل عبد الله اسبن الزبير في مكة ثم استغل مقتل الحسين للتشريع على أهل الكوفة وعلى حكم بني أمية وللتعریض بيزيد.

لقد كان حكم يزيد حوالي ثلاثة سنوات فقط، ولم يهناً يزيد بالخلافة يوماً واحداً، فقد ثارت في وجهه الأحداث ، فأخذ يعالجها ولكن العلاج كان أقسى من الداء ثار في وجه الحسين، فقتلته له عبيد الله بن زياد وكان قتلته ببابا من الشر على بني أمية لم يقل فقط وثارت عليه المدينة فكانت موقعة الحرفة المشؤومة التي أراق مسلم بن عقبة فيها دماء مئات من الصحابة ومن ابنائهم فجلب ذلك الفعل سخط المسلمين على يزيد وثار عليه ابن الزبير بمكة فأرسل جيشاً رمى الكعبة بالمنجنيق.

توفي يزيد بن معاوية في سنة ٦٨٣ هـ وقد لجأ إلى المبايعة المبكرة لأكبر أبنائه الذي سماه معاوية على اسم أبيه وقد كان معاوية بن يزيد صغير السن ولم يتجاوز عمره سبع عشر سنة.

معاوية الثاني بن يزيد (٦٤ هـ):

لقد بايع أهل الشام لمعاوية الثاني بعد موت أبيه ولكن عبد الله بن الزبير كان قد أعلن نفسه خليفة في عهد يزيد وما يزيد قبل القضاء على ابن الزبير ولما مات يزيد كبر أمل ابن الزبير في النجاح، وجاء معاوية الثاني في هذه الظروف فرأدك أنه لا قوة له للاشتراك في هذا الصراع فجمع الناس بالمسجد وخطب فيهم خطبة قال فيها: إني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حيث استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت سنة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأولى بأمركم فاختاروا الله من أحبابتم، فما كنت لأتزودها ميتاً وما استمتعت بها حيا.

ولم تطل خلافة معاوية الثاني أكثر من أربعين يوماً ثم تنازل عن الخلافة وانزوى في بيته حتى مات بعد ثلاثة أشهر، وانتهت بذلك صفحة معاوية الثاني من التاريخ وانتهى بانهائه العهد السفياني وبدأ العهد الأموي الثاني وهو عهد بني الحكم بن أبي العاص ابن أمية ويروى أن عبد الملك بن مروان كان يرى أن سرعة نهاية الفرع السفياني جاءت نتيجة لقتل الحسن بن علي ولذلك كتب إلى الحاج يقول: جنبني دماءبني عبد المطلب فليس فيها شفاء الحرب وإنني رأيت في حرب تداعى ملوكهم لما قتلوا الحسين بن علي.

مروان بن الحكم (٦٥-٦٤ هـ):

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، ويذكر أن عمره كان ثمانين سنين عندما توفي الرسول (صلى الله عليه وسلم) والأرجح أنه رحل مع أبيه الحكم بن العاص إلى المنفى حينما طرده النبي خارج المدينة بسبب أنه كان يفشي أسراره ولم يحسن إسلامه، فبقى في منفاه في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلافة أبي بكر وعمر إلى أن رده أخوه عثمان إلى المدينة وقد تولى

مروان المدينة لعثمان واشترك في حملة ابن أبي سرح على أفريقية فكتب له الخليفة بخمس غنائمها مما جعل الناس ينكرون على عثمان تبذيره أموال المسلمين على أقربائه وبعدئذ نجد مروان يقاتل عن عثمان أثناء حصاره يوم الدار، وبعد مبايعة على خرج مروان من المدينة مع طلحة والزبير وعائشة مطالباً بدم عثمان فقاتل معهم في موقعة الجمل.

ثم أخذ مروان الأمان من علي وبابع له ورجع إلى المدينة ولم يزل بها حتى حصل معاوية على الخلافة وقد تولى مروان لمعاوية عمل الحجاز عدة مرات وأتخذ في المدينة دار العباس وجعلها داراً لإمارته فعرفت لوقت طويل باسمه (دار مروان) ولما خلع أهل الكوفة بيعة يزيد ووثبوا ببني أمية وأجلوهم خرج مروان معهم، وان عاد إليها بعد موقعة الحررة مع جيش مسلم بن عقبة ويظهر أن آل مروان كانوا خيراً عون لمسلم، فكتب يزيد إليه يشكره على معاونته لجيشه ويدعوه إلى الشام لينتقم بمنصبه فقدم مروان عليه ولم يزل بالشام إلى أن ولى الخليفة في ذي القعدة سنة ٦٤هـ.

كان أمام مروان صراع طويل أوله صراع بالشام مع القيسية الذين يقودهم الضحاك بن قيس وبعد ذلك يخرج الصراع إلى العراق والهزاز ومصر وغيرها وقد حصلت موقعة كبيرة بين الضحاك وبين مروان في مرج راهط في سنة ٦٥هـ قتل فيها الضحاك وكثيرون من قومه وفر بعدها النعمان وزفر وخلت الشام بذلك لمروان وبعدها سار إلى مصر فافتتحها وبابعه أهلها وترك بها ابنه عبد العزيز والياً عليها.

وأرسل عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق إلى فلسطين حيث كان مصعب بن الزبير قد زحف عليها فانتصر عمرو في هذه المعركة وعاجلت المنية مروان قبل أن تظهر نتيجة الصراع الذي بدأ في الحجاز والعراق فمات

في رمضان سنة ٦٥هـ بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابنه عبد الملك ثم عبد العزيز، وخالف بذلك ما جاء في مؤتمر الجابية الذي كان ينص على أن تكون الخلافة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد ثم عمرو بن سعيد بن العاص.

لقد كان لمروان بن الحكم الفضل في الاحتفاظ للأمويين بالخلافة كما أن توليه عهده لاثنين دليلاً قوياً على رغبته في تقاديم ما وقع بعد معاوية الثاني مما جعل جميع الخلفاء الأمويين بعده يسيرون على نهجه بتوليه عهودهم لاثنين.

عبد الملك بن مروان (٦٥-٦٨٦هـ):

ولد عبد الملك بن مروان في سنة ٤٦هـ/٢٦٠م وشهد يوم الدار وهو صغير وبعد أن أخذ أبوه الأمان من علي بقي في المدينة فتميزت حياته فيها بحبه للفقهاء والعلماء، وقد تولى ديوان المدينة لمعاوية ولما وثبت أبناء المدينة ببني أمية وأجلوهم خرج منها ولكنه ما لبث أن رجع إليها هو وأبوه مع جيش يزيد الذي تمكّن من دخولها بفضل المعلومات الدقيقة التي قدمها بنفسه للقائد مسلم بن عقبة وبعد إقامة قصيرة، ارتحل إلى الشام مع أبيه، بناء على دعوة يزيد وقد تولى عبد الملك الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٥هـ/٦٨٥م وكان يوصف على أنه شخصية جباره وشديدة السياسة.

ومن أهم الأحداث التي واجهت عبد الملك بن مروان حركة عمرو بن سعيد الأشدق في سنة ٧٠هـ/٦٨٩م فعندما خرج عبد الملك من دمشق لمحاربة مصعب ابن الزبير في العراق طلب ابن الأشدق من عبد الملك أن يعينه ولیاً لعهده لبیر بو عده وكان ذلك في طريقهم إلى العراق، ولكن عبد الملك لم يكتثر لذلک فترك ابن الأشدق واتبعه في معسكر عبد الملك ليلاً عائداً إلى دمشق وقد حاصر عبد الملك ابن الأشدق ستة عشر يوماً تمت خلالها مراسلات ومفاضات

توصل فيها الطرفان إلى اتفاق تم بموجبه استسلام ابن الأشدق ودخول عبد الملك دمشق، غير أن عبد الملك قرر التخلص من ابن الأشدق فدعاه إلى قصره وقتلته.

كما كان المختار بن أبي عبيد الثائر في الكوفة عدوا لكل من عبد الملك وعبد الله بن الزبير ولذلك اشترك الاثنان في محاربته، وعندما ولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة أمره بتخلص الكوفة فسار بجيش كبير وكانت ضلالات المختار قد ظهرت فتخلى عنه أهل الكوفة فقتله مصعب وقتل من بقي معه وخلص العراق بذلك لابن الزبير.

ولم يهنئا الزبير بالنصر الذي أحرزه ضد المختار، إذ أن عبد الملك سرعان ما سار بنفسه ومعه قادته وجنته إلى العراق والتقى بمصعب وجنده ولكنهم سرعان ما انفضوا من حوله فهزمه وقتل وكان الحاج بن يوسف ضمن قادة عبد الملك في هذه المعركة ولما قتل مصعب استسلم قادته فأمنهم عبد الملك وأبقاهم في مناصب القيادة ومن هؤلاء الملهم بن أبي صفرة الذي أصبح من خيرة القادة للخلفاء الأمويين وكان له دور كبير في القضاء على الخوارج وإبراهيم بن الأشتر الذي كان قد اصطفه مصعب بن الزبير ثم أمنه عبد الملك بعد مقتل مصعب.

ولم يبق أمام عبد الملك إلا الحجاز حول ابن الزبير فأرسل عبد الملك قائده الحاج لمقاتلته فسار الحاج سنة ٧٢هـ وحاصر مكة ورمها بالمنجنيق واشتدت الحال على أهل مكة حتى تخلوا عن ابن الزبير واستشار ابن الزبير أمه فيما يفعل فأشارت عليه أن يظل يدافع عن عقيدته حتى يموت كما مات أصحابه فاستجاب لرأيها وصمد في المعركة حتى قتل وعين عبد الملك الحاج واليا على الحجاز.

ومن أعمال عبد الملك المجيدة أنه عرب الدواوين فقد كان ديوان الشام يكتب باليونانية وكان ديوان فارس يكتب بالفارسية وكان ديوان مصر يكتب بالقبطية فعزم عبد الملك على نقلها جميعاً إلى اللغة العربية وقد تم في حياته نقل ديوان الشام إلى العربية على يد سليمان بن سعد ونقل ديوان فارس على يد صالح بن عبد الرحمن، أما ديوان مصر فقد تم نقله في عهد الوليد ومن الأعمال المجيدة لعبد الملك أيضاً سك النقود الإسلامية سكاً منتظماً.

وبعد أن تغلب عبد الملك على أعدائه عاد إلى حركة الفتوح التي استمرت بعده وامتدت امتداداً هائلاً لم يكن يفكر فيه الخلفاء الأوائل ولم تستطع الدولة العباسية التي جاءت بعد الأمويين أن تحافظ بكل ما فتح في عهدهم.

توفي عبد الملك بن مروان في شوال ٨٦ھـ / ٧٠٥م بعد خلافة حافلة بالأحداث لمدة ٢١ عاماً فقضى على الفتن العديدة بشده شكيمته وشخصيته الجباره وقد عرف بأنه (أبو الملوك) لأنه ولـى الخلافة بعد أربعة من ولـه أولهم الوليد، فكان يـكنـى بأبي الـولـيد.

الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ھـ) :

ولد الـولـيد سنة خمسين للـهـجـرة، وتلقـى بعض الثقافـات الإـسلامـية ولكن ثقافـته في اللغة العـربـية كان ضعـيفـة فقد كان لـهـانا وكانت الـبـادـيـة مـدرـسـة لـمن أراد أن يـتـلـمـعـ فيـ اللـغـةـ الفـصـحـىـ بعيدـاـ عـماـ اـنـتـشـرـ بالـمـدـنـ الإـسـلـامـيـةـ منـ لـحنـ بـسـبـبـ اختـلاـطـ الـعـربـ بـغـيرـ الـعـربـ، ولكنـ أـبـاهـ لمـ يـدـعـهـ فيـ لـهـنـهـ وـخـطـئـهـ بلـ قـالـ لـهـ فيـ حـزـمـ: أـنـهـ لاـ يـلـيـ أـمـرـ الـعـربـ إـلـاـ مـنـ يـحـسـنـ كـلـامـهـ، وـلـهـذـاـ دـخـلـ الـولـيدـ بـيـتاـ وـأـخـذـ مـعـهـ جـمـاعـةـ مـنـ عـلـمـاءـ النـحـوـ وـأـقـامـ مـدةـ يـشـتـغلـ فـيـهـ.

وـكـانـ مـرـوـانـ بـنـ الـحـكـمـ قدـ بـاـيـعـ لـابـنـيهـ عـبدـ الـمـلـكـ ثـمـ عـبدـ الـعـزـيزـ، وـلـكـنـ عـبدـ الـعـزـيزـ مـاتـ قـبـلـ وـفـاةـ عـبدـ الـمـلـكـ فـعـيـنـ عـبدـ الـمـلـكـ وـلـدـهـ الـولـيدـ ثـمـ سـلـيـمانـ سـنةـ

٥٨٥ — وكتب بذلك إلى البلدان فبائع الناس ولم يمتنع غير سعيد بن المسيب بالمدينة، ولما مات عبد الملك جدد الناس البيعة للوليد.

لقد ذكرنا سابقاً الجهد الكبير الذي بذله عبد الملك ليعيد وحدة العالم الإسلامي والعناء المتصل الطويل الذي استلزم صراعاً امتد حوالي عشرين عاماً ولكن عبد الملك استطاع أن يحقق أمله وأن يصل إلى غايته وترك لابنه الوليد ملكاً مستقراً هادئاً متحداً لقد بني عبد الملك البناء شاهقاً وجاء الوليد فريئه وحسنه ونماء.

ومن أعمال الوليد العظيمة أنه تعهد الأيتام وكفلهم ورتب لهم المؤدبين وللأضرار من يقودهم ورتب لهؤلاء جميعاً الأرزاق المنتظمة، كما وضع المجدومين في بيت يرعاهم طيباً حتى لا يخرجوا على الناس بعاهاتهم ورتب لهم الأرزاق وأعطى كل مقدم خادماً يهتم بأمره وأجرى لهم الأرزاق كذلك.

واهتم الوليد كذلك بالعمaran فأنشأ الطرق ومهدها وعمل على إنارة الطرق في المدن ليلاً فكشف ظلمتها الدامسة كما حفر الآبار على طول هذه الطرق ووظف من يعني بهذه الآبار ويمد الناس بمائها ويروى أن الوليد كان شديد الكلف بالمعماريات والأبنية واتخاذ المصانع حتى اشتهر بذلك.

ومن أثار الوليد الخالدة في العمارة المسجد الأموي بدمشق، ويروى أن الوليد لما انتهى من بنائه قال لأهل دمشق: «يا أهل دمشق إنكم تخررون بأربع؟ بهوائكم ومالكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن يكون مسجداً الخامس».

ومن أثاره كذلك عمارة المسجد النبوى وقد قام بذلك والي المدينة عمر بن عبد العزير فهدم البناء القديم بأمر الخليفة وأعاد بناءه بعد أن وسعه بإدخال حجرات أزواج الرسول فيه وكذلك بإدخال دور أخرى اشتريت لهذا الغرض.

لقد توفي الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٦ هـ بعد أن عمل على توسيع رقعة الإسلام إلى مدى لم تصله من قبله أو بعده بحيث جعل الدولة العربية الإسلامية أشبه بهلال ضخم رأسه عند جبل البرتان والأخر قرب الصين كذلك أقام المسلمين أفضل عمايرهم وأجملها وأثبت أن خلفاء الإسلام بناة وهم يتمتعون بذوق عال.

سليمان بن عبد الملك (٩٩-٩٦ هـ):

ولد سليمان بن عبد الملك سنة ٥٤ هـ وبويغ له بعد موت أخيه الوليد، وكان الوليد غير راض عن تولية أخيه سليمان الخلافة من بعد بناء على توصية عبد الملك ويريد أن يولي عهده لابنه عبد العزيز ولكن سليمان أبي التحي عن ولایة العهد كما أن كثيراً من الناس لم يجيروا الوليد إلى تولية عبد العزيز، مما جعل الوليد لا يتمكن من خلع سليمان، فبويغ لسليمان بعده بالخلافة في جمادى الآخر سنة ٩٦ هـ / ٧١٥ م.

وقد ولدت محاولة إقصاء سليمان عن الخلافة في نفسه الحقد والرغبة في الانتقام من هؤلاء الذين وافقوا الوليد على تحيته وكان معظمهم من عمال الحاج وقاد الفتح، فضلاً عن أنه يصفه المؤرخون كان مغروراً معتبراً بمناسبه مما تولى الخلافة حتى أمر عامله بمكة خالد بن عبد الله القسري بشتم الحاج ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه وعزل سليمان فتيبة بن مسلم الذي كان عاماً للحجاج على خراسان والقائد المظفر في بلاد ما وراء النهر كذلك أمر سليمان بعزل محمد بن القاسم فاتح السند مع أنه لم يقم بقتله، وذلك لأنه كان من أقرباء الحاج وعامله وأمر يزيد بن أبي كبشة بقتله، وقد كان موت محمد بن القاسم خسارة فادحة، أبكىت أهل الهند أنفسهم لاحترامه عقائدهم ولعدالتة وقد أساء سليمان أيضاً معاملة قواد المغرب والأندلس مع أنهم لم يكونوا من عمال الحاج

أو أقربائه فلعله حقد عليهم لأنهم أقاموا موكب النصر في عمّ سلفه، وكان يريدها لنفسه، فلم يعد يسمع أي خبر عن طارق بن زياد كما انتقم من موسى بن نصير بأن وضعه بالحبس وأساء معاملته.

وقد عرف عن سليمان حبه لقصره الصحاوي في الرملة وإيمضاؤه أغلب وقته فيه وكان اتجاهها عاماً للأمويين قبل سليمان وبعد أن اتخذوا القصور الصحاوية لتنقلهم من ضريح الحياة بدمشق إلى هدوء الصحراء ونسيمها العليل وجوها الصحي السليم من الأوبئة ولكن سليمان يمتاز عن غيره بأنه تألق في قصره بالرملة فلما تولى الخلافة استكمل القصر أناقه فأصبح كأنه عاصمة صغيرة لأن الخليفة بنى مسجداً بجوار القصر وحفر الآبار ومد الأنهر وسمح لكثير من اتباعه بالبناء حول قصره.

على الرغم من نفائص سليمان وحبه لمذاته فإن الفتوحات في عهده لم تقف فقد قام بحصار القدس الثانية الذي استمر طوال فترة حكمه كما استطاع عامله يزيد بن المهلب الذي ولاه العراق والشرق، ومن فتح بلاد بحر قزوين التي لم تفتح من قبل.

استمر حكم هذا الخليفة الشاب زهاء ثلاثة سنين، وتوفي بداعيق في سنة ٩٩هـ/٧١٧م ويبدو أن الناس أحبوه لحبه للحياة، حتى أنهم في زمانه تطعوا في بطابعه أو لأنه أحسن إليهم وأخلى السجون، ولم يستعمل معه الشدة، أما فتوحه وإن لم تكن حاسمة أو مثمرة كما هي في عهد سلفه إلا أن حماسه في مد رقعة الإسلام كان لا يقل عن حماس سابقيه من الخلفاء.

عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ):

ولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة في سنة ٦٣هـ/٦٨٣م وأمضى شطراً كبيراً من حياته فيها، إلى أن استدعاه عبد الملك بعد وفاة أبيه في سنة ٨٥هـ/

٤٧٠م وزوجه ابنته فاطمة ولما تولى الوليد الخليفة ولاه إماراة الحجاز في سنة ٨٧٦هـ فكان فيها مثال العامل الرحيم على عكس ما كان في بقية العمال في ذلك العصر من قسوة مثل الحاجاج، فجعل مجلساً من فقهاء عشرة، لا يقطع أمراً إلا برأيهم، حتى عرف بالرجل الصالح وفي أثنائها قام بهدم المسجد النبوى في عام ٨٧٦هـ، وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع بحيث لما حج الوليد في سنة ٩١٥هـ/٧١٠م دخله وأعجب به وأخلى الناس منه ليتمتع ببهائه وقد كان لعدل عمر في عمله أن التجأ إليه عدد كبير من الفارين من قسوة عمالهم مما جعل الحاجاج يحرض الوليد عليه فنحاه الوليد عن الإمارة في سنة ٩٠٢هـ/٧١٢م وذلك بعد ولادته استمرت أكثر من سبع سنين.

ولما اختاره سليمان لمنصب الخليفة كان على غير علم منه وزهد فيها، فأصبح الخليفة المثالي في الحكم والخلق حتى أنه قال في أول خطبه له : "أني لست بخيركم ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أتقلكم حملاً وقد جعلته هذه المثالية ينزع إلى طريقة الخلفاء الأربعاء والصحابة جهداً.

ما جعله يختلف اختلافاً تماماً عن سبقه من الخلفاء الأمويين الذين كانوا يعيشون في بذخ ويسيرون في الحكم سير المكر والدهاء لذلك أخرجه المؤرخون من بين الخلفاء الأمويين وعدوه خامس الخلفاء الراشدين ولعله ورث هذه المثالية عن جده عمر بن الخطاب أو جاءته عن طريق احتلاطه بأنقياء أهل المدينة مثل أنس بن مالك جامع الحديث المشهور أو لثقافته بإقباله على دراسة علوم الدين حتى أن العلماء كانوا معه تلاميذه وهو نفسه أول من أمر بجمع الأحاديث وتدوينها.

قام عمر بن عبد العزيز بخلع الولاية الظالمين والعمال الفساة فعزل أسامة بن زيد التوكسي عن صدقات مصر، وكان غاشماً ظلوماً كثيراً الاعتداء وعزل

يزيد بن أبي مسلم عن أفريقية وصالح بن عبد الرحمن عن العراق والحارث ابن عبد الرحمن التقي عن الأندلس.

وأوقف عمر الحروب مع غير المسلمين أو مع المتمردين من المسلمين واستبدل بذلك دعوة غير المسلمين للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، كما حاج المتمردين والخوارج ليتغلب عليهم بالدليل والإقناع، وانتصر في مناظرته مع التائرين من المسلمين، وكانت سيرته العطرة خير مساعد له لتحقيق هذا الانتصار فدخل ملوك السند الإسلام بدعونه وتبعهم شعوبهم كما دخل الإسلام كثير من المصريين والسوريين والفرس الذين لم يكونوا قد دخلوا الإسلام من قبل على الرغم من دخول الإسلام بلادهم، مكتفين بدفع الجزية والدخول في الذمة، ثم جذبتهم سماحة عمر إلى الإسلام مما جعل عصره يسمى "عصر إسلام البلاد المفتوحة" أما الخوارج فقد بهرتهم سيرته وأعماله فأوقفوا نشاطهم الثوري والتقوّا مع عمر للتفاهم معه بالحجّة فغلبهم بخلقه وعلمه وبيانه، وانصاع له كثيرون منهم.

وخفف عمر من أقفال الخراج الذي يؤخذ من النصارى وأوقف أخذ الجزية من دخل الإسلام منهم، فانهال الناس على الإسلام تقديراً للإسلام ولعمر خليفة المسلمين فكتب له عامل أهوج يقول: إن هذا يضر بالجزية، فتلقي من عمر الجواب الآتي: "قبح الله رأيك، ارفع الجزية عنمن أسلم، فإن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا، ولعمري لعمر أشقي من أن يسلم الناس جميعهم على يديه".

ومن إصلاحات عمر أنه أصلح كثيراً من الأرض للزراعة، وحفر الآبار وعمر الطرق واهتماماً كبيراً بالمحتجين والمرضى، كما أكثر من المساجد

لكنه لم يكن يتألق في إعدادها، ولما طلب إليه أن يدفع مبلغاً كبيراً لذلك أجاب:
لأن أنفقه على أكباد جائعة أحب إلى من أنفقه على الجدران والأثاث.

ولذا انتقلت الحالة الاقتصادية في عهد عمر بن عبد العزيز إلى مستوى
يدعو للدهشة، فكل المراجع تؤكد أن علامات الفقر والعزوز قد اختفت في عهده
ولم يعد لها وجود تقريباً حتى كان دافع الزكاة لا يجد من يأخذها منه.

ويذكر ابن عبد الحكم أن رجلاً من ولد زيد بن الخطاب قوله: إنماولي
عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً فما مات حتى جعل الرجل يأتي بزكاة ماله
يبحث عن مستحق لها فما يبرح حتى يرجع بماله فقد أغنى عمر الناس.

ومن إصلاحات عمر في البريد أنه لم يجعله لحمل الأخبار الرسمية إليه
فقط من العمال والموظفين كما كان من قبل، وإنما أصبح لخدمة الناس كذلك فقد
أمر أن يتسلم عامل البريد كل الرسائل التي تعطى إليه لتوصليها إلى ذويها.

وكان من الطبيعي أن يسير عمال عمر على سيرته، فلقد أحسن اختبارهم
وأحسن مراقبتهم ويذكر ابن عبد الحكم أنه خرج يوماً مع وزيره مزاحم للعسس
فرأيا ركباً قادماً تجاه الشام من المدينة فاستقبلوا الركب وسألوا المسافرين عما
خلفهم، فقال رئيس الركب وهو لا يعرفها: إن شئتما جمع لكم الخبر وأن شئتما
بغضته لكم تبغضاً، فقال: بل أجمعه فقال: إنني تركت المدينة والظالم بها
مقهور والمظلوم بها منصور والغني بها موفر والعائل مجبر فسر بذلك عمر
وقال: لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلى مما طلعت عليه الشمس.

ومن سياسية عمر فيما يتعلق بالعمال أنه رفع مرتباتهم حتى وصل
مرتب العامل أحياناً إلى ثلاثة دينار، ولما سُئل عن ذلك أجاب: أردت أن
أغنيهم عن الخيانة.

وقطع عمر بن عبد العزيز سب على بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان بنو أمية يسبونه على المنابر، كذلك وصلبني هاشم وأحسن معاملتهم. بعد أن أساء سليمان إليهم ويذكر ابن الأثير بأن سليمان دس السم ل الكبير منهم وهو أبو هاشم عبد الله بن محمد بن حنفية.

وعلى الرغم من قصر مدة خلافة عمر فقد نقل على كثريين منبني قوله لكثرة ما استرده منهم مما امتلكوه من قبل، حتى لقد خيف أن يمسوه بسوء أو يسوقه سما ولذلك نصحه أرطأة بن منذر بأن يتخذ حرساً ويتحرر في طعامه وشرابه فأجاب عمر: اللهم إن كنت تعلم إني أحاف شيئاً دون يوم القيمة فلا تؤمن خوفي.

وقبيل وفاة عمر مات أعونه سهل أخوه وعبد الملك ابنه ومزاحم مولاه ودخل المرض على عمر فieroى أنه قام وتوضاً ثم أتى المسجد فصل ركعتين ثم قال: اللهم إنك قد قبضت سهلاً وعبد الملك ومزاحماً كانوا أعوناني على ما قد علمت، فلم أزدد لك إلا حباً ولا فيما عندك إلا رغبة فأقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط فما قام من مرضه حتى قبضه الله تعالى.

يزيد بن عبد الملك (١٠٥-١٠١ هـ):

وبعد عمر بن عبد العزيز تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بعهد من أخيه سليمان أو من أبيه عبد الملك، وكان سليمان قد حاول تحيته عن ولاية عهده بتولية أحد أبنائه ولكن لم يلبث أن أسلم الأمر لابن عمِّه عمر، ولا سيما وأن يزيد كان وفتئذ غائباً، وقد بُويع ليزيد في اليوم الذي توفي فيه عمر، وذلك في رجب من سنة ١٠١ هـ / شباط ٧٢٠ م.

لقد كان هذا الخليفة مثل غيره من الأمويين يحب حياة الباذية، فينزل في موضع اسمه الموقر في البلقاء قرب دمشق، واستسلم لغرائزه وشغف بحب جاريتين إداهما تسمى حبابة والأخرى تسمى سلامه القس وكان أخوه مسلمة

القائد المعروف يلومه في الإلحاد على الغناء والشراب وتشاغله عن مصالح الأمة ولكن لم يقبل غير نصيحة حبابة التي غنته: ما العيش إلا ما تنذر وتشتهي هذه الحياة العابثة جعلته لا يهتم بأحوال الدولة وإنما تركها للولاة أو لجواريه بحيث أن حبابة كانت تولي وتعزل العمال بغير أمره.

فضاعت المثالية في الحكم التي وضعها عمر بن عبد العزيز، وعادت الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه من قبل فهو على حد قول ابن الأثير: عمد إلى كما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده.

ومن أهم الأحداث التي وقعت في عهد يزيد ثورة يزيد بن المهلب، وقد كان يزيد في محبس عمر، وهرب من محبسه في مرض الموت الذي مات فيه عمر، وكتب ابن المهلب إلى عمر يعتذر من هربه ويقول: "إني والله لو ونقط بحياتك لم أخرج من محبسك ولكنني خفت أن يأتي يزيد فيقتلني شر قتله". وكان من الواضح أن هناك عداء بين يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك، فإن الأول انضم إلى سليمان بن عبد الملك في تكيله بالحجاج، وكان يزيد بن عبد الملك وأسرة الحجاج مصاورة، فقد كان يزيد متزوجاً من بنت أخي الحجاج وقد مات عمر بن عبد العزيز بعد هرب يزيد بقليل.

ولما فر ابن المهلب من السجن اتجه إلى العراق، وكان العراق كما كان دائماً مستعداً أن يستقبل أعداءبني أميه ويثور لهم ويحارب معهم، ولذلك كون الخليفة جيشاً من أهل الشام بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك وأرسله لقيادة ابن المهلب، وقد التقى ابن المهلب مع الجيوش الشامية في مكان العقر قرب كربلاء

يمين الفرات في سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م وكان معه أخوه وهم كثيرون بخاصة وأن أبيهم المهلب قبل موته أوصاه بأن لا يتفرقوا ولكن كفة جيوش الشام رجحت بسبب انضمام أهل البصرة إليهم، وبعد قتال استمر ثمانية أيام تغلب مسلمة بالخديعة، بأن أحرق جسرا على فرات البصرة فظن عسكر ابن المهلب أنها الهزيمة وتسللوا ومع أن ابن المهلب كان في أثناء القتال قد أصيب بالحمى إلا أنه لما شعر بالهزيمة امتنع جواده وقاتل إلى أن قتل، فأرسل مسلمة في طلبهم وقتل أغلبهم، إلا من استطاع الفرار إلى الهند، وكانت هذه هي النهاية المشؤومة لأسرة المهلب بن أبي صفرة التي طالما شهرت السيف في وجه أعداءبني أميه وطالما كسبت النصر لهم.

وسوء سياسة يزيد عاد الخوارج إلى مهاجمة العراق، فنجد شوبناري المسمى أيضا بسطام الذي ظهر في عهد عمر وهادنه يهاجم الكوفة وبهزم جيوشها عدة مرات ولكن مسلمة حينما دخل الكوفة لحرب ابن المهلب أرسل نحوه جيشا ضخما تمكّن من قتله بعد معركة شديدة، ولما استدعي يزيد مسلمة من عمل العراق وولاه عمر بن هبيرة في سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م كان ابن هبيرة يحارب الخوارج في عمله.

أما سياسة يزيد الخارجية فنجد أن الأمور تتآزم بسبب الفرصة التي أتاحها عمر بن عبد العزيز بسياسته المثالية وإهمال يزيد للجهاد بإقباله على اللهو فلم يعد يسمع عن غزو عظيمة في عهده، وإنما أصبح هم قواده أن يبقوا ما استطاعوا على أملاك الخلافة ووقف خطر الأعداء الطامعين فيها.

وقد توفي يزيد بن عبد الملك في سنة ١٠٥هـ / ٧٢٤م بعد حكم دام أربع سنين، ويذكر المؤرخون القدامى أن سبب موت يزيد يعود إلى حزنه إلى مرض

جاريتها حباه فلما ماتت اعتزل الناس بعد موتها ولم يزل كذلك حتى مات بعد سبعة أيام من موتها.

هشام ابن عبد الملك (١٢٥-١٠٥ هـ):

كان يزيد بن عبد الملك يريد أن يعين ابنه الوليد ولية للعهد من بعده، ولكن أصحابه أردوه إلى أن الوليد صغير السن ولا يستطيع أن يحمل عبء الخلافة، ولهذا عين يزيد أخيه هشام لولاية العهد على أن يتلوه الوليد، فتولى هشام تبعاً لذلك واتخذ هشام رصافة الشام مقراً له غالباً وهي تقع على نهر الفرات.

وقد طالت مدة هشام فكانت حوالي عشرين عاماً وكان هشام من خير الخلفاء، اشتهر بالحلم والغفوة وقد نظم الدواوين وضبط الحسابات بعناية فائقة، قال عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس: والفضل ما شهدت به الأعداء جمعت الدواوينبني مروان فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطات من ديوان هشام، وبذلك أصبحت مالية الدولة تسير في انتظام شامل، ولم يعد هناك طريق لاختفاء أي مبلغ مستحق لبيت المال.

وقد عرف هشام بالحلم والتقوى، ويروى أن رجلاً أغلظ له القول فلم يزد عن أن قال له: ليس لك أن تغلط لإمامك ومن تقواه ما روى أنه تفقد ولده فلم يجده حضر لصلاة الجمعة فسألها فيما بعد ما منعك من الصلاة؟ قال: نفقت دابتي قال هشام: أعجزت عن المشي؟ ومنعه الدابة عاماً كاملاً.

ومن الرجال البارزين الذين اعتمد عليهم هشام، خالد بن عبد الله القسري وأخوه أسد ونصر بن سيار ومروان بن محمد، وفي مطلع عهد هشام عزل هذا عمر بن ربيعة عن العراق وما كان إليه من عمل المشرق وولي ذلك كله خالد بن عبد الله القسري فعيّن أخاه أساً أميراً على خراسان في العام التالي

(١٠٦هـ) وبسبب العصبية التي اندمج فيها وأثارها أسد في خراسان عزله الخليفة سنة ١٠٩هـ وأخذ الخليفة يولي بنفسه عاماً على خراسان فولى أشرس ابن عبد الله السلمي فالحنيد بن عبد الرحمن وغيرهما، ولكن حال خراسان لم يصلح واستمرت الاضطرابات فيها فأعادها الخليفة إلى سلطان خالد بن عبد الله القسري سنة ١١٧هـ فأعاد هذه أخاه أسدًا والياً عليها، واستمرت ولاية خالد على الشرق خمسة عشر عاماً كانت له فيها إصلاحات ذات بال، فقد جفت مستنقعات دجلة حول واسط وبذلك أعد أرضاً واسعة للزراعة وكان خالد يغتر بأعماله وبغناه الواسع الذي جمعه طيلة مدة ولايته حتى وصل به الغرور أن قال لابنه: ما أنت دون مسلمة بن هشام (الخليفة) لتتخر على الناس بثلاث لا يفخر بمثلها أحد سكرت دجلة ولم يتكلف ذلك أحداً ولـي سقاية مكة، ولـي ولاية العراق وقد كان ذلك مع عوامل أخرى سبباً في أن عزله هشام سنة ١٢٠هـ وبعد عزله نزلت به ألوان من المصائب وبخاصة في عهد الوليد بن يزيد وقد مات تحت العذاب سنة ١٢٧هـ.

وبعد خالد تولى يوسف بن عمر ولادية الشرق فولى جديع على الكرمانى
خراسان ولكن سرعان ما عين الخليفة نصر بن سيار واليا على خراسان وبقي
نصر واليا على خراسان حتى سقطت الدولة الأموية.

وفي عهد هشام خطت الدولة الأموية خطوة نحو الضعف، وذلك بسبب قيام العصبية بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وبخاصة في خراسان وفي غير خراسان كانت هناك أيضا ثورات سببها مع العصبية سوء سيرة بعض العمال ، وربما كانت أخلاق هشام من حرص على المال ودقة في إنفاقه ومن لين وحلم مما ساعد على استمرار هذه النهارات والثورات.

الوليد بن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ):

بعد وفاة هشام ابن عبد الملك تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، في ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ/شباط ٧٤٣م بعهد سابق من أبيه، وقد حاول هشام أن يعزل الوليد عن ولادة العهد ويوليها لابنه مسلمة، فطالبه هشام بأن يخلع نفسه، وحرمه من العطاء وجفاه شديداً بحيث كان يكثر من تقصيه أمام الناس، وعمل سراً في البيعة، فأجابه بعض الناس ولكن مسلمة توفي قبل أبيه، مما هيأ للوليد الفرصة في أن يلي الخلافة بعد هشام.

وكان الوليد، مثل غيره من خلفاءبني أميه يحب الباذية وزاد شغفه ببناء القصور الهائلة فيها فحينما كان أميراً بنى قصر عمرة وبعد توليه الخلافة نسب إليه بناء قصر المشتى، وكلاهما من أكثر عواصم الصحراء في شرق الأردن كما عرفت له بالبقاء عدة قصور أخرى، وردت أسماؤها في كتب المؤرخين مثل الأزرق، والأغداق، واللؤلؤة.

ولقد شابه الوليد أباه، فطلب اللذات وشغل عن أمور الدولة ولا سيما وأنه تولى الخلافة في أوج الشباب في سن الخامسة والثلاثين فكان يجمع في عواصم الباذية الندماء والشعراء والمعنىين، كما أنه أحب الصيد ومن الجائز أن أعدائهم الذين أصروا به تهمة الكفر والتهاون بالدين.

ومما أخذ على الوليد أنه عندما تولى الخلافة حجز أموال هشام بالرصافة وبقبض على أولاده وجلد بعضهم، وأخذ سليمان بن هشام الذي اشتهر في حرب الثغور فضربه بالسوط وسجنه، كذلك أساء معاملة خالد بن عبد الله القسري عامل الأمويين السابق، على العراق إرضاءً ليوسف بن عمر الثقفي من أقرباء الحاج، الذي كان يعاشر خالداً وولي بعد العراق، والوليد نفسه كان زوج أم الحاج بنت محمد بن يوسف الثقفي وفي عهد الوليد قُتل يحيى بن زيد الذي فر

بعد قتل أبيه في العراق إلى خراسان فطارده عمال الوليد وقتلوه بجوزجان في سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م.

هذه التصرفات جعلته يُثقل على رعيته وجنده، وبخاصة اليمانية منهم لبغض الخلفاء لهم منذ يزيد، وتقربيهم للقيسية كما كرّه أفراد بيته، وكانوا مدفوعين إلى ذلك إما باحتقار تصرفاته أو بسبب طمعهم في السلطة فثارت اليمانية لأول مرة ضد أحد الخلفاء الأمويين وعلى رأسها قضاة حيث كانوا وقتئذ أكثر جند الشام، وحرضوا ابن عمّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك على البيعة لنفسه، فاستولى يزيد على دمشق وأرسل جيشاً إلى الوليد، الذي كان يقيم في البابية هرباً من الطاعون وهاجمه في قصر بالأغداق، وقد أراد الوليد التفاهم مع مهاجميه فأحضر يزيد بن خالد من محبسه وطلب منه التدخل في رد اليمانية ولكن يزيد بن خالد هرب وانضم إلى مهاجميه فتوسل الوليد بخلع نفسه دون جدوٍ عنئذ أخرج الوليد رأيَه مروان في الجابية وقاتلهم بمن معه من مصرة فهزمهو فدخل إلى القصر فدخلوا عليه وقتلوه سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م.

يزيد بن الوليد (١٢٦ هـ):

بعد قتله للوليد بن يزيد بايع يزيد بن الوليد بالخلافة لنفسه في جمادى الآخر سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م خطب الناس خطبة برر فيها قتله للوليد بن يزيد وأنه ما فعل ذلك إلا غضباً لله ودينه، وقد كان يزيد على خلاف الوليد ذا دين وورع بظاهر النسك والتواضع.

ولكن اعتماد يزيد على تأييد اليمانية جره إلى العمل على إخماد فتنة القيسية في أماكن متعددة في الشام، فإن أهل حمص من القيسية لما قتل الوليد لم يرضوا ببيعة يزيد فأرسل إليهم وحاربهم وهزمهم وأخذ بيعتهم وهزم أيضاً أهل فلسطين لما وثروا على عاملهم، كما حبس يوسف بن عمر عامل العراق وقرب

الوليد، الذي كان قد أقره بعد هشام فلما قتل الوليد هرب يوسف، وبلغ يزيد استخفاوه فجاءوا به في وثاق، فحبسه يزيد وولي على العراق بدله عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في سنة ١٢٦هـ / ٧٤٤م.

وبذلك استتب الحكم لهذا الخليفة مدة ستة أشهر إلى وقت وفاته في ١٩ ذي الحجة سنة ١٢٦هـ / ٧٤٤م وكان يزيد قبل وفاته قد أوصى بالخلافة من بعده لأخيه إبراهيم.

إبراهيم بن الوليد (١٢٦هـ):

لم يستقر الأمر ليزيد بن الوليد وبالتالي لم يستقر الأمر لأخيه إبراهيم ولم تكن الخلافة موضع إجماع من المسلمين ولم تتم له بيعة إجماعية ولذلك كان بعضهم ينادونه خليفة وآخرون ينادونه أميراً، ومن أهم الثورات التي قامت في وجهة ثورة مروان بن محمد والتي الجزيرة وأرمينية فإنه كان قد تمسك بالصبر في عهد يزيد بن الوليد لم يستطع أن يمضي ببعيته لإبراهيم ولذلك قاد جيشاً كبيراً واتجه به للشام مطالباً بثار الوليد بن يزيد وبحقوق أبنائه فأرسل له إبراهيم بن الوليد جيشاً بقيادة سليمان بن هشام فهزمه مروان فعاد سليمان إلى الشام فقتل ابني الوليد الثاني وسار إلى تدمر، وكان مروان قد أدعى في أول الأمر أنه يقاتل في سبيل هذين الولدين وكان القيسية يشدون أزره لذلك فلما قتلا طالب بالأمر لنفسه فباعه الناس.

مروان بن محمد (١٣٢-١٢٧هـ):

لقد كان مروان شجاعاً صاحب دماء ومكر وكان له خبره واسعة في الحروب ومن أهم ما يتصل به أنه وضع خطة تنظيم القوات الإسلامية فبدلاً من تقسم الجيش إلى فرق تتسب كل منها إلى قبيلة رأى تأليف جيش نظامي يخدم أفراده برواتب معينة بأمر قادة محترفين وينقسم الجنود المجنودون للخدمة

العسكرية إلى فرق قليلة العدد تفوق في سرعة حركتها وقوتها نظام الخطوط الطويلة عند العرب ولكن هذا كله لم يعن عنه شيئاً لأن الظروف كلها كانت ضده وكانت عوامل فشله محكمة فقد جاء في وقت تهلهل فيه ثوب الخلافة الأموية ولم يعد هناك أمل في إصلاحه، وقد شغلت أحداث الشام والعراق والجaz الخليفة فلم يستطع أن يقدم عوناً لواليه في خراسان، وامتدت الأحداث لتشمل كل من العراق والشام ومصر وخر مروان في مصر قتيلاً في قرية اسمها بوصير سنة ١٣٢هـ وبموته انتهت الدولة الأموية.

ملحق رقم (٢)

مصادر تاريخ الدولة العربية الإسلامية:

تتوفر للباحث في تاريخ الدولة العربية الإسلامية في عصورها المختلفة الكثير من المصادر العربية المتنوعة وهي إما وثائق أثرية قديمة كالوثائق الرسمية المكتوبة والوقفيات وأوراق البردي أو آثار معمارية أو نقوش كتابية على الآثار أو العملات وأما مصنفات علمية مدونة مخطوطة ومطبوعة تتناول موضوعات في التاريخ والأدب والسير والفتوح والغزوات أو مصنفات في الأدب وكتب في البلدان والرحلات والجغرافية وفي موضوعات عديدة أخرى بعضها لا يعد من حميم التاريخ إلا أنها تعد مصادر مهمة في تدوين أحداث التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده نظرا لما تضمنه هذه المصادر من معلومات غزيرة عند ذلك الفترة.

الوثائق الأثرية القديمة

١- الوثائق الرسمية المكتوبة:

تعد الوثائق من العلوم الأساسية لدراسة التاريخ، وتشمل المستندات المعاصرة للتاريخ الذي تكتب فيه كالكتابات الرسمية أو شبه الرسمية كالأوامر والقرارات والمعاهدات والمخالفات والاتفاقيات والمراسلات السياسية والكتابات التي تتناول مسائل الاقتصاد أو التجارة وعقود البيع والشراء والأحكام والفتاوی وغيرها ذلك، وهي إما تصدر عن الدواوين أو فروع الإدارة في الدولة كديوان الإنشاء والرسائل الذي كان يتولى تنفيذ الأوامر الصادرة عن الخلفاء أو الملوك أو السلاطين أو تكون عقود فردية كالعقود الشخصية وتعتبر المستندات أهم أنواع الوثائق الرسمية باعتبارها أوثق مصادر التاريخ والاقتصاد على الإطلاق. وكانت هذه الوثائق تحفظ في ديوان الإنشاء الذي تصدر عنه معظم أوراق الدولة

الرسمية ويحفظ الوارد منها في أضابير توضع عليه بطاقة خاصة تودع في مخزن خاص، وقد كتبت بعض هذه الوثائق بلغات الشعوب التي دخلت بلادها ضمن أقاليم الدولة العربية الإسلامية خلال عصر الراشدين الذين تركوا النظم الإدارية والمالية فيها على ما كانت عليه بسبب انشغالهم بحركة التحرير التي استهدفت الاحتلال الفارسي والبيزنطي لأقاليم الوطن العربي، وأداء المهمة الملقاة على عاتق العرب في تبليغ رسالة الإسلام وإقرار العدل والمساواة وقد تم تعریب دواین الدولة العربية كافة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (هـ ٦٥-٦٨٦).

وقد وصلت إلينا بعض المستندات والوثائق العربية ومعظمها يقتصر على الأمور التي تتعلق بالإدارة وأقلها (البردية) التي تتناول نصوصها بعض النظم الاجتماعية والاقتصادية كالجزية والخارج والتعيين في مناصب الدولة والإدارة وطرق التجارة وأعمال البناء والتعمير وإنشاء الأساطيل وعقود الزواج والبيع والشراء والتازل ولهذا فإن الوثائق البردية تحمل أهمية خاصة باعتبارها مصدراً صادقاً لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة العربية الإسلامية.

أما الوقفيات أو (الاحباس) فيقصد بها الوثائق التي تتعلق بنظام حفظ العقار من التبذيد وتخصيص دخله لأسرة مؤسس الوقف حسب الأنسبة التي يحددها في الوثيقة أو تخصيصه لمؤسسة دينية ويستفاد من وثائق الوقفيات الإطلاع على عقود البيع والشراء والاستبدال وبيان الابنية الموقوفة أي التي يخصص لها وقف معين وتعتبر هذه الوثائق من أهم المصادر التي يجب الرجوع إليها عند دراسة الآثار المعمارية والمنشآت بالإضافة إلى المصط婉ات السائدة في العصر الإسلامي سواء كانت معمارية أو قانونية أو إدارية، وجدير بالذكر

أنه كان للأحباس أو الأوقاف ديوان خاص في العصر الأموي يتولاه قاضي ينظر فيها خوفا من ضياعها والحيلولة دون تجزئه الوقف بسبب الإرث.

٢- الكتابات الأثرية أو النقوش:

تعتبر النقوش الكتابية الأثرية من أهم مصادر التاريخ بوجه عام والإسلامي بوجه خاص، وتأتي بعد الوثائق السياسية في الأهمية التاريخية نظرا لما تتضمنه من أخبار تعد مادة أساسية للتاريخ والحضارة فبفضل النقوش الكتابية يمكن تصحيح الكثير من الأخطاء التاريخية التي وقع فيها بعض المؤرخين وكشف الحقائق التاريخية التي لم تكن معروفة.

إن أهمية النقوش الأثرية تأتي من معاصرتها للأحداث التي تسجلها وعدم تحيزها لأسرة ضد أسرة شأن الوثائق والكتب التي قد يتحيز مؤلفوها لطرف ضد الآخر، وفي حين أن الكتابات الأثرية تتضمن تواريخا صحيحة وإعلاما يقل فيها التحريف والتصحيف فالنقوش الكتابية التي تدور حول قباب المحراب والبهو بجامعتي القيروان وتونس والكتابات التي نطالعها على الأسوار والقلاع والقصور والمساجد في العراق ومصر والشام والمغرب تتضمن تواريخا ثابتة لهذه المنشآت كما تتضمن في كثير من الأحيان أسماء مؤسسيها من الخلفاء والأمراء والسلطانين وفي بعض الأحيان أسماء العرفاء والمهندسين الذين أشرفوا على إنشائها، وهي أمور غفلت الوثائق التاريخية عن ذكرها على هذا النحو من الدقة.

ولا يقتصر أهمية الكتابات الأثرية على النواحي السياسية فحسب بل تتجلى أهميتها في الأمور الدينية والاقتصادية أيضا وعلى الرغم من أن هذه الكتابات ينقصها التنوع ويكثر فيها التكرار إلا أنها تعتبر مصدرا مهما للباحث في التاريخ الإسلامي مما دفع المستشرقين إلى الاهتمام بالنقوش العربية اهتماما

خاصةً فصنعوا فيها الكتب والتواлиفات واهتموا بجمعها وترتيبها وفي مقدمة من اشتغل بعلم الكتابة الأثرية العربية المستشرق السويسري فاكس فإن برشام وادمون فايتو واتين كومب وجان سوفاجيه.

٣- العملات أو السكة:

تعد العملات وثائق هامة في تأكيد أو نقض الكثير من المعلومات التي وصلت عن طريق المدونات التاريخية المختلفة حيث أن معظمها قد يكون مخالفًا للواقع لأنها متاخرة نسبياً أو جاءت عن طريق السماع كتحديد زمن حكم بعض الخلفاء والملوك أو تثبيت تاريخ الثورات أو انقضائهما وغير ذلك من الأحداث السياسية كما يمكن الاعتماد على العملات في استنباط الحقائق سواء ما يتعلق منها بالأسماء أو بالنقوش أو بالعبارات الدينية المنقوشة أو الألقاب التي ينعم بها الخلفاء على الأمراء والسلطين.

وبالنسبة للعملة العربية الإسلامية فيذكر أن أقدم ما وصل إلينا مس코كات (فلوس نحاسية) مضروبة على الطراز البيزنطي أي مشابهة لمسكوكات البيزنطية المعاصرة لها مؤرخة في سنة ١٧هـ/٦٣٨م عليها اسم الخليفة عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه) والواقع لم تعرف العملة العربية صرفه إلا في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي قدر أن العملة بالإضافة إلى قيمتها الاقتصادية وسيلة للإعلان عن سيادة الدولة العربية بما هو منقوش عليها من عبارات دينية فضلاً عن أنها إعلان لشرعية حكم الخليفة بنقش اسمه عليها، لذلك أمر عبد الملك بن مروان تعريب العملة كجزء من السياسة العامة لتعريب كل أجهزة الدولة العربية الإسلامية

وقد أدى تنوع وكثرة النقود والمسكوكات العربية وتعدد أشكالها إلى اهتمام العلماء والباحثين بدراساتها ومن الرواد الذين تصدروا لدراسة النقود خلال

النصف الأول من القرن الماضي الأب انسناس ماري الكرماني الذي وضع كتاباً في عام ١٩٣٩ بعنوان "النقوذ العربية وعلم النميات" جمع فيه أهم ما كتبه المؤرخون العرب أمثال المقرizi في "شذور العقود في ذكر النقود" والبلذري في "فتح البلدان" والبيهقي في "المحاسن والمساوئ" وابن خلدون في "المقدمة" والفالقشندى في "صبح الأعشى" وقد أضاف الكرملي تفسيرات كثيرة وتعليقات مهمة لأسماء الرجال والألقاب الواردة في النقوش والمواد التي تتخذ منها النقود والموازين والمكاييل والمقاييس والأثمان مما يكشف النقاب عن كثير من الحقائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

٤- الآثار المعمارية:

تعتبر الآثار الباقية سواء الثابتة منها كالعمائر والمنقولات كالتحف وأدوات الزيينة من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخون في كتاباتهم التاريخية ذلك لأن الوثائق المكتوبة وحدها لا تكفي لهذا الغرض أما لندرتها أو لتناقض ما جاء فيها أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالنصوص والأساطير.

والواقع أن الآثار تعتبر سجلاً تاريخياً للأعمال التي قام بها الولاة والأمراء في العصور الإسلامية المختلفة وشاهدنا مادياً ماثلاً للحضارة العربية، فمن خلال الآثار وقفنا على ما وصل إليه الفن والصناعات في المجال الحضاري ويتجلى ذلك بوضوح في المساجد والقصور والقلاع والقنطر وغيرها كما يمكن للباحث أن يلاحظ التأثيرات الحضارية من قطر آخر، ويظهر ذلك بوضع في جامع ابن طولون في مصر حيث التأثيرات الفنية العراقية وكذلك التأثيرات الأندلسية في مسجد القروريين بمدينة فاس.

وعليه فإن دراسة الآثار المعمارية أصبحت ضرورة لازمة لدراسة التاريخ الإسلامي والتاريخ العماني والعسكري، وما زالت لآثار المعمارية

العربية الإسلامية في سائر أنحاء الوطن العربي ومناطق أخرى من العالم تعبّر عن الدور الكبير الذي قام به العرب في الحضارة والعمارة.

المصنفات المدونة

١- القرآن الكريم:

يعد القرآن الكريم أقدم المصادر العربية الإسلامية المدونة وأصدقها على الإطلاق لأنّه تنزيل من الله تعالى لا سبيل إلى الشك في صحة نصه، وقد تضمن آياته ذكر لبعض مظاهر حياة العرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مرحلة ما قبل الإسلام كما وصفت تفكيرهم وعقائدهم وورد في القرآن الكريم أخبار مختصرة عن القبائل العربية التي بادت وانقرضت مثل عاد وثمود وحادثة السيل العارم (انهيار سد مأرب) وأصحاب الفيل (حملة ابراهيم على مكة) وأصحاب الأخدود (حملة ذو نواس ضد نصارى نجدان) وقصص الأنبياء والرسل أوردها كعبرة وموعظة للمعارضين من العرب للإسلام وتذكر ما أصاب الذين كذبوا المرسلين من قبلهم، وقد أثبتت الحقائق التاريخية والكشف الأثرية صحة ما جاء في القرآن الكريم من أخبار قبائل العرب البايدة ودقتها، وفي العصر الإسلامي تظهر مراحل الدعوة الإسلامية وتوضح دور النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في نشر مبادئ الدين الإسلامي ووضع الأسس القوية للمجتمع الجديد فكانت كل سورة من سور القرآن تشير إلى حادثة معينة في حياة الرسول.

وقد تم جمع القرآن الكريم في عهد الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فقد ذلك المؤرخون أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حين رأى أن القتل قد كثُر في الصحابة خلال حروب الردة قال لأبي بكر "أن القتل قد كثُر واستحر بقراء القرآن يوم اليمانة، وإنني أخشى أن يستحر القتل بالفراء فيذهب

من القرآن كثير وأني أرى أن تأمر بجمع القرآن" فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجعنة من الرقاع والعسب وصدور الرجال وحفظت الصحف عند أبي بكر ثم انتقلت إلى عمر بن الخطاب فلما توفي حفظتها ابنته الحفباء وفي خلافة عثمان ابن عفان(رضي الله عنه) لاحظ الصحابة اختلاف المسلمين في الأمصار في قراءة القرآن فأخبروا الخليفة بذلك، فأسرع بتشكيل لجنة ضمت زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام للقيام بكتابة نسخ من القرآن الكريم معتمداً في ذلك على النسخة المحفوظة لدى حفصة بنت عمر وتم توزيعها على الأمصار.

٢- الحديث:

يقصد بالحديث أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) وأفعاله التي نقلت عنه في مناسبات عديدة بالرواية الشفوية، أو من صحائف قديمة دونت فيها ويعتبر الحديث المصدر الثاني للشريعة الإسلامية بما تضمنه من أحكام وقوانين للمجتمع الإسلامي، كما أنه من أصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم لتدوين أخبار الحقبة الزمنية القريبة من الإسلام، وكان المسلمون الأوائل قد تجنّبوا بأمر من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تدوين الحديث حتى لا يشغلوا بشيء غير كتاب الله وظل الأمر على هذا الحال حتى خلافة عمر بن عبد العزيز حيث تم جمع وتدوين الأحاديث الصحيحة بأمر منه.

ويعتبر الحديث أصح المصادر التاريخية في تاريخ القرنين الأولين في الإسلام بسبب الدقة التي اتبعت في نقله، فقد كانت الأحاديث تروى عن طريق سلسلة من الحفاظ أو ما يعرف بالسند والإسناد حتى تصل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) أو السلف الأول من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين وهو ما يسمى بعلم(الجرح التعديل) أو علم الرجال وهو علم دقيق ويمكن للباحث الاعتماد

على مجموعات الصحاح في الحديث كالجامع الصحيح للبخاري (ت ٢٥٧هـ) وسنن الترمذى (ت ٢٦٢هـ) جليل القدر عظيم الفائدة، يهدف إلى خدمة السنة والكشف عن أحوال روايتها واحداً واحداً وتميز الصادق من الكاذب والضابط من الواهم والموثق بروايته من الملعون فيه، وموطاً مالك (ت ١٧٩هـ) وابن ماجة (ت ٢٧٣هـ) وهنالك شروحات عديدة للبخاري ومسلم منها - النووي (ت ٦٦٧هـ) وكتابه شرح صحيح مسلم، والعسقلاني (ت ٥٤٨هـ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري والعيني (٨٥٥هـ) عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري.

٣- كتب التفسير:

تتضمن كتب التفسير شروحًا مفصلة لما ورد في القرآن الكريم من أخبار مختصرة من بعض الأحداث في العصر السابق للإسلام وعصر النبوة، أو تفسير ما أغلق على المسلمين فهمه من معانٍ القرآن الكريم وتعابيره وقد نشأ علم التفسير في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم تولى الصحابة من بعده هذه المهمة باعتبارهم الواقفين على أسراره المهدى بهدية ومن أشهر المفسرين من الصحابة علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وبن كعب (رضي الله عنهم) ويأتي بعدهم زيد بن ثابت، أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير ومما ساعد هؤلاء الصحابة على الاجتهداد في التفسير قوتهم في اللغة العربية وإحاطتهم بمعانيها وأساليبها ومخالطتهم النبي (صلى الله عليه وسلم) وعدم تحرجهم أن يجتهدوا ويقرروا ما أداهم إليه اجتهدادهم يستثنى من ذلك ابن عباس فإنه استبعض عن ملازمة النبي (صلى الله عليه وسلم) في شبابه بملازمة علماء الصحابة بأخذ عنهم ويروي لهم، وعن الصحابةأخذ التابعون وعن التابعين أخذ تابعوا التابعين فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير.

ومن أشهر كتب التفسير التفسير التاريخي المعروف بتفسير الطبرى (ت ٢١٠ هـ) الموسوم (جامع البيان في تفسير القرآن) وتفسير ابن كثير الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ) وهذه عرفت بكتب التفسير المأثور، أما كتب التفسير بالرأى فأشهرها تفسير الرازى (ت ٦٠٦ هـ) المسمى (مفاتيح الغيب) ومنها تفسير البيضاوى الموسوم "أنوار التزيل وأسرار التأويل" وتفسير أبي مسعود وتفسير النسفي وتفسير الخازن والتفسير المعروف بتفسير الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) المسمى "حقائق غوامض التزيل وعيون الأقاويل".

٤- كتب السير والمغازي والفتوح:

أسهمت كتب السير والمغازي والفتوح في تطور علم التاريخ، وأصبحت أساس الكتابة التاريخية عند العرب فقد كان علم التاريخ يقوم على دارسة سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وحياة الصحابة، وأخبار الغزوات وحروب التحرير التي خاض العرب غمارها ضد الفرس والروم وحركة الفتوح العربية الإسلامية في المشرق والأندلس وفي مقدمة الكتب التي تناولت سيرة الرسول الكريم الكتاب الموسوم بـ(سيرة ابن هشام) أو (سيرة سيدنا محمد رسول الله) لأبي محمد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ وهو أول كتاب تاريخي متصل عن سيرة النبي الكريم وتاريخ العرب قبل الإسلام اعتمد فيه مؤلفه على الرواية الشفوية وعلى كتب ضاعت أهم كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عبد الله محمد بن إسحق (ت ١٥١ هـ) الذي كان أول من ألف في السيرة النبوية بناء على طلب الخليفة العباسى أبي جعفر المنصور وقد أضاف ابن هشام إلى السيرة النبوية بعض الروايات التي لم يذكرها ابن إسحق.

أما كتب المغازي والفتوح فيعتبر عروة بن الزبير (ت ٩٢ هـ) أقدم من كتب في المغازي وقد وصلتنا بعض رسائله في مؤلفات الواقدي والطبرى ويأتي

بعد عروة بن الزبير إيان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥ هـ) و محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) و شرحبيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ) والواقدى (ت ٢٠٧ هـ) و محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) ومن كتب الفتوح أيضاً كتاب "فتح البلدان" للبلذري (ت ٢٧٩ هـ) و فتح مصر والأندلس لابن عبد الحكيم (٢٥٧ هـ).

٥- كتب الطبقات والأنساب:

يقصد بكتب الطبقات الكتب التي عالج مؤلفوها سيرة طائفة معينة من القضاة أو الفقهاء أو الأدباء والشعراء والأطباء جيلاً بعد جيل أو طبقة بعد طبقة، أما كتب الأنساب فتجمع تراجم أنساب الأشراف من العرب ومن أمثلة كتب الطبقات كتاب الطبقات الكبير أو طبقات ابن سعد لمؤلفه محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) وهو أشبه بدائرة معارف لسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) و مغازييه و سيرة الخلفاء الراشدين والأمويين والصحابة وغيرهم حتى عهده وكان ابن سعد معاصرًا للواقدى فأخذ الكثير عنه و اعتمد على كتابه المعروف بطبقات الواقدى.

ومن كتب الأنساب أيضاً كتاب أنساب الأشراف للبلذري (٢٧٩ هـ) وهو كتاب كبير بحث فيه مؤلفه تاريخ أشراف العرب قبل الإسلام وبعد حملة فتح مصر فقد بدأ البلذري كتابه بذلك نسب نوح عليه السلام ثم يصل إلى عدنان ويتردج بعد ذلك نزولاً إلى ذكر أخبار الرسول (صلى الله عليه وسلم) و سيرته حتى وفاته وإلى جانب هذين الكتابين هناك العديد من كتب الطبقات والتراجم الخاصة بالأدباء والأعيان والأمراء والعلماء والفقهاء والقضاة ذكر منها:

١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان (شمس الدين أبو العباس).

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (علي بن محمد) ت ٦٢٠ هـ

- ٢- عيون الأبناء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبيعة (موفق الدين أبو العباس).
- ٤- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين).
- ٥- الضوء اللمع في أعيان القرن التاسع، السخاوي (شمس الدين محمد) ت ٩٠٢هـ.
- ٦- طبقات الشافعية الكبرى، السبكي (تاج الدين عبد الوهاب) ت ٧٧١هـ.
- ٧- تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد) ت ٤٠٢هـ.
- ٨- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم ورفقائهم وأدبائهم، ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك). ت ٧٨هـ.
- ٩- كتاب صلة الصلة في تراجم أعلام الأندلس، ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) ت ٧٠٨هـ.
- ١٠- تاريخ القضاة بقرطبة، الحنشي (محمد بن حارث) ت ٣٦١هـ.
- ١١- تاريخ قضاة الأندلس المسمى "المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، النباхи" (أبو الحسن بن عبد الله).

كتب التاريخ العام:

امتازت الكتابة التاريخية للعرب المسلمين عن الكتابات التاريخية الأخرى بمميزات عديدة جعلت التاريخ العربي الإسلامي أصلاً مستقلاً عن غيره فقد نشأ نشأة طبيعية أصلية إذ نص القرآن الكريم عليه حيث قدم إشارات عن الأمم

والقبائل والأنبياء والرسل، مما دفع العلماء المسلمين للبحث عن تفاصيل هذه الإشارات والعمل على شرحها وتوضيحها فبرز عن هذه الطريق أوائل الأخبار بين الذين وضعوا التصانيف في تاريخ العرب.

وقد اتبع المؤرخون العرب في كتابة التاريخ منهجاً فريداً بين المناهج التي عرفها العالم في العصر الوسيط، فوضعوا الكثير من المبادئ التي التزامها وأخذت بها المنهج العلمي الحديث في كتابة التاريخ والذي يقوم على جمع المادة التاريخية وفحصها وتحري أصولها وتقديرها وعرضها عرضاً علمياً متربطاً يتضمن تحليلاً للأحداث وربط الأسباب والنتائج.

وتناول معظم مؤرخي العرب التاريخ بنزاهة وإخلاص فامتنعوا عن التزلف لذوي الجاه والسلطات ورفضوا تناول صلات الأمراء تحاشياً لمحاباتهم، فكانوا يعيشون من موارد خاصة بهم، أو يمتهنوا أعمالاً تدر عليهم ما يقيمون به أود حياتهم وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين محمد بن جرير الطبرى الذى يعرف بنزاهة وامتناعه عن قبول صلات الخلفاء والوزراء مكتفياً بإيراد الضيعة التي خلفها له أبوه فى طبرستان ومسكوية الذى عاش فى قصور سلاطين آل بوية إلا أنه لم يتزلف إليهم أو يحابهم فروى أخبارهم دون أي محاولة لإخفاء جرائمهم مندداً بسوء سياستهم خصوصاً معز الدولة كما نوه مسکوية بشجاعة وبطولة أبي الهيجاء الحمداني الذى كان من أعداء البوهيين.

والمكتبة العربية تزخر بالحجم الغير من التراث العربي الإسلامي التي تشكل مورداً أساسياً لتاريخ الدولة العربية الإسلامية في عصورها المختلفة اتبع مؤلفوها مناهج مختلفة في تناولهم للموضوعات فمنهم من كتب عن الأسرات الحاكمة أو الدول أو العهود كما اتضح ذلك لدى الدينوري في (الأخبار الطوال) وأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر في (روضة النسرين من دولة بنى مرين) وأبي

شامة في (الروضتين في أخبار الدولتين) وابن واصل في (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) واتجه البعض الآخر من المؤلفين إلى الكتابة في تاريخ الخلفاء والملوك والسلطانين كما فعل السيوطي في (تاريخ الخلفاء) والبلوي في (سيرة أحمد بن طولون) وابن زولاق في (سيرة الأخشيد) وابن شداد في (سيرة صلاح الدين) ومحي الدين بن عبد الظاهر في (تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور).

ومن أقلم مؤرخي العرب الذين كتبوا في تاريخ الدول والعقود المؤرخ اليعقوبي الذي كان مؤرخاً ورحلة في آن واحد، وكتابه في التاريخ يقع في جزأين الأول في التاريخ القديم، والثاني في التاريخ الإسلامي ابتدأه بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومحاذاة إلى وفاته وانتهى به إلى عصر الخليفة العباسى المعتمد على الله سنة ٢٥٩هـ وكتابه هذا يدور حول الأشخاص الحكام والولاة.

ويعتبر كتاب (تاريخ الأمم والملوك) لمحمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) من أهم المصادر في التاريخ العام، جمع فيه بين تفصيل المتكلمين وتدقيق الفقهاء وتبصير الساسة في الأمور، وقد اقتصر الطبرى في القسم السابق على العصر الإسلامي الحديث عن مجموعة الأخبار عن الإسرائيليات وتاريخ العرب وببلاد فارس، أما حديثه عن سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) فقد اتبع فيه منهج كتاب السير والمغازي متبعاً الأحداث التي مرت بها الدولة العربية الإسلامية منذ الهجرة النبوية وفقاً للترتيب الزمني مع الاهتمام بذلك سلسلة إسناد في الروايات المختلفة متبعاً في ذلك منهج التأريخ الحولي.

ثم يأتي بعده كتاب (العقد الفريد) لأبي عمر بن عبد ربه (ت ٣٢٧هـ) الذي تناول فيه أخبار العرب قبل الإسلام وفي العصر الإسلامي مع عرض

موجز لسيرة الخلفاء الأوائل، وكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي (ت ٢٤٦هـ) الذي يعتبر موسوعة تاريخية وجغرافية حيث من يقتصر فيه المسعودي على دراسة الموضوعات المألوفة عند المؤرخين السابقين والمعاصرين له، بل تطرق إلى ذكر قصة خلق العالم ووصف طبيعة الأرض ودراسة تاريخ الشعوب الأعممية، وبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام مؤكدا على العناصر الحضارية خلال تلك المرحلة كما تناول بإيجاز السيرة النبوية وأبدى اهتماما خاصا بتاريخ الخلفاء متبعا منهج الترتيب الزمني وللمسعودي كتاب آخر هو "التبيبة والإشراف" ضمنه آراء في فلسفة التاريخ والكون، واهتم بوجهه خاص بوصف البلدان المختلفة وبالإضافة إلى هؤلاء المؤرخين جاءت طائفة أخرى حذوا حذوهم نذكر منهم: حمزة الأصفهاني في مؤلفه الموسوم "تاريخ سني ملوك الأرض والأنباء" الذي أبدى فيه اهتماما خاصا بأخبار خراسان وطبرستان. ثم قسطنطين المنجبي في كتابه (العنوان) الذي تناول فيه جغرافية العالم وتاريخبني إسرائيل واليونان والروم كما تعرض لتاريخ العرب وقد استفاد المنجبي كثيرا من الأخبار الواردة في الحلويات البيزنطية.

ثم يأتي كتاب (تجارب الأمم) لمسكويه (ت ٤٢١هـ) معبرا عن خبرة بشؤون السياسة وإدراك كامل وتقدير شامل للتاريخ فاقتصر كتابه على عرض سريع لعصر النبوة دون التعرض للتاريخ الديني وبدأ كتابة بملوك الفرس ثم تعرض إلى البابليين والإغريق والروم والعرب قبل الإسلام ومن مؤرخي القرن الخامس الهجري أيضا الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) الذي اعتمد اعتمادا خاصا على الطبرري في القسم الخاص بالتاريخ الإسلامي حتى عصر الخلافة العباسية متبعا في ذلك منهج التاريخ حسب عهود الخلفاء.

وشهد القرن السادس الهجري جمهرة من المؤرخين الذين أغنووا المكتبة التاريخية بمؤلفاتهم الموسوعية الهامة، نذكر منهم المؤرخ عبد الرحمن بن علي

المعروف ببابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) الذي ألف العديد من الكتب يأتي في مقدمتها كتابه الشهير (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) (وشذور العقود) الذي لخص فيه كتابه السابق وتعرض فيه إلى جغرافية العالم وتاريخبني إسرائيل حتى عصر السيد المسيح عليه السلام وتاريخ الفرس وغيرهم واستعرض أحداث التاريخ العربي الإسلامي بإيجاز متبعاً منهج التاريخ الحولي.

أما كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) فيعتبر أحسن ما صنف من كتب التاريخ العالمي والإسلامي على نسق الحوليات، حرص فيه على حفظ التوازن بين أجزاء تاريخية مختلفة كما بذل جهداً عظيماً في مراعاة التوازن بين الأحداث في مختلف أنحاء الدولة العربية الإسلامية وحيث يقترب من عصره يحاول تفصيل الأحداث التاريخية دون إخلال بنسبة المادة التي يوردها في مؤلفه .

ثم ظهرت في القرن الثامن الهجري مجموعة من المؤلفات التاريخية وضع فيها الاتجاه الديني، حيث اهتم مؤلفوها بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبدعوا مؤلفاتهم بالسنة الأولى للهجرة ويعتبر عماد الدين أبو الفدا إسماعيل المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤هـ) على هذا الاتجاه بوضوح في مؤلفه الموسوم "البداية والنهاية" والفقير ابن أبي الدم في مؤلفه (تاريخ الإسلام).

وهناك مؤلفات تاريخية محلية عبرت عن ارتباط المؤرخ بوطنه واعتزازه بمدينته أو بلده، واقدم أمثلة في هذا النوع من الكتابة ترجع إلى العراق حيث ظهر كتابات أحدهما عن تاريخ بغداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور وولده عبد الملك، والثاني عن تاريخ الموصل لأبي زكريا الأزدي وقد بقيت من هذين الكتابين في القرنين الثالث والرابع الهجري أقسام كبيرة وذكر ابن حزم ثلاثة

كتب في خلط البصرة وقطائعها وذكر أسوقها ومحالها وشوارعها، كما ذكر كتاباً عن الكوفة لعمر بن شبه.

أما فيما يختص بالكتب التي صنفت عن مصر فيأتي في مقدمتها كتاب تاريخ مصر وفضائلها لأبي محمد الحسن بن زولاقي (ت ٢٨٧هـ) الذي اهتم بذكر أخبار مصر القديمة وكتاب محمد بن عبد الله بن أحمد المسبحي (ت ٤٢٠هـ) الذي ذيل له محمد بن علي بن يوسف بن ميسير (ت ٦٧٧هـ) في كتابه عن تاريخ مصر غير أن أبرز المؤلفات عن تاريخ مصر هو كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار للمقرizi، وكتاب الدر المنظوم فيما ورد في مصر من موجود ومعدوم لعلي بن داود الجوهري وكتاب حسن المحاضرة في أخبار مصرة والقاهرة لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).

وفي الشام ظهرت أقدم أمثلة الكتابة في التاريخ المحلي منذ القرن السادس الهجري فقد خصص ابن القلansi (ت ٥٥٥هـ) كتابه ذلك تاريخ دمشق عن تاريخ هذه المدينة وما يدور حولها من أخبار ثم ظهرت مؤلفات أخرى عن مدن الشام وخاصة في تاريخ حلب مثل كتاب زبدة الطلب في تاريخ حلب لابن العديم (ت ٦٦٠هـ) الذي خصصه لتاريخها السياسي وهناك نوع آخر من التاريخ المحلي يجمع بين تاريخ الأسر الحاكمة وتاريخ المدن التي كانت تحكمها مثل كتاب تاريخ بيروت وأمراءبني بحتر لصالح بن يحيى.

أما فيما يخص اليمن فقد ظهرت عدة كتب محلية هامة منذ القرن الرابع الهجري اخْتَلَطَ التاريخ بالدراسة العمرانية والأنساب ومن امثلة هذا النوع كتابي الأكليل وصفة جزيرة العرب للهمداني (ت ٣٣٤هـ) وكتاب المفيد في أخبار زبيد لعمارة اليماني الشاعر (ت ٥٦٩هـ) وقد أكمله ابن الربيع صاحب كتاب بغية المستفید في أخبار مدينة زبيد (ت ٩٤٤هـ) وكتاب عن تاريخ صنعاء

لأبي العباس أحمد الرازى الصنعاني الذى انتهى فيه من سنة ٤٦٠هـ وظهر هذا النوع من المؤلفات في الأندلس من خلال الكتب التي ألقها أبوه الرازى مثل كتاب مسالك الأندلس ومراسيمها وأمهات مدنها وأجنادها ووصف قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها، ومن كتب في التاريخ المحيى الأندلسي أيضاً إسحاق بن مسلمـة بن إسحـق الليثـي في أخـبار المرـية وحـصـونـها وابـن حـيـانـ في كتابـه المتـقبـسـ في ذـكر الأندلسـ وكتـابـ الـبيانـ المـغـربـ في ذـكر أخـبارـ الأندلسـ والمـغـربـ لابـنـ عـذـارـىـ ويـغلـبـ عـلـىـ هـذـهـ المـؤـلـفـاتـ النـاحـيـةـ الـدـينـيـةـ وـالـتـرـاجـمـ حيثـ أـنـ مـعـظـمـهـاـ يـتـنـاؤـلـ تـارـيـخـ قـضـاءـ قـرـطـبـةـ وـالـقـيـروـانـ وـتـارـيـخـ عـلـمـاءـ الأـنـدـلـسـ وـالـمـغـربـ وـأـنـسـابـ مشـاهـيرـ الرـجـالـ فـيـهـاـ.

وهـنـاكـ بـعـضـ المـؤـلـفـاتـ التـيـ يـمـكـنـ إـدـرـاجـهـاـ ضـمـنـ التـارـيـخـ المـحـيـيـ الدـينـيـ عـلـمـاـ بـأـنـهـاـ تـتـخـصـصـ فـيـ مـوـضـوعـاتـ تـتـعـلـقـ بـالـإـدـارـةـ وـالـقـضـاءـ مـثـلـ فـتوـحـ مـصـرـ لـابـنـ عـدـدـ الـحـكـمـ وـكـتـابـ رـفـعـ الـأـصـرـ عـنـ قـضـاءـ مـصـرـ لـابـنـ حـجـرـ وـتـارـيـخـ بـخـارـىـ للـنـرـشـجـيـ.

وضـمـ التـرـاثـ الـعـرـبـيـ مـؤـلـفـاتـ استـهـدـفـ التـعرـيفـ بـأـهمـيـةـ وـمـكـانـةـ بـعـضـ المـدـنـ الـعـرـبـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ وـبـيـانـ قـدـسـيـتـهاـ وـمـنـ أـمـثلـهـاـ أـخـبارـ مـكـةـ لـلـأـزـرـقـيـ (ـتـ ٢٤٤ـهـ)ـ الـذـيـ أـفـرـدـ مـادـتـهـ لـذـكـرـ الـقـصـصـ التـيـ تـواـرـتـ عـلـىـ النـاسـ مـنـذـ عـصـرـ ماـ قـبـلـ الـإـسـلـامـ حـولـ الـحـرـمـ الـمـكـيـ وـوـصـفـ الشـعـائـرـ الـمـتـصـلـةـ بـالـحـرـمـ وـكـتـابـ الدـرـرـ الـثـمـيـنـةـ فـيـ أـخـبارـ الـمـدـيـنـةـ لـابـنـ النـجـارـ الـذـيـ اـقـتـصـرـ عـلـىـ ذـكـرـ خـطـطـ الـمـدـيـنـةـ مـعـ عـرـضـ لـتـارـيـخـ بـيـتـ الـمـقـدـسـ وـكـتـابـ أـخـبارـ مـكـةـ لـمـحـمـدـ بـنـ إـسـحـقـ الـفـاكـهـيـ مـنـ مـؤـرـخـيـ أـوـاـخـرـ الـقـرـنـ الـثـالـثـ الـهـجـرـيـ، وـكـتـابـ شـفـاءـ الـغـرـامـ بـأـخـبارـ الـبـلـدـ الـحـرـامـ لـلـتـقـيـ الـفـاسـيـ.

كتب الجغرافية:

تعتبر كتب الجغرافية ذات قيمة كبيرة في تاريخ الدولة العربية لا تقل عن قيمة كتب التاريخ ذاتها ذلك لأنَّ أغلب هذه الكتب لا يقتصر على جغرافية البلاد من وصف وتضاريس ولكن يعرض للحوادث وينقل الروايات التاريخية خصوصاً وأنَّ أغلب مؤلفيها كانت لهم تصانيف في التاريخ وكان اتساع رقعة الدولة العربية في العصر الأموي قد دفع العرب إلى الاهتمام بوصف أقاليم الدولة ومدنها وذكر مسالكها وطرقها وحاصلاتها ومناخها من جهة تقدير قدرة البلاد التي خضعت للعرب على دفع الجزية والخراج فظهرت الجغرافية الإدارية في كتاب المسالك والممالك لابن خردابة (ت ٣٠٠هـ) وكتاب الخراج وصفه الكتابة لقدامة بن جعفر (ت ٣١٠هـ).

ومن أشهر الجغرافيين العرب في القرن الثالث الهجري اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) في كتابه البلدان الذي تضمن معلومات هامة عن البلد التي زارها وقد أولى اليعقوبي اهتماماً خاصاً بوصف بغداد وسامراء وصفاً تفصيلياً إلى جانب حرصه على تدوين الملاحظات عن المجتمعات التي تعرض إليها وتواريخ الأسر الحاكمة وكذلك محمد بن موسى الخوارزمي وكتابه صورة الأرض ويليه ابن الفقيه الحمداني في كتابه مختصر كتاب البلدان وصف فيه الصين والهند وبلاد العرب ثم يأتي بعد هؤلاء جمهرة من الجغرافيين الذين برزوا خلال القرن الرابع الهجري نذكر منهم البلخي (ت ٣٢٢هـ) الذي وضع كتاب الأشكال أو صورة الأقاليم ضمن مجموعة من الخرائط مع شروحها، ثم الأصطخري أبو إسحاق إبراهيم في المسالك والممالك، وابن حوقل أبو القاسم محمد (ت ٣٨٠هـ) وفي المسالك والممالك والمغاوز أو صورة الأرض وقد حدا فيه حذو الأصطخري.

ومن جغرافي القرن الرابع الهجري أيضاً أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المقدسي (ت ٣٨٧هـ) وكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ويعتبر خلاصة رحلات وأسفار طويلة في الدولة العربية وخدمات للملوك ومجالسه القضاة والأخذ عن الفقهاء والعلماء وما يؤثر عن المقدسي اهتمامه بتحري الدقة وتسجيل الأخبار الغربية ثم الجغرافي أبو محمد الحسن بن يعقوب الهمذاني (ت ٤٣٤هـ) وكتابه صفة جزيرة العرب الذي يحث فيه جغرافية بلاد العرب وجبالها ومساكنها ومدنها وأثارها ومعانها.

وقد ظهر بعد ذلك عدداً من الجغرافيين العرب الذين أغنووا المكتبة الجغرافية بمؤلفاتهم التي أصبحت مراجع هامة يعتمد عليها الباحثون فيما بعد، وفي مقدمة هؤلاء نذكر الشريف الإدرسي أبو عبد الله محمد (ت ٥٦٤هـ) وكتابه صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ عن كتاب نزهه المشتاق في اختراق الأفاق وكان الإدرسي قد زار صقلية وأنصل بملكها (روجارت الثاني) الذي أعجب بعلمه وطلب منه أن يُؤلف له كتاباً عن صورة الأرض فأجابه الإدرسي إلى ذلك وألف له كتاباً اسماه نزهة المشتاق أو الكتاب الروجاري وقد عرف الإدرسي بلقب استرایون العرب ويعد من أعظم جغرافي العصور الوسطى.

ومن الجغرافيين الذين ألفوا الموسوعات الجغرافية الهمامة ياقوت الحموي (ت ١٢٦هـ) في كتابه معجم البلدان الذي يعتبر معجماً تاريخياً لحياة العرب ودولهم وممالكهم ويمتاز بترتيبه على حروف الهجاء وباتساع مادته وجمعه بين المادة الجغرافية والمادة التاريخية والأدبية وقد اختصر السيوطي معجم البلدان في كتاب أسماء مختصر معجم البلدان كما استخلص ابن عبد الحق البغدادي من معجم البلدان مادة الجغرافية ووضعها في كتاب مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاء.

أما النويري (شهاب الدين أحمد ت ٧٣٣هـ) فقد أفرد القسم الأول من مؤلفه نهاية الأرب في فنون الأدب للحديث عن السماء العلوية والأرض والمعالم السفلية وكذلك الفقشندي (ت ١٢١هـ) في كتابه الموسوم صبح الأعشى في صناعة الأنثا الذي كتبه بديوان الأنثا بمصر ورتبه على مقدمة وعشرين مقالات وخاتمة وأخيراً نذكر العمري شهاب الدين بن فضل الله ٧٤٨هـ في مؤلفه الموسوم مسالك الأبصار في ممالك الأبصار الذي بدأ فيه بالشرق وختمه بالمغرب.

كتب الرحلات:

كانت الرحلة من العناصر القوية البارزة في حياة المجتمع العربي في عصور الازدهار وقد ساعد على ذلك اتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية وقيام المراكز العلمية في البصرة والكوفة وبغداد وبخارى وسامرفند ومرزو ونيسابور والفسطاط والقاهرة والإسكندرية وطرابلس ودمشق وتونس والقيروان وفاس وقرطبة وغرناطة وغيرها من المدن التي حملت مشعل الحضارة العربية الإسلامية وكان من الطبيعي أن يرحل العرب من مركز علمي إلى آخر في الدولة العربية التماساً للعلم ورغبة في تحصيله على شيوخه في المشرق والمغرب على أن الحج ظل يشكل أساساً من أسس الرحلات بين أقطار المشرق والمغرب باعتباره فريضة من فرائض الدين الإسلامي الحنيف.

وقد حرص الرحالات العرب على تدوين مشاهداتهم وتسجيل أخبار رحلاتهم وأسفارهم فذكروا المدن التي نزلوها والمسافات التي قطعواها في تنقلاتهم ووصفووا ما شاهدوا من نواحي الحضارة في كل بلد طرفة، كما أن بعضهم وصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة وعلى الرغم من تعدد دوافع الرحلات فإن ما وصلنا من كتب الرحلات ضئيل للغاية ولعل

السبب في ذلك يعود إلى ضياع معظمها والى أن كثيراً من الرحالة آثر أن يدمج مشاهداته فيما ألفه من كتب تاريخية أو جغرافية (مثل ابن حوقل والمسعودي).

ومن الرحالة الذين بروزاً في القرن الرابع الهجري أَحمد بن عباس بن رشيد المعروف بابن فضلان الذي أوفده الخليفة العباسى المقتدر بالله إلى ملك البلغار سنة ٤٣٠ هـ وقد دون ابن فضلان وصفاً لرحلته هذه في كتاب يعد مرجعاً أساسياً للجغرافيين أمثال ياقوت والمسعودي والاصطخري ومن الرحالة العرب في هذا القرن المسعودي الذي اكتسب شهرته كمؤرخ وجغرافي ورحالة وقد زار المسعودي بلاد فارس ومناطق من الهند كما زار الصين ومدغشقر وأسيا الصغرى والشام ثم استقر بمصر حيث توفي هناك وكتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر سجلاً هاماً لرحلاته وملحوظاته دون فيه خلاصة تجاربه وخبراته في الرحلات.

ومنذ القرن السادس الهجري أصبح بالإمكان تميز فريقين من الرحالة العرب المشارقة والرحالة العرب المغاربة ويمثل الفريق الأول الhero (أبو الحسن علي بن أبي بكرت ٦١١ هـ) وكتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات وعبد اللطيف البغدادي (توفي في أوائل القرن السابع الهجري) مؤلف الكتاب الموسوم الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر.

أما الرحالة المغاربة فيأتي في مقدمتهم ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد البليسي ت ٦١٤ هـ) كتابه تذكره بالأخبار عن اتفاقات الأسفار المشهور بالرحالة ابن جبير، ثم ابن سعيد المغربي (ت ٦٧٣ هـ) في مؤلفه الموسوم النفحة المسكية في الرحلة المكية وكتاب المغرب في حل المغرب وكتاب المشرق في حل المشرق ومن الرحالة المغاربة نذكر أيضاً ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن محمد الطنجي ت ٧٧٠ هـ) ومؤلفه الموسوم تحفة الأنظار في

غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة ثم التيجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد ت ٧١٨هـ) صاحب كتاب رحلة التيجاني وابن رشيد السبتي الفهري (ت ٧١١هـ) الذي قام برحلتين الأولى طاف فيها بنواحي المغرب والثانية جاب خلالها مدن الأندلس وكذلك البلوي (أبو البقاء خالد بن عيسى توفي في أواخر القرن الثامن الهجري وكتابه تاج المغرب في تحليه علماء المشرق ثم الغرناطي (أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم ت ٥٦٥هـ) في كتابه الموسوم نخبة الأذهان في عجائب البلدان.

كتب الأدب:

تعرضت كتب الأدب العربي لرواية بعض الأخبار الخاصة بالبلدان أو القضايا التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التي تساعده الباحث في التاريخ والحضارة العربية على الإلمام بجوانب من هذه الحضارة ومن أمثلة الكتب الأدبية التي تعتبر مصادر هامة للتاريخ العربي الإسلامي كتب عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ (الحيوان، البخلاء، وكتاب البيان والتبيين، وكتاب التبصر بالتجارة وكتاب التاج في أخلاق الملوك. ومؤلفات ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) عيون الأخبار والمعارف، الإمامة والسياسة، والشعر والشعراء، وكذلك كتاب المبرد محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ) الموسوم بالكامل وكتاب الأغاني لأبي فرج علي بن الهيثم المعروف بالأصفهاني وكذلك كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لمحمد بن أبي طالب الدمشقي المعروف بشيخ الربوة كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وكتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقرئ.

كتب الشعر العربي:

يعتبر الشعر العربي من المصادر الهامة لتأريخ العرب وحضارتهم فهو يصور أحوالهم الاجتماعية والسياسية والدينية ويقدم صورة واضحة عن طباعهم وعاداتهم وأخلاقهم وقد قيل في الشعر العربي أنه ديوان العرب وهو ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون، إليه يصيرون وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر ومنه تعلمت العربية وعلى الرغم من أن الشعر العربي قد تعرض للضياع بسبب تدويته في تاريخ متأخر وقد تولى جمعه عدد من الرواة الحاذقين الذين تخصصوا برواية الشعر ومنمن اشتهر بجمعه منهم حماد الرواية (ت ١٥٥ هـ) وأبو عمرو العلاء (ت ١٥٤ هـ) والأصممي والمفصل بن محمد الكوفي صاحب المفضليات، وأبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني وأبو عبد الله محمد ابن زياد الأعرابي وخالد بن يزيد.

بالإضافة إلى الشعر العربي هناك الأمثل العربية التي تعبر عن بيئة العرب وتطورها ومن أهم المصادر في هذا الموضوع كتاب مجمع الأمثال لأبي الفضل بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني (ت ٥١٨ هـ) ويشتمل الكتاب على نيف وستة آلاف مثل مرئية على حروف المعجم وتمتد من مرحلة ما قبل الإسلام إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين.

كتب الخراج:

وهي المؤلفات التي عالجت النظم الاقتصادية في الدولة العربية من الناحية النظرية أو الفقهية ومثل هذه المؤلفات لها أهميتها في إمداد الباحثين بمعلومات دقيقة عن الأوضاع الاقتصادية خلال حكم الخلفاء الراشدين والأمويين ومن أمثلة هذه الكتب: كتاب الخراج لأبي يوسف (ت ١٨٢ هـ) الذي يتضمن أخبارا هامة عن الفتوح ونظم الخراج وكذلك كتاب الخراج لأبي الفرج قدامة بن

جعفر (ت ٤٣٧ هـ) الذي تناول فيه الدولة العربية وماجاورها من البلاد، ونظم الثغور ومنها كتاب الأحكام السلطانية لأبي الحسن الماوردي (ت ٥٠٤ هـ) الذي تحدث عن الخلافة ونظام القضاء والنظم المالية.

كتب الخطط:

تمد هذه الكتب الباحثين بمعلومات مهمة عن المنشآت المعمارية والمعالم الطبوغرافية وال عمران المدني والتخطيط خلال عصور الدولة العربية الإسلامية وأشهر من كتب في هذه الموضوعات المقريزي في مؤلفه الموسوم المواتظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار وأخيراً كتب الحسبة التي تقدم للباحثين صوراً عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ومن الكتب التي وصلتنا نذكر :

- ١- كتاب معالم القرية في أحكام الحسبة، لمحمد بن محمد القرشي. المعروف بابن الأخوة.
- ٢- كتاب آداب الحسبة، لأبي عبد الله القسطي.
- ٣- كتاب آداب الحسبة، لابن عبدون.
- ٤- كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، لعبد الرحمن الشيرازي
- ٥- كتاب الحسبة في الإسلام، لأحمد بن تيمية.

المصادر والمراجع

المصادر:

١. ابن الأثير: عز الدين علي بن محمد الجزري الشيباني (ت ٥٦٣٠هـ). "الكامل في التاريخ" لبنان ١٩٦٦.
٢. ابن الأخوة القرشي: محمد بن محمد (ت ٥٧٢٩هـ). "معالم القربة في أحكام الحسبة" كامبرج ١٩٣٧.
٣. ابن أثيم: أبو محمد أحمد بن أثيم الكوفي. (ت ٤٥٣١هـ). "كتاب الفتوح" مطبعة مجلس دار المعرفة حيدر أباد - ١٩٧٢.
٤. الأزردي: أبو زكريا يزيد بن محمد (ت ٤٣٤هـ). "فتح الشام" كلكتا ١٨٥٤.
٥. الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله (٤٢٤هـ). "أخبار مكة" تحقيق رشدي صالح ملحس - بيروت ١٩٧٩.
٦. الأصفهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله (٤٣٠هـ). "حلية الأولياء" القاهرة ١٩٣٨.
٧. ابن أبي الحديد: عبد الله بن أحمد (ت ٦٥٦هـ). "شرح نهج البلاغة" القاهرة ١٩٦٢.
٨. البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ). "أنساب الأشراف" القدس ١٩٣٦.
٩. _____: "فتح البلدان" نشر صلاح الدين المنجد - القاهرة ١٩٥٧.
١٠. ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧هـ). "مناقب عمر بن الخطاب" القاهرة (د.ت).

١١. الجهشياري: أبو عبد الله محمد بن عبادوس (ت ٣٣١ هـ). "الوزراء والكتاب" القاهرة ١٩٣٨.

١٢. ابن حجر العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ). "الإصابة في تميز الصحابة" القاهرة ١٩٣٩.

١٣. الحنبلبي: الحافظ أبي الفرج (ت ٧٩٥ هـ). "الاستخراج لأحكام الخراج" القاهرة ١٩٣٤.

١٤. الحنبلبي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩ هـ). "شذرات الذهب" القاهرة ١٣٥٠ هـ.

١٥. ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي (ت القرن الرابع الهجري). "كتاب صورة الأرض" بيروت (د.ت).

١٦. أبو حنيفة الدينوري: أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ). "الأخبار الطوال" تحقيق محمد عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦٠.

١٧. ابن خزدابه: أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠ هـ) "المسالك والممالك" لابن دينار ١٨٨٩.

١٨. ابن خلدون: ولی الدين بن عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ) "المقدمة" بيروت ١٩٨١.

١٩. ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد (ت ٦٨١ هـ). "وفيات الأعيان" تحقيق: محمد محي الدين القاهرة ١٩٤٨.

٢٠. خليفة بن خياط: أبو عمرو (ت ٢٤٠ هـ). "تاريخ خليفة بن خياط" تحقيق سهيل زكار دمشق ١٩٦٥.

٢١. الدينوري: ابن قتيبة أبو محمد عبد الله (ت ٢٧٦ هـ). "الإمامية والسياسة" القاهرة ١٩٦٣.

٢٢. الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ). "تاريخ الإسلام". القاهرة ١٣٦٩.
٢٣. ابن رسته: أبو علي بن عمر (توفي القرن الثالث الهجري) "الأعلاق النفيسة" لابن لادن - ١٨٩١.
٢٤. الزبيدي: محب الدين أبي الفيض (ت ١٢٠٥هـ) "تاج العروس من جواهر القاموس" القاهرة ١٣٠٦هـ.
٢٥. ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ). "الطبقات الكبرى" بيروت ١٩٦٨.
٢٦. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ). "تاريخ الخلفاء" تحقيق محمد محى الدين القاهرة - ١٩٦٩.
٢٧. الشافعي: محمد بن ادريس (ت ٥٣٠هـ). "الأم" بولاق - ١٣٢١هـ.
٢٨. الشريسي: أحمد بن عبد المؤمن (ت ٤٥٧هـ). "شرح مقامات الحيدري" القاهرة ١٩٥٢.
٢٩. الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ). "المثل والنحل" القاهرة ١٩٦٨.
٣٠. الصولي: أبو بكر محمد (ت ٥٣٣هـ). "أدب الكتاب" تحقيق محمد بهجت الأثري القاهرة ١٣٤١هـ.
٣١. ابن طباطبا: محمد بن علي. "الفخرى في الآداب السلطانية والدول العربية" بيروت ١٩٦٠.
٣٢. الطبرى: محمد بن جرير (ت ٣١١هـ). "تاريخ الطبرى" (تاريخ الرسل والملوك) تحقيق أبو الفضل إبراهيم القاهرة (١٩٦٩-١٩٦٠).
٣٣. ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ). "فتوح أفريقية والأندلس" بيروت ١٩٦٤.

٣٤. : "فتح مصر وأخبارها" لـ الدين - ١٩٢٠.

٣٥. ابن عبد ربه: أبو عمر شهاب الدين (ت ٣٢٧ هـ). "العقد الفريد" القاهرة - ١٩٤٤.

٣٦. أبو عبيد: القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ). "الأموال" تحقيق: محمد خليل هراس القاهرة ١٩٦٨.

٣٧. ابن عذارى: أبو عبد الله محمد المراكشى (ت ٧١٢ هـ). "بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لـ الدين - ١٩٥١.

٣٨. ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥١٧ هـ). "التاريخ الكبير" دمشق ١٣٢٧ هـ.

٣٩. أبو علي: سعيد بن محمد (ت ٣٣٤ هـ). "تاريخ الرقة" حماه ١٩٥٩.

٤٠. العمري: ابن فضل الله (ت ٧٤٩ هـ). "مسالك الأبصار" القاهرة - ١٩٢٤.

٤١. قدامة: أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٣٧ هـ). "الخرج وصناعة الكتابة" تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي - بغداد - ١٩٨١.

٤٢. ابن قدامة: أبو محمد عبد الله بن محمد (ت ٦٢٠ هـ). "المغني" تحقيق محمد رشيد رضا القاهرة - ١٣٦٧ هـ.

٤٣. الفلاقي: ابن أبي العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ). "صبح الأعشى" القاهرة - (د.ت).

٤٤. الكلندي: أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ). "كتاب الولاة وكتاب الفقهاء" بيروت ١٩٠٨.

٤٥. الكاساني: علاء الدين أبي بكر (ت ٥٨٧ هـ). "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع" تحقيق أحمد مختار القاهرة - (د.ت).

٤٦. الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ). "الأحكام السلطانية" . القاهرة - ١٩٦٠.
٤٧. _____: أدب القاضي: - بغداد - ١٩٧٠.
٤٨. المبرد: أبو العباس بن يزيد (ت ٢٨٥هـ). "الكامل في الأدب" بيروت (د.ت)
٤٩. المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٣٨٧هـ). "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" - لایدن - ١٩٠٦.
٥٠. المقرizi: نقي الدين أبو العباس (ت ٨٤٥هـ). "الخطط" بولاق - ١٢٧٠.
٥١. _____: "النقوذ" - القاهرة - ١٩٣٩.
٥٢. المقرئ: أحمد بن محمد (ت ٤١٠هـ). "فتح الطيب" تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة - ١٣٦٧هـ.
٥٣. المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ). "مروج الذهب ومعادن الجوهر" - بيروت - ١٩٦٥.
٥٤. ابن منظور: أبو الفضل محمد بن مكرم الانصارى (ت ٧١١هـ). "لسان العرب المحيط" - بيروت - ١٩٧٠.
٥٥. التویری: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ). "نهاية الأرب في فنون الأدب" - القاهرة - (د.ت).
٥٦. ابن هشام: أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٣هـ). "سيرة ابن هشام" - تحقيق مصطفى السقا - القاهرة - ١٩٣٦.
٥٧. الواقدي: محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ). "فتح الشام" تحقيق عمر أبو النصر بيروت - ١٩٦٦.
٥٨. وكيع: محمد بن خلف بن حيان (توفي في أوائل القرن الرابع الهجري). "أخبار القضاة" - القاهرة - ١٩٤٧.

٥٩. ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ). "معجم البلدان" ببيروت - ١٩٦٥.
٦٠. اليعقوبي: احمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤ هـ). "تاریخ الیعقوبی" - بیروت - ۱۹۶۰.
٦١. أبو يعلي: محمد بن الحسين الحنبلی (ت ٤٥٨ هـ). "الأحكام السلطانية" صاحبه وعلق عليه محمد حامد الفقي - القاهرة - ١٩٣٨.
٦٢. أبو يوسف: القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت ١٨٢ هـ). "الخرج" القاهرة - ١٣٨٢ هـ.

المراجع

المراجع العربية:

٦٣. ارنولد، توماس: "الدعوة إلى الإسلام" - ترجمة حسن إبراهيم حسن - القاهرة ١٩٥٧.
٦٤. أوليري، دي لاسي: "مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب" ترجمة تمام حسان - القاهرة - ١٩٦١.
٦٥. بخيت، عبد الحميد: "عصر الخلفاء الراشدين" - القاهرة - ١٩٦٥.
٦٦. بدوي، عبد الرحمن: "تراث اليوناني في الحضارة الإسلامية" - القاهرة - ١٩٦٥.
٦٧. بيضون، إبراهيم: "الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى السقوط الخلافة (٩٢-٤٢٢ هـ)" - بیروت - ۱۹۸۷.
٦٨. بروكلمان، كارل: "تاريخ الشعوب الإسلامية" - بیروت - ۱۹۶۵.
٦٩. جوزي-بندي: "من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام" - بیروت - (د.ت).

- . ٧٠. حسن، حسن إبراهيم: "تاريخ الإسلام السياسي" القاهرة - ١٩٦٤.
- . ٧١. _____: "النظم الإسلامية" - القاهرة - ١٩٧٠.
- . ٧٢. الحديسي، نزار: "محاضرات في التاريخ العربي" - بغداد - ١٩٧٩.
- . ٧٣. حسني، عبد القادر السيد: "الإدارة العربية" القاهرة - (د.ت).
- . ٧٤. الخضري، محمد: "محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية" - القاهرة - ١٩٢٦.
- . ٧٥. الدجيلي، خولة: "بيت المال" - بغداد - ١٩٧٦.
- . ٧٦. دكشن، عبد الأمير: "الخلافة الأموية ٦٨٤-٦٥٥هـ / ٧٠٥-٦٨٤م" بيروت - ١٩٧٣.
- . ٧٧. الدوري، عبد العزيز: "العصر العباسي الأول" - بغداد - ١٩٤٢.
- . ٧٨. _____: "النظم الإسلامية" - ج ١ - بغداد - ١٩٥٠.
- . ٧٩. _____: "مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي" بيروت - ١٩٦٩.
- . ٨٠. _____: "الجذور التاريخية للشعوبية" - بيروت - ١٩٨٠.
- . ٨١. دياب، صابر: "سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط" القاهرة - ١٩٧٣.
- . ٨٢. الرئيس، ضياء الدين: "الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية" القاهرة - ١٩٥٧.
- . ٨٣. سالم، عبد العزيز: "التاريخ والمؤرخون العرب" الإسكندرية - ١٩٦٧.
- . ٨٤. السامرائي، خليل إبراهيم: "النثر الأعلى الأندلسي" - بغداد - ١٩٧٦.
- . ٨٥. سرور، محمد جمال: "تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق" القاهرة - ١٩٦٥.
- . ٨٦. شلبي، أحمد: "التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية" القاهرة - ١٩٦٩.

- .٨٧. الصالح، صبحي: "النظم الإسلامية" - بيروت - ١٩٧٦.
- .٨٨. صايغ، سليمان: "تاريخ الموصل" - موصل - ١٩٢٣.
- .٨٩. العدوبي، إبراهيم: "الأمويون والبيزنطيون" - القاهرة - ١٩٦٣.
- .٩٠. العلي، أحمد صالح: "التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري" بيروت - ١٩٦٩.
- .٩١. علي، سيد أمير: "مختصر تاريخ العرب" - ترجمة عفيف بعلبكي. بيروت - ١٩٦١.
- .٩٢. العاني، عبد اللطيف: "إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي" بغداد ١٩٦٨.
- .٩٣. عثمان، فتحي: "الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتلال العربي والاتصال الحضاري" - القاهرة - ١٩٦٦.
- .٩٤. عمر، فاروق: "طبيعة الدعوة العباسية" - بيروت - ١٩٧٠.
- .٩٥. _____: "العباسيون الأوائل" - بغداد - ١٩٧٧.
- .٩٦. عنان، محمد عبد الله: "دولة الإسلام في الأندلس" - القاهرة - ١٩٥٥.
- .٩٧. غلوب، جون باجوت: "الفتوحات العربية الكبرى" ترجمة خيري حماد - بغداد ١٩٦٣.
- .٩٨. فلوتن، فان: "السيادة العربية" ترجمة حسن إبراهيم حسن - القاهرة - ١٩٣٤.
- .٩٩. فلهاؤزن، يوليوس: "الدولة العربية وسقوطها" ترجمة يوسف العش - دمشق ١٩٥٦.
- .١٠٠. الفياض، عبد الله: "محاضرات في تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية" بغداد ١٩٦٧.
- .١٠١. فيليب، حتى: "تاريخ العرب المطول" - القاهرة - ١٩٥٢.

١٠٠. الفياض، عبد الله: "محاضرات في تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية" بغداد ١٩٦٧.
١٠١. فيليب، حتى: "تاريخ العرب المطول" القاهرة-١٩٥٢.
١٠٢. فيصل-شكري: "حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري" بيروت ١٩٥٢.
١٠٣. كاهن، كلود: "تاريخ العرب والشعوبية الإسلامية" ترجمة بدر الدين القاسم بيروت ١٩٧٢.
١٠٤. الكبيسي، عبد المجيد صالح: "عهد هشام بن عبد الملك" بغداد ١٩٧٥.
١٠٥. المعاضيدي، عبد القادر: "واسط في العصر الأموي" بغداد ١٩٧٦.
١٠٦. معروف، نايف: "الخوارج في العصر الأموي" بيروت ١٩٨١.
١٠٧. مؤنس، حسين: "فتح العرب للمغرب" القاهرة-١٩٥٩.
١٠٨. _____: "فجر الأندلس" القاهرة ١٩٥٩.
١٠٩. النقشبendi، ناصر السيد محمود: "الدرهم الإسلامي" بغداد ١٩٦٩.
١١٠. نعمان، ثابت: "الجندية في الدولة العباسية" بغداد ١٩٥٦.

المراجع الأجنبية:

111. Bury. J.B. "A history of the later Roman Empire" London –1889.
112. Hitti,P. "History of the Arabs" London –1981
113. Segal, J.B. "Edessa" Oxford –1970
114. Watt. M- "A history of Islamic Spain" Edinburgh 1965
115. Zakaria, R "Rise of Muslims In Indian Politics" Bomby – 1971.



المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٥	الفصل الأول: خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠ هـ/ ٦٦١-٦٨٠ م)
٦	انتقال الخلافة إلى الأمويين
٨	دور معاوية بن أبي سفيان في تأسيس الدولة الأموية
٨	أهم ولاة معاوية
١٥	جهود معاوية في حرب التحرير والفتح.
٢٨	ولاية العهد
٣٣	الفصل الثاني: الأوضاع السياسية للدولة الأموية بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان
٣٤	ثورة الحسين بن علي (رض).
٣٨	حركة عبد الله بن الزبير
٤٠	انتقال الخلافة إلى البيت المرواني
٤٢	حركة سليمان بن صرد الخزاعي
٤٦	حركة المختار بن أبي عبيد
٦٠	الخوارج
٦٠	أصولهم
٦١	حركات الخوارج

٦٧	الفصل الثالث: عبد الملك بن مروان ودوره في إعادة وحدة الدولة الأموية
٦٨	القضاء على حركة عمرو بن سعيد الأشدق
٧٠	القضاء على حركة أبناء الزبير
٧٠	القضاء على حركة مصعب بن الزبير
٧٣	القضاء على حركة عبد الله بن الزبير
٧٧	القضاء على خطر الخوارج
٨١	القضاء على حركة عبد الرحمن بن الأشعث
٨٤	التعريب
٨٩	الفصل الرابع: حركة التحرير والفتوحات العربية الإسلامية في العصر الأموي
٩٠	الجبهة الشرقية
٩٠	فتح بلاد ما وراء النهر
١١١	فتح بلاد السند
١١٥	فتح بلاد بحر قزوين
١١٩	جبهة المغرب والأندلس
١١٩	فتح المغرب
١٢٢	فتح الأندلس
١٣٢	الجبهة الشمالية
١٣٩	الفصل الخامس: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية
١٤٠	الأحوال الاجتماعية
١٤٠	استيطان العرب في خراسان
١٤١	استيطان العرب في أرمينيا وأذربيجان

١٤٦	رعاية الدول العربية
١٤٩	الأحوال الاقتصادية (الزراعة ومشاريع الري)
١٤٩	القطاع و القطاع
١٥٠	إحياء الأرض واستصلاحها وزرعها
١٥٢	استصفاء الصواخي
١٥٣	مظاهر عامة أخرى في إحياء الزراعة
١٥٥	مشاريع الري
١٥٨	الجزية والخراج
١٥٨	إصلاحات عمر بن عبد العزيز
١٥٩	إصلاحات الأشرس بن عبد الله السلمي ونصر بن سيار
١٦٠	الرزق والعطاء
١٦٣	الفصل السادس: التنظيمات الإدارية والعسكرية
١٦٤	الخلافة
١٦٦	الولاية
١٦٩	القضاء
١٧٢	الجيش
١٨٤	الشرطة
١٨٦	الأسطول
١٩١	الفصل السابع: مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في العصر الأموي
١٩٢	الحياة الفكرية
١٩٢	العلوم الدينية
١٩٣	علوم اللغة
١٩٤	الشعر

١٩٥	علم الكلام
١٩٧	علم التاريخ
١٩٩	علوم الكيمياء والطب
١٩٩	الحركة العمرانية
١٩٩	تخطيط المدن وبناؤها
٢٠٠	بناء القبروان
٢٠١	بناء واسط
٢٠٦	الجاذبية
٢٠٦	الرملة في فلسطين
٢٠٧	رصافة الشام
٢٠٨	بناء المساجد
٢٠٨	تجديد المساجد الأولى
٢٠٩	إنشاء المساجد الجامعية الجديدة
٢٠٩	الجامع الأموي في دمشق
٢١١	قبة الصخرة
٢١٢	المسجد الأقصى
٢١٢	بناء القصور
٢١٥	الفصل الثامن: سقوط الدولة الأمية
٢٢٥	الملاحق
٢٢٦	الملحق رقم (١)
٢٥١	الملحق رقم (٢)
٢٧٥	المصادر والمراجع
٢٨٥	المحتويات